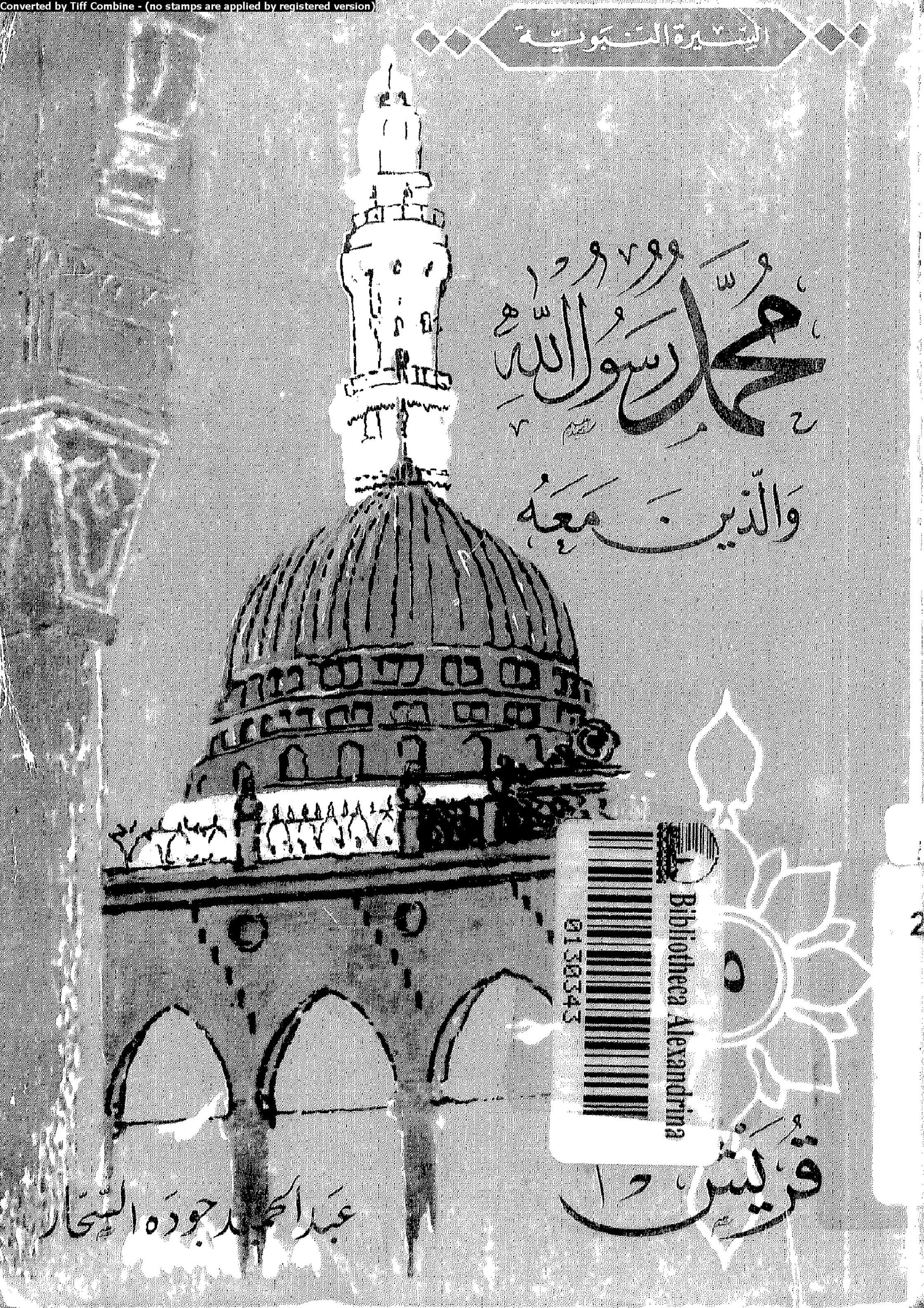
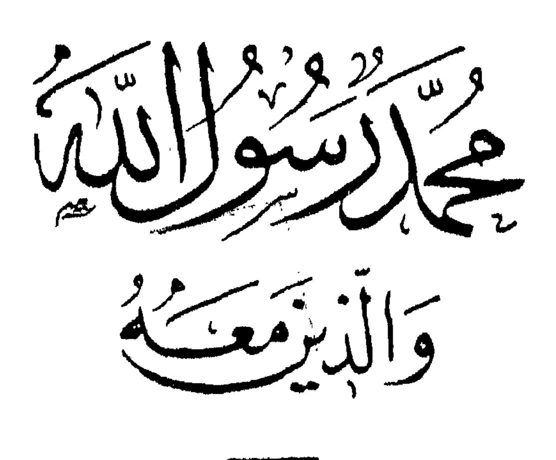
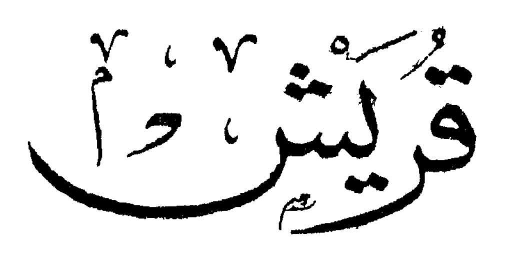

السيرة النبوية
محمد رسول الله
والذين معه
٥
قريش ١
عبد الحميد جودة السحار
Bibliotheca Alexandrina
0130343



السيرة النبوية





عبد الحميد جوده السحار

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾
(قرآن كريم)

١

وقف تبان أسعد ملك اليمن فى قصره ينظر إلى السماء ، فإذا بالبرق يبرق بين السحاب كضوء لمع فى الظلمات على صفحة الماء ما لبث أن خبا ، وزمجر الرعد وسرعان ما هطلت الأمطار وتدفق السيل على سفوح الجبال ، فبدا كالأنهار تنحدر إلى سد مأرب .

راح تبان يقلب وجهه فى الجبال التى ازدانت بالأشجار . وفى الوديان التى أينعت وأثمرت ثمارا كاليواقيت والمرجان ، وفى المروج الخضر التى وشيت بالنوار الأصفر والورود الحمر والزنابق البيض ، فبدا الكون كلوحة رائعة ابتدعها الفنان الأعظم ، وما لبثت الألوان أن تعاقبت على رقعة السماء فى تناسق عجيب يلذ الأعين ويملأ الأفئدة روحانية وانشراحا . فاستشعر تبان أنه يندمج فى الوجود ، وأن روحه تسجد لخالق تلك الروعة وذلك الجمال .

وظل تبان أسعد ينظر وهو مشدوه تسبح كل جوارحه لرب السماء ، وتمتص نفسه رحيق النعيم ، ويتألق وجدانه بالنور ، فقد زين الله قلبه للإيمان وفضله على كثير من العالمين .

ودار تبان أسعد على عقبيه وراح يغدو ويروح فى قاعة العرش وقد أطرق يفكر ، فألفى أن الله قد أنعم عليه بملك سعيد : إنه ملك حمير وريدان وسبأ وسليح ، وقد هزم الحبشة ودانت له فصار ملك الملوك . ولم يشعر تبان بالكبر ولم تنتفخ أوداجه عظمة بل تقاصرت نفسه ورق قلبه واغرورقت عيناه بالدموع .

وانقطع المطر وراح أصحاب الحاجات يتوافدون على القصر العظيم . وقد

جلس تبان أسعد أبو كرب بن ملكى كرب تبع اليمن يقضى بين الناس بالحق ، حتى إذا ما انتهى من النظر فى المظالم فتحت أبواب العرش لاستقبال رسل الملك ، فقد هابته الملوك وعظمته وأوفدت إليه الرسل بالرسائل والهدايا .

ودخل عليه رسول ملك الهند وحياه فى إجلال ثم راح يقدم إليه الهدايا والتحف من الحرير والمسك والعود ، وأخذ تبان يقلب الهدايا فى ذهول ، كانت آية فى الروعة ، إنه رأى ما لم ير مثله فقال :

ــ ويحك أكل ما أرى فى بلادكم ؟

فقال رسول ملك الهند :

ــ أبيت اللعن ! أقل ما ترى فى بلادنا وأكثره فى بلاد الصين .

وراح الرجل يصف بلاد الصين وسعتها وخصبها وكثرة طرفها فقال تبان :

ــ ورب السماء لأغزونها .

وجمع حمير وسار بها قاصدا غزو تلك البلاد التى تفيض بالخيرات ، فمر بمكة ثم انطلق إلى يثرب فرحب به العرب واليهود من بنى قريظة وبنى النضير . وراح تبع يقلب عينيه فى يثرب فرأى الآطام تدل على عز أهلها ومنعتهم . إنهم يتحصنون فيها من عدوهم ، فخشى أن يتفق العرب واليهود على أن يغدروا به ويقطعوا عليه طريق عودته ويتحصنوا فى تلك الحصون المنيعة ، فترك بيثرب حامية على رأسها ابن له ومضى إلى الشام فى طريقه إلى الصين .

وسار تبان أسعد تبع اليمن بحمير مساجلا حتى أتى الركائب وأصحاب القلانس السود : ووجه رجلا من أصحابه يقال له ثابت نحو الصين فى جمع عظيم ، فأصيب ثابت فلم ير تبّع مفرا من أن ينطلق إليها بنفسه فصار حتى دخل الصين ، فقتل مقاتليها واكتسح ما وجد فيها وخلف بالتبت اثنى عشر ألف فارس من حمير ، فهم أهل التبت قد جرت فى عروقهم دماء عربية .

وقفل تبع راجعا إلى العراق فبلغها بعد سبع سنين مذ خرج أول مرة من

بلاده ، وما كان يستقر بها حتى جاءه النذير بخبر مقتل ابنه بيثرب غيلة ، فأقبل راجعا يريد تخريب يثرب انتقاما لابنه الحبيب .

ونزل تبع بحمير بسفح جبل أحد ، ثم احتفر بئرا تأهبا لقتال من غدروا بابنه . ولم يشأ أن يسفر عن نيته حتى لا يحتمى القوم فى آطامهم المنيعة ، فأرسل إلى أشرافهم فلما جاءهم الرسول تحركت طبيعة اليهود، قال قائل منهم :

— إنما أراد أن يملكنا على قومنا .

وقال بعضهم :

— والله ما دعاكم لخير .

وأقبل أشراف يثرب فدخلوا على تبع وراحوا يتحدثون معه وأصغى الرجل الذى أوجس خيفة من تبع إلى حديثه ففطن إلى الشر ، فاستأذن من تبع قائلا :

— إن أصحابى يصلونك إلى الظهر وعندى حاجة أقضيها .

فأذن له فانطلق ليتحصن فى حصنه ويأمر أهل يثرب أن يدخلوا آطامهم ، فقد جاءهم تبان بن أسعد تبع اليمن يبغى بهم شرا .

وتحصن الرجال والنساء فى الحصون ، ورأى تبع أن حيلته افتضحت فأعلنها حربا سافرة على يثرب وأهلها من عرب ويهود ، وحاصر الحصون ثلاثة أيام دون جدوى . ودخل رجل من رجال تبع حديقة من حدائق يثرب وراح يقطع سباطة نخل ، فجاء صاحب النخل وقتله وجره إلى بئر وألقاه فيها ، فزاد ذلك تبعا حنقا فراح يرمى الحصون بالنبل دون جدوى ، فارتد إليه غيظه فصاح فى رجاله :

— أحرقوا النخيل .

وبدأ رجال حمير فى تنفيذ أوامر مولاهم ، وفطن أحبار اليهود إلى ما يريد تبان

ابن أسعد بعدما أعماه غضبه فأمروا بفتح الحصن وخرجوا قاصدين الملك .

وظن تبع أنهم قدموا ليفاوضوه فى شروط التسليم فراح يفكر فيما يقبله ليضع عنهم أوزار هذه الحرب ، إنه لن يقبل إلا قتل مقاتليهم واستباحة نسائهم وأسر ذراريهم . وأقبل الأحبار مطمئنين وتقدم رجل منهم وقال :

— أيها الملك مثلك لا يقتل على الغضب ، وأمرك أعظم من أن يطير بك برق أو يسرع بك لجاج ، فإنك لا تستطيع أن تخرب هذه القرية .

فقال تبع فى استخفاف :

— ولم ؟

فقالوا :

— أيها الملك إن هذه البلدة محظوظة ، فإنا نجد اسمها فى الكتاب طيبة ، وإنها مهاجر نبى من بنى إسماعيل .

والتفتوا ناحية مكة وقالوا فى صوت امتزج فيه الإيمان باليقين :

— يخرج من عند هذه البنية .

وفى مثل لمح البصر احتلت صورة الحرم صفحة رأسه ، وأحس كأن الكعبة استوت على عرش قلبه ، فقد كان تبع يؤمن بالله فى قرارة نفسه وكان على ثقة من أن البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس وأنه بيت الله ، من لاذ به رشد ، فراض للنفس على إن يلين جانبه عسى أن يكون من المفلحين .

ورن بين جوانحه أصوات تردد :

— إنها مُهَاجَر نبى من بنى إسماعيل من الحرم .. إنها مهاجر نبى من بنى إسماعيل من الحرم .. وهى تكون قراره فلن تسلط عليها .. وهى تكون قراره .. وهى تكون قراره .. فلن تُسلط عليها .. فلن تسلط عليها .. فأحس أنه أهون على الله من أن ينكل بأهل يثرب وأن يحرق مهاجر رسول من رسله ، فخفض لأهل يثرب جناح الذل من الرحمة ، وعفا عن قوم غدروا به وقتلوا

ابنه غيلة .

وراح تبع وأحبار اليهود يتسامرون فراحوا يحدثونه عن التوراة وعن ذلك النبي العربي الذي يجدونه مكتوبا عندهم . وآنس بعض رجال تبع بالحديث فألقوا إليه سمعهم وقد انشرحت صدورهم وامتلأت أفئدتهم بالنور .

وحان أوان الرحيل فتأهب الرجال للسفر ، وبينما كان تبع في مجلسه جاءه بعض رجاله والتمسوا منه أن يأذن لهم بالبقاء في يثرب ، فقال لهم في عجب :

ــ أتبغون أن تستقروا هنا ؟ هنا في يثرب ؟

ــ نعم . تعاقدنا على ألا نخرج منها .

ــ وما سر ذلك ؟

ــ إنا سمعنا أن نبيا هذه دار مُهَاجره فنحن نقيم لعلنا نلقاه .

وبارك تبع هذه الرغبة ، وبنى لكل واحد من أولئك الرجال دارا واشترى له جارية وزوجه إياها وأعطاه مالا ، وبنى دارا فاخرة ، وقال :

ــ هذه الدار من تبان أسعد إلى النبي المنتظر لينزلها إذا قدم يثرب .

وخرج العرب واليهود والأحبار ، ومن بقي من حمير في يثرب انتظارا لهجرة الرسول الكريم لوداع تبع ورجاله ، حتى إذا ما بلغوا أرباض يثرب تعانق الرجال مودعين ، ثم انطلق الجيش إلى مكة وقد وضعت السيوف ونكست الرءوس إجلالا للحرم .

وبلغ تبع والذين معه أرض مكة فنزلوا عن رواحلهم وتقدم تبع من الكعبة وهو يمشي على الأرض هونا ، لم يصعر خده للناس ولم يشمخ بأنفه ، بل كان متواضعا لله انشرح صدره ورحبت ذاته حتى كادت تحتوي الكون كله ، ورقت نفسه حتى بللت الدموع قلبه وإن لم تطفر من مآقيه .

راح تبع ورجال حمير يطوفون بالبيت العتيق وارتفعت أصواتهم بالتهليل لرب البيت ، فاستشعروا كأن أحمالا رفعت عن صدورهم ، وأن نورا غسل

أدران قلوبهم ، وأن راحة تدسست بين ضلوعهم ، وأن أرواحهم سمت فوق مطالب أبدانهم وأنها ارتفعت لتندمج فى روح الوجود .

وأتم تبع طوافه وراح يتقدم خافق القلب نحو الكعبة ، ونزع عنها كسوتها وهو غائب عن كل ما حوله وراح يسدل عليها كسوة جديدة فاخرة وقد ذهبت نفسه شعاعا ، فكل شيء هادئ لا همسة ولا نأمة ، وغمر المكان بنور لطيف لكأنما تجلى على الحرم نور النور ، فلم يقو تبع على أن يأخذ بزمام عواطفه فإذا بعبراته تتساقط على خديه ، وإذا بصوت خافت ينبع منه كأن نشيجا يحاول أن يطويه .

وبدا كأن جبال مكة ووديانها كانت ترجع فى تلك اللحظة صدى دعاء إبراهيم الخليل وإسماعيل صادق الوعد الأمين لما كانا يقيمان القواعد من البيت :

ــ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم .

٢

كان العدنانيون يعيشون فى سلام آمنين حول الحرم بينما يتخطف الناس من حولهم ، وكانوا يعبدون الله وحده لا شريك له فكانوا سعداء بالله ، أينما يولون وجوههم فثم وجه الله ، فعرفوا راحة الضمير وأمن النفس والتوافق مع الحياة .

وكانوا يجدون الملاذ فى رحاب بيت الله من عاصفة الفراغ السياسى التى كانت تهب على الممالك من حولهم ، فكانوا يتفيئون ظلال السلام الإسلامى الذى غرسه خليل الرحمن وإسماعيل الصادق الوعد الأمين مذ أقاما القواعد من البيت فى الأرض المباركة .

وكانوا يجوبون الآفاق ، يخرجون من مكة فى قوافلهم إلى البتراء وبصرى ودمشق وبابل ومنف وسبأ وصرواح وصنعاء ، وكانوا يرون الناس يتعبدون لذى الشرى واللات والعزى ومناة وهبل ومناف وبعل وهدد ومردوخ وسين وشماس وآمون ورع والموقاة وذات حميم ، فكانوا يعرضون عن ذلك الشرك مترفعين بدينهم عن الدنس .

كان من بقى من العدنانيين فى كنف البيت على ملة إبراهيم ليس لهم من إلـٰه إلا الله وحده ؛ وظلت شريعتهم نقية . وكانوا يعلمون أن بنى إسرائيل على دين الخليل فلما عبد اليهود آلهة الأمم وجسموا الله خشى الصالحون من العدنانيين أن يقولوا إنهم على دين إبراهيم حتى لا يظن بهم أنهم آمنوا بما آمن به اليهود لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم . فراحوا يتلفتون يبحثون عن الإسلام النقى الذى بشر به إبراهيم فوجدوه فى دين شعيب ، لم يبدله الناس ولم تطمسه

أساطير الشعوب فقالوا : نحن على دين شعيب .

وكانت الصلات قوية بين العدنانيين والنبط وإن كان النبط قد غيروا دين إسماعيل وجلبوا الآلهة من مصر وسورية والعراق . ولم ينس العدنانيون يوما أنهم من النبط وأن قلمهم الذى يكتبون به نشأ عند البيت ، وأنه هبة هاجر إليهم وقد تطور وتهذب فى أرض النبط . فكانت الأسباب بين العدنانيين والنبط متصلة ، وكانوا جميعا ينظرون إلى هاجر نظرة إجلال ، فانتشر بين بناتهم اسم الجدة المصرية المباركة .

وقامت الحروب بين دولة النبط ودولة إسرائيل حليفة إمبراطورية روما الفتية ، ولم يكتف الأنباط بذلك بل راحوا يزاحمون الرومان فى تجارة المنطقة ، فساق تراجان الجيوش الرومانية ليقضى على المملكة العربية التى امتد نفوذها يوما من بابل إلى دلتا النيل ، واستولت على دمشق قلب سورية .

وتفرق الأنباط الذين أبوا الخضوع للرومان فانتشروا فى الأرض وذهب بعضهم إلى العراق واستقر آخرون فى دومة الجندل وانطلق كثير منهم إلى نفس الطريق الذى جاء منه آباؤهم . لقد عادوا إلى مكة ينشدون الأمن والسلام فى رحاب بيت الله .

خرج أبناء نابت بن إسماعيل من مكة أول ما خرجوا لما ضاقت بهم لينشروا دين الله الواحد القهار ، فلما طال عليهم العهد جلبوا أصنام الشعوب وأقاموا المعابد فى أرضهم لشركاء الله . وحينما انتصر عليهم الرومان عادوا إلى مكة بآلهتهم : اللات والعزى ومناة وهبل وذى الشرى وشيع القوم والآلهة الأخرى ، وبرروا عبادتهم لها بأنهم يتقربون بها إلى الله زلفى . وضاق الصالحون من العدنانيين بعبادة هؤلاء الوافدين من المشركين فراحوا يجادلونهم بالتى هى أحسن ، ليقضوا على الشرك الذى بدأ ينداح فى واحة الإيمان وحصن الوحدانية الحصين .

وولى أمر الكعبة عمرو بن لحى بن قمعة بن إلياس ، وكان قد فتن بالأصنام فجعل لمناة بيتا وللعزى بيتا وللات بيتا بالطائف ووضع أصنام الآلهة فى جوف الكعبة ، وراح يجلب التماثيل من الأمصار .

وشاعت عبادة الأوثان فى مكة وإن بقيت قلة على دين الآباء حنفاء لله لا يشركون به أحدا . وولى كنانة أمر العدنانيين وراح يتقرب بالأصنام إلى الله ، فضايق ذلك أخاه أسد بن خزيمة وصديقه الحرث أبا كعب المذحجى وصهره تميم بن مر إذ كانت برة زوجة كنانة أخته . كانوا على دين شعيب يعبدون الله وحده .

كان أسد بن خزيمة فى منعة من أهله الإياديين ، وكان كنانة قويا بأبناء ربيعة ومضر . وقد ضايق أسد بن خزيمة ذلك الشرك الذى راح ينشر ظله على المكيين ، وخشى أن يأفل نجم التوحيد الذى ظل يتألق فى الكعبة أكثر من ألفى سنة ، فراح يؤلب الإياديين على ربيعة ومضر لعله ينتشل مكة من التردى فى حمأة الشرك والأساطير .

كانت المناوشات مستمرة بين قبائل إياد وقبائل ربيعة ومضر ، وضاق الناس بتلك المناوشات ورأوا أن لا بد من حرب تضع حدا للاضطرابات المستمرة ، فاجتمعت ربيعة ومضر واتفقتا على قتال إياد على بغيها .

ونادت ربيعة ومضر بأنهما تحاربان فى سبيل حرية العقيدة ، وفتن الشباب بالدعوة الباطلة فانضموا دون تعقل إلى الباطل وقد بهرهم زيف المبدأ البراق ، فراحوا يحاربون الدين القيم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وسارت جحافل إياد وزحفت قوات ربيعة ومضر ، وتحاربوا فى موضع يسمى « خانقا » كان لكنانة . ودارت رحى معركة رهيبة بين العدنانيين الموحدين والعدنانيين المشركين بالله ، فغلبت إياد وظعنت من منازلها وتفرقت ثلاث فرق : فرقة مع أسد بن خزيمة بذى صوى ، وفرقة لحقت بعين

أباغ ، وأقبل الجمهور حتى نزلوا بسنداد ثم انتشروا بين سنداد وكاظمة .

ووقعت مكة فى شراك الشرك بالله بعد أن كانت منارة التوحيد فقد كان المكيون يؤمنون دواما بوجود إلٰه قادر واحد لا شريك له ، فلما وفدت الأصنام إليها ظلوا على اعتقادهم بوجود الله وإن جعلوا له شركاء يخضعون لسلطانه ، وغيروا تلبية الحج لتلائم ذلك الاعتقاد الجديد فأصبحوا يلبون تلبية لم يعرفها إبراهيم الخليل ولا أبناؤه الموحدون :

ـــ لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

وعرف الزيغ قلب كنانة فسمى أحد أبنائه عبد مناة ، فصار له من الأبناء قيس ومالك وملكان وعامر والحارث وعمرو بن سعد وعوف وغنم ومخرمة وجرول وغزوان وعبد مناة !

وكان قيس أكبر أبناء كنانة وكان فطنا رحب الصدر واسع الأفق وما كانت العين لتدرك مثل هذه المعنويات . ولما كان حسن الصورة بهى الطلعة يملأ جماله العين فقد أطلق العرب عليه النضر ، وعرف بالنضر كما عرف أبوه من قبل بكنانة لأنه كان ساترا لقومه يعيشون فى كنانته .

ومرت السنون وصار التقرب إلى الله بالأصنام من شعائر الدين ، وحضرت الحرث بن كعب المزحجى الوفاة فرأى وهو عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة أن يوصى بنيه الوصية الأخيرة ، لعل نور التوحيد يضىء صدر مؤمن منهم وينتقل منه إلى قلب آخر إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا ، فجمع بنيه وقال :

ـــ يا بنى قد عمرت ستين ومائة سنة وما صافحت يمينى يمين غادر ، ولا قنعت نفسى بخلة فاجر ، ولا صبوت بابنة عم ولا كنَّة . ولا طرحت عندى مومسة قناعها ، ولا أبحت سرا لصديق وإنى لعلى دين شعيب النبى وما عليه

أحد من العرب غيرى وغير أسد بن خزيمة وتميم بن مر ، فاحفظوا وصيتى وموتوا على شريعتى .

إلـٰهكم فاتقوه ليكفيكم المهم من أموركم ويصلح لكم أعمالكم ، وإياكم ومعصيته فيحل بكم الدمار ، وتوحش منكم الديار .

يا بنى كونوا جميعا ولا تفرقوا شيعا ، وبزوا قبل أن تُبَزوا ، وإن موتا فى عز خير من حياة فى ذل وعجز ، وكل ما هو كائن كائن ، وكل جمع إلى تباين ، والدهر ضربان : فضرب رخاء وضرب بلاء ، واليوم يومان : فيوم حبرة (سرور) ويوم عبرة ، والناس رجلان : فرجل معك ورجل عليك .

وتزوجوا الأكفاء وليستعملن فى طيبهن الماء ، وإياكم والورهاء (الحمقاء) فإنها أدوأ الداء ، وتجنبوا الحمقاء فإن ولدها إلى إفن (حمق) يكون ، إلا أنه لا راحة لقاطع القرابة . وإذا اختلف القوم أمكنوا عدوهم منهم ، وآفة العدد اختلاف الكلمة ، والتفضل بالحسنة يقى السيئة ، والمكافأة بالسيئة دخول فيها ، وعمل السوء يزيل النعماء ، وقطيعة الرحم تورث الهم ، وانتهاك الحرمة يزيل النعمة ، وعقوق الوالدين يعقب النكد ويمحق العدد ويخرب البلد ، والضغائن تدعو إلى التباين .

يا بنى إنى قد أكلت مع أقوام وشربت ، فذهبوا وغبرت ، وكأنى بهم قد لحقت .

وصار الحرث فى الغابرين ولحق بالسابقين ، وقبره بنوه ثم راحوا يزاحمون الحياة وقد ذهبت وصيته أدراج الرياح .

وصارت زعامة الكنانيين إلى النضر وكان يستشعر فى أعماقه أنه إذا اختلف القوم أمكنوا عدوهم منهم ، فراح يلم الشمل ويعمل على أن يعيد الإياديين والعدنانيين الذين تفرقوا فى البلاد إلى حرم الله لتقوى بهم الأمة . وتصبح مكة قوية يسود قبائلها من إياديين ومضريين ونزاريين المحبة والسلام .

وخرجت قوافل التجارة من مكة تحمل الطيب والمر إلى البتراء وبصرى ودومة الجندل والبلقاء والشام ثم عادت تحمل الحرير والذهب والفضة ، وعاد معها الرجال الذين كانوا قد رحلوا عن مكة .

واجتمع فى الحرم الإياديون والنزاريون والمضريون وبنو ربيعة وجميع قبائل العدنانيين فتهلل الناس بالفرح . وجاء النضر بن كنانة الذى قرشهم (جمعهم) وبذل غاية جهده فى جمعهم وتقريشهم فى بيت الله ، فلما رآه الناس هتفوا فى فرح :

— قريش .

وعرف قيس بن كنان بالنضر لجماله وحسنه ، ثم عرف بقريش ، وولد النضر بن كنانة مالك بن النضر ويخْلد بن النضر والصلت بن النضر ، وشب مالك ليخلف أباه على زعامة قريش .

٣

انتشرت عبادة إيزيس الإلٰهة المصرية والأم الحزينة والمواسية المحبة وحاملة هبة الحياة الخالدة بين شعوب البحر الأبيض المتوسط كلها ، فكان يحتفل ببعث أزريس وقيامه من الأموات فى كل مدينة كبيرة على شواطئ هذا البحر العتيد .

وكان عباد إيزيس يرمزون إليها بصور وتماثيل تحمل بين ذراعيها حورس ابنها الإلٰهى ، وكانوا يبتهلون إليها فى صلواتهم ويدعونها : « أم الإلٰه » و« ملكة السماء » . وقد انتشر دين إيزيس التى تقبل كل الناس على اختلاف أممهم وطبقاتهم من مصر إلى بلاد اليونان ، ثم إلى صقلية ومنها إلى إيطاليا ، ثم انتشر بعدئذ فى جميع أجزاء الإمبراطورية حتى نهرى الدانوب والسين ، وأقيم معبد لها فى لندن .

وفى ذلك الوقت قبل ميلاد السيد المسيح بعدة قرون كانت عبادة « مثرا » الإلٰه الذكر تنتقل من فارس إلى أقصى تخوم الإمبراطورية الرومانية ، وكان مثرا بعد أن فسد دين زرادشت ، دين التوحيد ، ابن أهورا مزدا إلٰه النور ، وصار هو أيضا إلٰها للنور والحق والطهر والشرف ، وكان يقال أحيانا إنه هو الشمس وإنه يقود الحرب العالمية ضد قوى الظلمة ، وأنه يشفع على الدوام لأتباعه عند أبيه ويشجعهم فى كفاحهم الدائم للشر والكذب والدنس وغيرها من أعمال أهريما أمير الظلام . ولما أن نقل بمبى هذا الدين إلى أوروبا صور فنان يونانى « مثرا » راكعا على ظهر ثور يطعنه بخنجر فى عنقه ، وأضحت هذه الصورة هى الرمز الرسمى لذلك الدين .

وكانت عبادة سيبل منتشرة فى إيطاليا وقد خصى حبيبها أتيس نفسه قبل أن يموت ويبعث حيا ، فكان كهنتها يخصون أنفسهم كما فعل حبيبها ، فإذا أقبل عيدها الربيعى صام عبادها وصلوا وحزنوا لموت أتيس ، وجرح كهنتها سواعدهم وشربوا دماءهم ، وحمل الإلٰه الشاب إلى قبره باحتفال مهيب ، فإذا كان اليوم الثانى ضجت الشوارع بأصوات الفرح الصادرة من الأهلين المحتفلين ببعث أتيس وعودة الحياة إلى الأرض من جديد ، وعلا صوت الكهنة ينادى أولٰئك العباد :

ـــ قووا قلوبكم أيها العباد المتصوفون ، لقد نجا الإلٰه وستكون النجاة حظكم جميعا .

وفى آخر يوم من أيام الاحتفال تحمل صورة الأم العظمى فى موكب النصر ، ويخترق حاملوها صفوف الجماهير التى تهتف فى انفعال والدموع تترقرق فى مآقيهم :

ـــ أمنا .. أمنا .

كانت الابتهالات ترتفع فى معابد إيطاليا إلى الأم الحزينة إيزيس ، أو الأم العظمى سيبيل ، وكانت الصلوات تنبعث حارة لأم الآلهة ، وكانت القلوب تتهلل بالفرح لبعث الإلٰه وقيامه من الأموات سواء أكان أزريس أو أتيس .

وكانت مواكب أخرى تخلد آلام ديونيسيس وموته وبعثه بطقوس يونانية ، وكانت هناك طقوس خفية فى كل الديانات تتخذ عادة صورة احتفالات تطهير وتثبيت ووحى ، تدور كلها حول موت الإلٰه وبعثه ، وكان الأعضاء الجدد يدخلون فى دين سيبيل بوضعهم عراة فى حفرة يذبح فوقها ثور ، فيسقط دم الحيوان الذبيح على الطالب ويطهره من خطاياه ويهبه حياة روحية جديدة خالدة إلى الأبد . وكانت أعضاء التذكير فى الثور وهى التى تمثل الخصوبة المقدسة ، توضع فى إناء خاص وتهدى إلى الإلٰهة .

وكان عباد إيزيس يمرون بمراحل فى العبادة حتى يرتقوا إلى المرحلة السامية مرحلة الرؤى الصوفية ، فكان المؤمن بإيزيس يصوم فترة الصوم المبدئية الطويلة ، ويلتزم التقى والورع والتقشف والتطهر بالانغماس فى الماء المقدس ، ثم تظهر له فى آخر الأمر الرؤى الصوفية للإلهة لتهبه النعيم الأبدى .

ودخل الرومان وأهالى الإمبراطورية فى هذه الديانات لأنها لم تكن تفرق بين الأجناس والطبقات ، فقد كانت تفتح ذراعيها لكل الخلائق من جميع الأمم لا فرق بين حر وعبد ولا غنى وفقير ولا سيد من ذوى الحسب والنسب والشرف ولا وضيع من عامة الناس وغوغائهم .

وكانت عبادة إيزيس وسيبيل أكثر العبادات انتشارا بين الرومان فقد كانتا أمين ثاكلتين ذاقتا مرارة الحزن كما ذاقته ملايين الأمهات الثاكلات ، وكان فى مقدورهما أن تدركا ما لا تستطيع أن تدركه الآلهة الرومانية الأخرى .

إن الرغبة فى العودة إلى أحضان الأم أقوى من غريزة الاعتماد على الأب ، واسم الأم هو الذى يتحرك به اللسان إذا ما صادف الإنسان سروز عظيم أو حلت به كارثة أليمة .

ودأب الناس على خلق آلهة جدد فألهوا قيصر والأباطرة وأنطونيوس وكثيرا من العظماء المحليين فى حياتهم وبعد مماتهم ، وراحت الصلوات تقام بألف لغة لألف إلـٰه ، أملا فى النعيم والنجاة ، فما ضرهم لو أضافوا إليهم إلـٰها جديدا !

وكان الناس فى سورية يعبدون هدد وبعل واترجاتس ، وكانت الاحتفالات الدينية تقام فى المدن السورية ابتهاجا ببعث بعل بعد محاكمته وموته ، وكانت القرابين تقدم للإلـٰه الذى قام من الأموات ، وكانت الابتهالات ترتفع فى سماء سورية والعراق فى يوم عيد الإلـٰه الشهيد .

وكان اليهود قد جسَّدوا الله وعبدوا أنفسهم غرورا وزعموا أنهم وحدهم

الناس وما عداهم أمم ، ونشأت البغضاء بين اليهود وغير اليهود وبين اليهود واليهود . تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، كان يهود يهوذا يحتقرون أهل الجليل ويصفونهم بالمروق عن الدين ، بينا كان أهل الجليل يحتقرون أهل يهوذا ويصفونهم بأنهم أرقاء وقعوا فى شراك الشريعة .

وكان هناك نزاع لا ينقطع بين أهل يهوذا والسامريين ، فقد كان السامريون يدعون أن يهوه لم يختر صهيون موطنا له بل اختار موطنه تل جرزيم الواقع فى بلادهم ، وكانوا لا يعترفون إلا بأسفار موسى الخمسة ويرفضون ما عداها من أسفار الكتاب المقدس .

جعلوا لله موطنا وتنازعوا على ذلك الموطن أهو صهيون أم تل جرزيم ، سبحان الله عما يصفون .

وكان السنهدرين المجلس الأعظم لليهود صاحب السلطة الدينية على جميع اليهود ، وكان يتكون من حزبين يتنازعان السيطرة عليه ، أحدهما حزب المحافظين الذين يتزعمهم كبار الكهنة والصديقيون وكانوا من المتشككين الذين لا يعتقدون بالبعث ولا بالدار الآخرة ويقنعون بطيبات هذا العالم ، والآخر الفريسيون وكانوا شيعة من اليهود يجهرون بأنهم أكثر استمساكا بالدين من سائر أبناء ملتهم وبأنهم أدق من غيرهم فى تفسير شرائعهم .

ولكى يصلوا إلى ما يبغونه من هذا التفسير الدقيق أضافوا إلى أسفار موسى الخمسة المكتوبة الأحاديث والروايات الشفوية المشتملة على التفسيرات والأحكام التى وردت على ألسنة معلمى الشريعة المعترف بهم . ويرى الفريسيون أن هذه التفاسير ضرورية لإزالة ما فى قوانين موسى من غموض ولبيان طريقة تطبيقها على الحالات الفردية ولتعديل حرفيتها فى بعض الأحيان حسب ضروريات الحياة وظروفها الدائمة التغيير .

وكانت أكثر شيع اليهود تطرفا شيعة الأسينيين (المغتسلين) ، وقد نظموا

أنفسهم فى هيئة مستقلة عن غيرها ، وكانوا يستمسكون أشد الاستمساك بالشريعة المكتوبة والشريعة غير المكتوبة ، ويعيشون معا عيشة العزاب الزاهدين ، يزرعون الأرض فى واحة إنجادى وسط الصحراء الواقعة غرب البحر الميت . وكانوا يسكنون منازل تمتلكها الجماعة التى ينتسبون إليها ، ويطعمون مجتمعين وهم صامتون ، وينتخبون زعماءهم بالاقتراح العام ويخلطون متاعهم ومكاسبهم فى بيت مال مشترك ، ويعملون بالشعار : « مالى ومالك ملك لك » .

وكان الرجل من الأسينيين يلبس ثيابا من نسيج من التيل الأبيض ، ويحمل معه فأسا صغيرة ليغطى بها فضلاته ويغتسل بعدها كما يغتسل البراهمة ، ويرى أن التبرز فى يوم السبت من أعظم الكبائر !

وكان أعضاء هذه الشيعة يبتعدون عن جميع الملذات الجسمية ، وكانت قلة منهم تتزوج ولكنهم كانوا لا يضاجعون أزواجهم إلا بقصد إنجاب الأطفال ، وكانوا يسعون إلى الاتصال الصوفى بالله عن طريق التأمل والصلاة ، وكانوا يأملون أن ينالوا علم الغيب وقوة السحر بتقوى الله فأكثروا من الصيام واستغرقوا فى التأمل والتفكير فى الكون من حولهم .

كان العالم قبل بعث السيد المسيح غارقا فى الوثنية ، وكان اليهود قد ابتعدوا أشواطا طويلة عن سماحة الشريعة البيضاء . كان فريق ينكر البعث والحساب وفريق أحل الربا وفريق يرى أن التبرز يوم السبت من أعظم الكبائر . ولاح أن العالم كله يمهد السبيل لظهور رسول كريم يعيد إلى الإسلام بساطته ونصاعته وإشراقه .

وولد يسوع « معين يهوه » وكان مولده آية ، ولد فى الجليل وسافر إلى أورشليم واستمع إلى الرهبان والأحبار فى الهيكل ، فلما بعثه الله رسولا إلى بنى إسرائيل ضاق بذلك الهيكل الذى ركز اليهود كل آمالهم فيه وراحوا يدعون

أنه إلـٰه من دون الله ، فأخذ يعنف المرائين الذين استبدلوا بطهارة النفس مظاهره فى الهيكل وأخذ يتنبأ بزوال الهيكل ، ويدعو إلى إلـٰه له المشرق والمغرب رب العالمين ، ويبشر كما كان يبشر يحيى بن زكريا « يوحنا المعمدان » باقتراب ملكوت السماء .

كان رسولا إلى بنى إسرائيل ، « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » . وكان مبشرا برسول يأتى من بعده اسمه أحمد : « إن لم أذهب فلن يأتى الفراقليط » . وكان يبشر باقتراب ملكوت الله وقد قال لحوارييه موضحا سر الملكوت : إنه كلام الله على الأرض .

وتوفى الله عيسى بن مريم ورفعه إليه : « إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلىَّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » .

وقام الحواريون من بعده يدعون الناس إلى الإسلام وإلى عبادة الله وحده ، وراح أناس من اليهود يقاومون الدين الجديد ، وكان شاول اليهودى الذى جاء من طرسوس أشد الناس عداوة للمسيحيين فكان ينتقل من بيت إلى بيت فى أورشليم ويقبض على أتباع المسيح ويزجهم فى السجون .

كان الحواريون لا يقلون عن الأسينيين تقشفا وزهدا ، وكان بعضهم لا يأكل اللحم ولا يشرب الخمر ولا يملك من الثياب غير ثوب واحد ، وعاش اليهود والمسيحيون فى أورشليم تقوم بينهم المناوشات والمناظرات ، ولما كان المسيحيون الأوائل يؤمنون بالله وحده لم يجد اليهود فى أقوالهم ما يوجب إقامة الحد عليهم أو اتهامهم بالشرك بالله .

وجاء تيطس من روما ودمر هيكل سليمان ، فامتلأت قلوب المسيحيين بالفرح فقد تحققت نبوءة المسيح وصارت الأرض كلها مسجدا لله .

وراح بطرس يجوب فى آسية الصغرى وينطلق إلى إيطاليا يدعو الناس إلى

عبادة الله وحده وينذرهم بيوم لا ينفع فيه بيع ولا شراء ، ولما كان بطرس يذكر أن السيد المسيح قد نهاه هو والحواريين جميعا عن أن يذهبوا إلى الأمم ، فقد قال بطرس إنه رأى رؤيا اقتنع على أثرها أن عليه أن يدعو بنى إسرائيل والأمم إلى دين الله .

وكان شاول أو بولس من طرسوس يهوديا فريسيا ، بيد أنه تأثر بالثقافة اليونانية والثقافة الآرامية ، فأتباع الأرفية من اليونان يعتقدون أن الله الذى يعبدونه قد مات من أجلهم ثم قام من قبره ، وإنه إذا دعى بإيمان حق وصحب الدعاء الطقوس الصحيحة استجاب لهم وأنجاهم من الجحيم وأشركهم معه فى موهبة الحياة الخالدة المباركة . وكان عباد بعل يؤمنون بأن إلـٰههم حوكم وصلب وعن يمينه وشماله مجرمان ، وأنه قام من الأموات وارتفع إلى السماء ليدين الناس .

وتزعم بولس الاضطهاد الأول للمسيحيين فى أورشليم ، ولما سمع أن الدين الجديد أصبح له فى دمشق أتباع كثيرون تقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى جماعات المتزمتين اليهود ليقبض على المؤمنين المسيحيين والمؤمنات ويسوقهم موثقين إلى أورشليم .

وانطلق إلى دمشق وإلى البتراء ثم عاد إى أورشليم ليقول للحواريين إن السيد المسيح ظهر له فى البرية ، وأنه تاب واعتنق المسيحية وأنه يدعو إليها فى بلاد العرب .

وارتاب الحواريون فيه ولكن برنابا رحب به وقدم له كثيرا من المعونة ، وراح يبشر اليهود فحاولوا أن يقتلوه ، وخاف الحواريون من خطر حماسته الشديدة فأرسلوه إلى طرسوس .

وظل فى مسقط رأسه ثمانى سنين يهتم بشئون الدين ، فاستولى على كل تفكيره التصوف الدينى المنتشر بين اليونان وما فيه من تبشير بمجىء المنقذ ،

وسيطرت على نفسه فلسفة الوثنيين المؤمنين ببعل الذى حوكم وصلب وقام من الأموات وقد دبت فيه الحياة من جديد .

وأقبل عليه برنابا والتمس منه أن يعاونه على نشر الدين فى أنطاكية ، فراح الرجلان يعملان معا واهتدى بهما خلق كثير ، وأطلق الوثنيون على المؤمنين أتباع المسيح ، ودخل فى الدين الجديد أناس من « الأمم » من غير بنى إسرائيل ممن فتنتهم الدعوة إلى الوحدانية .

وأبحر برنابا وبولس إلى قبرص وقد أقبل عليهما اليهود المقيمون فى تلك الجزيرة ، فقد كانت دعوة الرجلين لا تختلف فى كثير عما يؤمن به اليهود المتقون ، كانا يدعوان إلى عبادة الله وحده ويقولان إن عيسى عبد الله ورسوله ، وكان اليهود يؤمنون بالوحدانية والرسالة فما أكثر الرسل والأنبياء فى بنى إسرائيل .

وبلغ الرجلان أنطاكية واستمع إليهما الكنيس ورحب بهما ، ولما بدآ يعظان الأمم كما يعظان اليهود غضب عليهما اليهود المتمسكون بدينهم وحملوا موظفى البلدية على إخراج المبشرين من المدينة ، فقد كان اليهود يعتقدون أن الرسل ما بعثوا إلا لهداية بنى إسرائيل ، وأن الأمم أهون على الله من أن يبعث إليهم هداته .

واختلف بولس مع برنابا واتهم بطرس بالرياء ، ثم سافر إلى مقدونيا فقابله اليهود بالترحاب ، ولما أصغوا إليه وجدوا جديدا فى آرائه يختلف عما كانوا يعتنقونه ، فقد استخدم تعبيرات تخدش إيمانهم بوحدانية الله فثاروا عليه مما اضطر أصدقاءه أن يخرجوه خلسة إلى بيريه فى أثناء الليل .

وتقبل يهود بيريه بولس بقبول حسن ، ولكن أهل تسالونيك جاءوا يتهمونه بأنه عدو لليهودية ، فأقلع منها إلى أثينة ، على ظهر سفينة وحيدا فارغ القلب كاسف البال .

وفى أثينا قلب الدولة الوثنية وعلومها وفلسفتها ألفى نفسه بلا صديق ، ولم يكن فيها إلا عدد قليل من اليهود فقام يخطب فى الناس فى السوق العامة فأعرضوا عنه ، فرأى أن يمزج بين الدين الجديد وفلسفة اليونان ، فراح يتحدث عن بنوة البشر لله ، ويقتبس بعض أقواله من بلغاء شعرائهم ، ومع ذلك لم يجد آذانا مصغية لدعوته .

وشبت العداوة بين اليهود فى أثينا وبين بولس فاتهموه أمام غاليو الحاكم الرومانى بأنه يستميل الناس على أن يعبدوا الله بخلاف الناموس ، فلم يهتم غاليو بالقضية ولم يشأ أن يكون قاضيا فى أمور لا تهمه وطرد الجميع من المحكمة .

وراح بولس يعرض الإنجيل على أهل كورنثة بعد أن خلع عن المسيحية ثوبها الشرقى وعرضها فى ثوب غربى جديد يستهوى المفتونين بالأديان الخفية التى طالما حدثتهم عن المنقذين الذين يبعثون بعد موتهم . وبدأ الوثنيون المؤمنون يمزجون المسيحية بعقائدهم القديمة ، وأثروا فى بولس فجعلوه يفسر المسيحية تفسيرا يألفه العقل اليونانى والرومانى معا .

وعاد إلى الشرق مرة أخرى ونشبت العداوة بينه وبين اليهود المؤمنين بالمسيحية ، ورأى أن ينفصل نهائيا عن المسيحيين المتهودين الذين يحتمون الختان للدخول فى ملكوت الله ، فأعلن فى رسالة بعث بها إلى أهل غلاطية أن الناس لا ينجون لاستمساكهم بشريعة موسى بل بإيمانهم القوى الفعال بالمسيح المنقذ ابن الله ..

وفى أورشليم ثار المسيحيون المؤمنون بوحدانية الله عليه كما ثار عليه اليهود ، وأرادوا أن يحاكموه أمام السنهدرين ولكنه طلب أن يحاكم أمام قيصر ، فضل محاكمة نيرون على محاكمة أبناء الشريعة الموحدين .

وصل إلى إيطاليا بعد رحلة الأهوال فى البحر ، وانطلق إلى روما وسمح له أن يعيش فى بيت يختاره لنفسه ، وأن يوكل جندى بحراسته حتى يجد نيرون

الوقت الذى يسمح له بالإصغاء إلى قضيته ، وحتى يأتى الشاكون من فلسطين .

وراح يبعث برسائله إلى أتباعه وقد فاضت بلاهوت جديد ليس له إلا أسانيد غامضة أشد الغموض فى أقوال السيد المسيح ، وكانت العوامل التى أوحت إليه بالأسس التى قام عليها ذلك اللاهوت هى انقباض نفسه وندمه والصورة التى استحال إليها المسيح فى خياله .

وقد تأثر بنبذ الأفلاطونية والرواقية للمادة والجسم واعتبارهما شرا وخبثا ، وراح يفلسف فكرة التضحية والقرابين . إنه ليذكر أن كاهن اليهود الأعظم يضع كلتا يديه على جدى حى فى يوم الكفارة ويعترف فوق رأسه بجميع ما ارتكبه بنو إسرائيل من مظالم ، حتى إذا ما حمل الجدى خطايا الشعب أطلقه فى البرية ، وإنه ليذكر أن التضحية بحمل فى عيد الفصح ليست إلا قربانا عوضا عن القرابين البشرية التى كانت تقدم على مذبح الإلـٰه ، وقد افترق عن اليهود المسيحيين فكان لا بد من أن يجد فكرة جديدة عن التضحية ترضى الوثنيين من يونان وورومان فقال : إن كل إنسان يرث خطيئة آدم ، وأن لا شيء ينجيه من العذاب الأبدى إلا موت ابن الله ليكفر بموته عن خطيئته .

وراح بولس يضيف إلى دينه الجديد بعض آراء صوفية غامضة كانت ذائعة بين الناس ، فقال إن المسيح هو « حكمة الله » و« ابن الله الأول » بكر كل خليقة ، فإنه فيه خلق الكل .. الكل به وله قد خلق ، الذى هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل .

وانتشرت تعاليم بولس بين الوثنيين فأحسوا أنه يحدثهم عن أزريس وبعل وأتيس وإلاهاتهم وآلهتهم الذين فدوا البشرية وقاموا من الأموات ، وأطلقوا عليهم المنقذ والمنجى والرب .

وراح الذين لم يؤمنوا باللاهوت الجديد يسألونه :

— إذا كان المسيح إلٰها حقا فلم يرضى أن يقتل ؟

— إن المسيح قد قتل ليفتدى بموته العالم الذى استحوذ عليه الشيطان بسبب خطيئة آدم ، فكان لا بد أن يموت ليحطم أغلال الموت ويفتح أبواب السماء لكل من نالوا رضوان الله .

وكان الرق هو سمة العصر ، هو عماد الحياة فى اليونان التى دخلت فى دين بولس أفواجا ، وهو قطب الرحى الذى يدور عليه المجتمع الرومانى الذى يطمع فى الإيمان بلاهوته . فلم يتعرض للرق بكلمة سوء حتى لا يغضب المؤمنين بتعاليمه بل قال :

— الدعوة التى دعى فيها كل واحد فليلبث فيها ، دعيت وأنت عبد فلا يهمك ، بل وإن استطعت أن تصير حرا فأحرى بك أن تستعملها ؛ لأن من دعى فى الرب وهو عبد فهو عتيق الرب ، كذلك أيضا الحر المدعو هو عبد المسيح .

ولم يهاجم السلطة حتى وإن كانت فاسدة ، بل راح يمكن لها فى الأرض لعلها ترضى عنه وعن لاهوته ، فقال :

— لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة لأنه ليس سلطان إلا من الله ، والسلاطين الكائنة هى مرتبة من الله .

أعطى السلاطين والحكام الحق الإلٰهى فى الحكم وكان يحسب أن مجاملته ستحقق له كل الأهداف ، ولكن سوء طالعه أو حسن حظه أوقعه فى يد قيصر مجنون ، فجعل منه نيرون المأفون شهيدا . ولم يغضب نيرون لأن بولس يبشر بدين جديد ولاهوت جديد ، بل أغضبه أن جعل بولس مع نيرون إلٰها آخر هو المسيح . « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون » .

٤

راح المسيحيون يجتمعون فى عيد الحب فى مساء يوم أحد السبوات ، وجاءوا بطعام العشاء وجلسوا جميعا رجالا ونساء يأكلون معا ، وبدءوا العشاء بالصلاة وقام القس يبارك الخبز والخمر ويؤكد للمؤمنين أنهما قد استحالا إلى لحم المسيح ودمه .

كان بولس على علم بدين المجوس وكان يعرف أن المجوسى يؤمن أن شراب الهوما المسكر يتحول إلى دم الإلـٰه مثرا بعد مراسيم الصلاة ، وأنه بشربه للهوما يجعـل دم الإلـٰه يجرى فى عروقه . وكان عباد أتيس يؤمنون بتحول الخبز المقدس والخمر المقدسة إلى لحم الإلـٰه ودمه ، فاستعار الفكرة ونسبها إلى المسيح الذى خلقه خياله ، وقال للمؤمنين بدينه الجديد إن الخبز والخمر يتحولان إلى لحم المسيح ودمه ، ولم يجد الوثنيون المؤمنون بالدين الجديد غضاضة فى قوله فإنها بضاعتهم ردت إليهم ، ولكنها حملت اسم إلـٰه شرقى وقد كان الشرق يستهويهم بما فيه من غموض .

وانتهى العشاء وصلى الناس وراحوا يقرءون فقرات من الكتاب المقدس ، وأشرف الاحتفال الدينى على الانتهاء فامتلأت القلوب بانفعالات لذيذة فقد كانت آخر مراسيم عيد الحب « قبلة الحب » وهى قبلة تهوى إليها النفوس .

كانت قبلة الحب فى أول عهدها يتبادلها الرجال والرجال فيما بينهم والنساء والنساء فيما بينهن ، لكن أعرض المؤمنون عن هذا القيدالثقيل فراح الرجال والنساء يتبادلون القبلات ، وقد يسر هذا الاحتفال انتشار الفسق بين المصلين .

وقامت الكنيسة تقاوم الطبيعة فلم تحرم ما شرعته مؤسسة ذلك الدين ، بل أوصت بألا تفتح الشفاه فى أثناء التقبيل وألا تتكرر القبلة إذا أعقبتها لذة ، وكانت شهوات المؤمنين أقوى من نواهى الكنيسة فاضطر الغيورون من رجال الدين على أخلاق المؤمنين بدين بولس أن يلغوا عيد الحب .

ولم يكن بولس فحلا من فحول الرجال فقد عاش عمره دون أن يعرف الزواج ، فراح يوصى بالعزوبة وبقاء البنات أبكارا ، ولم يكن يسمح بالزواج إلا لأنه وجاء من الفسق والإباحة الجنسية ولأنه وسيلة سخيفة لحفظ النسل . وكان يشجع الزوج والزوجة على الامتناع عن العلاقات الجنسية إلا لحفظ النوع ، ولم يسمح بالطلاق إلا إذا كان أحد الزوجين وثنيا وأراد أن يفسخ زواجه ممن اعتنق الدين الجديد .

كانت تعاليم بولس تسرى فى اليونان وإيطاليا والدول الوثنية التى كانت تؤمن بالمنقذ والمنجى والرب وبالآلهة التى ضحت بنفسها فداء للبشرية ثم قامت من الأموات لتحكم الدنيا من السماء ، وكان المسيحيون المؤمنون برسالة السيد المسيح ووحدانية الله يقاومون تيار الشرك الجارف القادم من الغرب . وراحت العقائد تتصارع صراعا رهيبا لا هوادة فيه ، وقد اعتنق الكثيرون مبادئ المسيحية الحقة وراحوا يعملون على نشرها ، وقد لقحت المسيحية فلسفة إيكتتس الأعرج الذى قام فى كل مكان بعد صلب بولس يقول :

— أية لغة ترقى إلى الثناء على جميع أعمال العناية الإلـٰهية ؟.. أفما كان خليقا بنا لو كانت لنا عقول أن نصرف وقتنا كله فى التغنى بمجد الإلـٰه والتسبيح بحمده والتحدث بنعمته ؟.

أليس من واجبنا ونحن نحفر الأرض ونفلحها ونأكل من ثمارها أن تلهج ألسنتنا بالثناء عليه !

وماذا بعد هذا ؟ ، أما وقد أصبحت كثرتكم الغالبة عمياء ، أفلا ينبغى أن يكون هناك إنسان يؤدى هذا الواجب عوضا عنكم وينوب عنكم جميعا فى التغنى بمدح الله .

ولم يحبذ إيكتتس الرق كما فعل بولس تملقا للأقوياء ، بل راح يندد به وراح ينادى بوجوب تحريم عقوبة الإعدام ولم يرض ذلك أصحاب السلطان فزج به فى السجن ، فلما خرج من سجنه راح يقول :

ـــ لا تقل عن شىء ما إننى فقدته ، بل قل إننى رددته ، هل مات لك طفل ؟ لقد رد .. هل ماتت لك زوجة ؟ لقد أعيدت . « فقد اغتصبت منى مزرعتى » حسن جدا هذه أيضا قد ردت . وما دام الله وهبك إياها فاعتن بها على أنها ليست لك . أسفى على أننى أعرج ! أيها العبد ! أتؤنب الكون لأنك فقدت ساقا حقيرة ؟! ألا يليق بك أن تنزل عنها هبة خالصة للكون كله ؟ وإذا أرغمت على الخروج من بلدى منفيا ، فهل فى مقدور أحد من الناس أن يمنعنى أن أخرج مبتسما هادئا ؟

« سألقيك فى السجن » . إنك لن تسجن إلا جسمى ؛ وسأموت حتما فهل يجب إذن أن أموت شاكيا ؟!

فى مقدور العبد أن يكون حر الروح كديجين ، وفى وسع السجين أن يكون حرا كسقراط . وقد يكون الإمبراطور عبدا كنيرون ، وليس الموت نفسه إلا حادثا عارضا فى حياة الرجل الصالح فى وسعه أن يستعجله إذا تبين أن الشرير يرجح كثيرا على الخير ؛ وحقيق به على أية حال أن يستقبله فى هدوء وأن يرى جزءا من حكم الطبيعة المكنونة .

لو أن سنابل الحب كان لها إحساس فهل كانت ترجو ألا تحصد ؟ إنى أحب أن أتعلم أنك لو عشت أبد الدهر لكان عيشك هذا نقمة ، إن السفينة تغرق فماذا أفعل إذن ؟ مهما استطعت أن أفعل . فسأغرق دون أن أخشى شيئا أو أن

أحجم أو أجدف فى حق الله ، بل أعتقد أن من يولد لا بد أن يموت ، ذلك أنى جزء من الكل كما أن الساعة جزء من اليوم . علىَّ أن أجىء كما تجىء الساعة وأن أنقضى كما تنقضى .

يجب ألا تعد نفسك أكثر من خيط واحد بين جميع الخيوط التى يتكون منها الثوب . لا تسع لأن يكون ما يحدث لك يحدث كما تحب ، بل أحب أن يحدث ما حدث كما حدث ، فإن فعلت وجدت الهدوء والطمأنينة .

لا تكن سببا فى أن يتعذب الناس بما لا تحب أن تتعذب به أنت . إذا قيل لك إن إنسانا يتحدث عنك حديث سوء فلا تدافع عن نفسك ، بل قل : إنه لو عرف سائر عيوبى لما ذكر هذه وحدها .

ماذا يهمنى من أن الأشياء الموجودة على ظهر الأرض مكونة كلها من ذرات أو من النار والتراب ؟ أليس يكفينى أن أعرف حق المعرفة ما هو الطيب وما هو الخبيث ؟ إذا كان الله خالقنا وأبانا وولينا أفلا يكفى هذا لأن يرد عنا الحزن والخوف ؟ ويتساءل بعض الناس من أين أطعم إذا لم يكن عندى ما أطعمه ؟ ولكن ماذا تقول عن الحيوانات التى يكتفى كل منها بنفسه ولا يعدم ما يصلح له من الطعام .

ونشب الصراع بين المؤمنين برسالة المسيح ووحدانية الله وبين القائلين ببنوة المسيح لله وخطيئة آدم الموروثة والفداء فى الشرق ، وبين المؤمنين بلاهوت بولس والوثنيين فى الغرب . وقاسى المسيحيون من الاضطهاد فكانوا يفرون إلى الكهوف ويتسلون برسم بعض الرسوم التى ترمز إلى معتقداتهم الدينية فرسم بعضهم اليمامة ممثلة للروح بعد أن تحررت من سجن الجسد والفنش Phoenix الذى عادت الحياة إلى رماده بعد احتراقه ، وغصن النخلة شعار النصر ، وغصن الزيتون رمز السلام ، وصار لتلك الرموز شأن أيما شأن فى المسيحية .

واكتشف بعضهم أن اسم السمكة باليونانية يتكون من الحروف الأولى من العبارة : « يسوع المسيح ابن الله المنقذ » فضمت السمكة إلى الشعائر المسيحية وفى تلك السراديب نبتت فكرة « الراعى الصالح » .

وكان المسيحيون الأوائل يسيرون على سنة كراهية التماثيل خشية الخلط بين الصور وعبادة الأوثان ، ويذمون النحت والتصوير لأنهما فى أغلب الأحيان يمجدان العرى ، ويهملون تزيين الدار الفانية لأنهم كانوا يعتقدون أن ملكوت الله قريب وإن هى إلا سنوات وينتهى العالم ، ولكن الزمن طال بهم فعادوا يقولون : إن مملكة المسيح ليست فى الأرض بل هى مملكة فى السماء ، وأقبل المؤمنون من اليونان والرومان على صنع التماثيل والصور يمزجون فيها بين معتقداتهم الوثنية واللاهوت الجديد .

وراح الدين الجديد ينتشر بين الناس ، فقد وهب البائسين والمحطمين والمحرومين واليائسين والأذلاء فضيلة الرحمة التى لم يكن لهم بها عهد من قبل ، كما وهبهم العزة والكرامة التى ترفع من شأنهم ، ووهبهم فوق ذلك كله وحيا وإلهاما ينبعث من صورة المسيح وقصته ومبادئه الأخلاقية ، وأضاء حياتهم بما يبعث فيهم من أمل فى ملكوت الله المقبلة وفى السعادة الدائمة بعد الموت . ووعد أشد الناس ذنوبا بالعفو وبقبولهم فى الناجين من العقاب فى الدار الآخرة ، فأما العقول التى أقلقها طول البحث فى المشكلات المعقدة كمشكلات أصل الحياة ومصير الإنسان والشر والآلام فقد جاء إليها بمجموعة من العقائد الموحى بها من عند الله ، تستطيع كل النفوس أن تجد فيها غذاء الفكر ، وتسلية الروح ، وراحة الوجدان .

وملأ الدين الجديد الفراغ الخلقى الذى خلفته الوثنية المحتضرة وكان البلسم الشافى للعالم الذى أنهكته علل الوحشية والقسوة والظلم والفوضى الجنسية ، فقد جاء بقانون أخلاقى جديد قائم على الأخوة والرحمة والسلام .

كانت إمبراطورية الرومان تحتضر على أيدى أباطرة فاسدين كنيرون وأترابه من المخنثين ، وكانت كل الظواهر توحى بأفول تلك الحضارة ، ولكن المسيحية جاءت لتنتشل تلك الإمبراطورية المتداعية من وهدة الدمار .

وراح كل من اعتنق الدين الجديد ينصب نفسه داعيا له بحماسة لا تقل فى قوتها عن حماسة الثوار ، وكانت طرق الإمبراطورية الرومانية وأنهارها وشواطئ بحارها ومسالكها التجارية أهم العوامل التى عينت الخطوط الرئيسية لنماء الكنيسة المسيحية ، فاتجه هذا النماء شرقا من أورشليم إلى دمشق والرها ودورا وسلوقية وطشقونة ، واتجه منها جنوبا عن طريق بصرى والبتراء إلى جزيرة العرب ، وغربا عن طريق سورية إلى مصر ، وشمالا عن طريق أنطاكية إلى آسية الصغرى وأرمينية ، ومن إفسوس وترواس وراء بحر إيجة إلى كورنثة وتسالونيك ، وإلى درهكيوم وراء الطريق الأجناسى ، ثم اخترق البحر الأدرياتى إلى برنديز ، أو عن طريق سلاوكربيدس إلى بتبولى ورومة ، وعن طريق صقلية ومصر إلى شمالى إفريقية ، واخترق البحر الأبيض المتوسط أو جبال الألب إلى إسبانيا وغالة ومنها إلى إيطاليا ، ثم سار الدين الجديد على مهل فى أعقاب الحكم الرومانى ، وشق النسر الرومانى الطريق للمسيح الذى خلقه خيال بولس المتحمس للثقافة اليونانية ، فمزج بين فلسفتها وفلسفة بعل والآلهة المنقذين جميعا وبين ما بقى فى ذهنه من تعاليم السيد المسيح .

وأشرف القرن الثانى المسيحى على الانتهاء فإذا بالدولة الرومانية قد اكتظت بالمسيحيين ، فقد هرع الناس على اختلاف مراتبهم وأحوالهم وأجناسهم ينضوون تحت لواء الدين الجديد ، وبدا أن أبناء الأمس القريب على وشك أن يملئوا العالم .

كان المسيحيون جميعا يؤمنون بعودة المسيح ليقيم مملكته على الأرض ، ولكنهم اختلفوا فى موعد عودته ، فلما مات نيرون وخرب تيطس الهيكل ،

ولما دمر هدريان أورشليم رحب المسيحيون بهذه الكوارث وعدوها بشائر بعودة المسيح .

وهددت الفوضى الإمبراطورية الرومانية فى أواخر القرن الثانى فظن المسيحيون أن آخرة العالم قد دنت ، فسار أحد الأساقفة السوريين على رأس أتباعه إلى الصحراء ليلتقى بالمسيح فى منتصف الطريق ، وأعلن أسقف آخر فى بنطس أن المسيح سيعود فى خلال عام واحد .

وانتظر المؤمنون تحقيق هذه التنبؤات ولما لم تصدق ولم يعد المسيح رأى عقلاء المسيحيين أن يخففوا من وقع هذه الخيبة بتفسير موعد عودته تفسيرا جديدا ، فقال قائل منهم :

ـــ إن برنابا قرر فى رسالة من رسائله أن المسيح سيعود فى خلال ألف عام .

وقال قائل أشد منه حذرا :

ـــ سيعود المسيح حين ينقرض شعب اليهود عن آخره .

وقال قائل آخر :

ـــ إنه سيرسل بدلا منه الفارقليط .

وربط ذلك القائل بين سر الملكوت كلام الله على الأرض ، وبين الفارقليط الذى سيمكث مع الناس إلى الأبد .

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ .

وراح أتباع الدين الجديد يكونون أنظمة عجيبة من « الفيض الربانى » ، فجاء مرسيون إلى رومة وكان شابا ثريا من أهل سينوب حوالى عام ١٤٠ معتزما أن يتم ما بدأه بولس ، وهو تخليص المسيحية من اليهودية فقال :

ـــ إن المسيح حسب روايات الإنجيل قد قال : إن أباه إلٰه رحيم غفور محب ، على حين أن يهوه كما يصفه العهد القديم إلٰه غليظ القلب صارم فى عدله

مستبد ، إلـه حرب ولا يمكن أن يكون يهوه هذا أبا للمسيح الوادع .

أى إلـه خير تطاوعه نفسه بأن يقضي على البشر جميعا بالشقاء لأن أباهم الأول أكل تفاحة أو رغب فى المعرفة أو أحب امرأة ! إن يهوه موجود وهو خالق العالم ، ولكنه خلق لحم الإنسان وعظامه من المادة ، ولهذا ترك روح الإنسان مسجونة فى قالب من الشر ، وأراد إلـه أكبر من يهوه أن يطلق هذه الروح من ذلك السجن فأرسل ابنه إلى الأرض ؛ وظهر المسيح وكان عند ظهوره فى سن الثلاثين فى جسم طيفى غير حقيقى ، وكسب بموته لخيار الناس حق البعث الروحى الخالص .

إن الأخيار هم الذين يفعلون ما فعله بولس ، فينبذون يهوه والشريعة اليهودية ويرفضون الكتب العبرانية المقدسة ، ويتجنبون الزواج واللذات الجنسية جميعا ويتغلبون على الجسم بالزهد الشديد .

وراح مرسيون يعمل على نشر هذه الآراء بإصدار عهد جديد يتكون من إنجيل لوقا ورسائل بولس ، فأصدرت الكنيسة قرارا بحرمانه وردت إليه المال الكثير الذى وهبه لها حين جاء إلى روما .

وفى عام ١٥٦ م قام متناسس يندد بتعلق المسيحيين المتزايد بشئون هذا العالم وبازدياد سلطان الأساقفة المطلق على الكنيسة ، وأخذ يطالب بالعودة إلى بساطة المسيحية الأولى وصرامتها ، ويرد التنبؤ أو القول الملهم إلى أعضاء الجماعات المسيحية .

آمنت امرأتان تدعيان بريسلا ومكسميليا بأقواله وراحتا تنطقان فى أثناء غيبوبتهما الدينية بأقوال أصبحت النبوءات الباقية لهذه الشيعة .

وراح متنانس نفسه يتنبأ فى أثناء نشوته الدينية بنبوءات بلغ من فصاحتها أن أتباعه راحوا يلقبونه بالجدى الذى وعد به المسيح . وتنبأ أن ملكوت السموات قد دنت ساعتها ، وأن أورشليم الجديدة التى يقول بها سفر الرؤيا

ستنزل من السماء على سهل قريب بعد زمن قليل .

وسار متنانس بنفسه إلى تلك الأرض الموعودة على رأس حشد من الناس حتى إن المدن خلت من سكانها .

وامتنع الناس عن الزواج وعن التناسل وجعلوا متاعهم ملكا مشاعا بينهم ، وعمدوا إلى التقشف والزهد استعدادا لمجىء المسيح .

واضطهد أنطونينس الحاكم الرومانى المسيحيين فى آسيا الصغرى وأقام المحاكم لمحاكمتهم ، فهرع أتباع متنانس إلى المحاكم سعيا منهم إلى الاستشهاد ورغبة فى الجنة ، ولم يستطع أنطونينس أن يحاكمهم كلهم فاكتفى بإعدام بعضهم وطرد معظمهم وقال لهم :

ـــ أيها التعساء ! إن كنتم تريدون الموت حقا فهل عرفتم الجبال وأجراف الصخر العالية ؟ .

وظهرت الشيع فى كل مكان ! شيعة الزهاد التى عمدت إلى قمع شهواتها وقالت إن الزواج من الخطايا ، وشيعة المتخيلة القائلة بأن جسم المسيح لم يكن لحما ودما بل كان شبحا أو خيالا ، وشيعة الثيودوتية التى لم تكن ترى فى المسيح أكثر من إنسان مرسل ، والمتبنية التى تقول إن المسيح ابن الله بالتبنى لا بالطبيعة وأنه كان بمولده رجلا عاديا وأنه وصل إلى درجة الألوهية بكماله الخلقى ، والظاهرية القائلة بأن الأب والابن والروح القدس ليست أقانيم منفصلة بل هى صور مختلفة يظهر فيها الله للإنسان .

واعتقد اليعاقبة أن للمسيح طبيعة واحدة ، وما أشرف القرن الثالث الميلادى حتى كان أتباع المسيح قد انقسموا إلى مائة عقيدة وعقيدة تؤمن أغلبها بما خلقه خيال بولس من بنوة المسيح لله وإن اختلفت فى طبيعة هذه

البنوة وفى طبيعة المسيح ، فى ناسوته ولاهوته ، « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدّا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . ولا ينبغى للرحمن أن يتخذ له ولدا . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » .

٥

انتصر الإسكندر الأكبر على دارا الثالث فاستشار معلمه أرسطو فى أمر الفرس ، فأشار عليه أن يفرق رياستهم فى أهل البيوت منهم فتفترق كلمتهم ويخلص له أمرهم ، فولى الإسكندر عظماء النواحى من الفرس وعرب الحيرة كلا على عمله .

ومات الإسكندر فقسم ملكه بين أربعة من قواده ، فكانت الإسكندرية ومصر لبطليموس ، ومقدونية وأنطاكية وما إليها من ممالك الروم لفيلبس ، وكان الشام وبيت المقدس وما إلى ذلك لديمتريوس ، وكان السواد إلى الجبال والأهواز وفارس لأنطيخوس .

وظلت فارس تحت حكم الإشكانيين ملوك الطوائف لم يكن لها ملك واحد يجمع كلمتها ، واستمرت الحروب بين فارس والروم فكان ملوك الطوائف يغيرون على بنى إسرائيل وينهبون أموالهم ، فقد كانت إسرائيل حليفة روما .

وفى أيام ملوك الطوائف ولد السيد المسيح عليه السلام وقام يدعو إلى الإسلام وعادت النفحة الروحية تسرى فى الشرق والغرب ، فراح المؤمنون بدين زرادشت فى إيران ينفضون الأساطير والخرافات عن الدين القيم ويحاولون أن يعيدوا إلى دين التوحيد جوهره الأصيل ، فخفقت فى جنبات إيران نهضة دينية كانت بشيرا بنهضة دنيوية تلم شمل الدولة التى تمزقت شيعا

بعد غزو الإسكندر الأكبر وتقطيع أوصالها .

وعكف ساسان على الأبستاق كتاب زرادشت المقدس يستمد منه قوة روحية تعينه على استعادة ملك آبائه وأجداده ، فوجد فيه أن زرادشت قد أوصى بالاستمساك بما جاء به إلى أن يجيء صاحب الجمل الأحمر ، فراح يحض أبناءه على الاستمساك بالدين ويؤكد لهم أنه حينما يفعل الإيرانيون الفحشاء سيظهر رجل من العرب ويأخذ سرير الملك ويقع المذهب فى قبضته ويصير الرؤساء مرءوسين له ، وسيمحق العرب الصور والأصنام وسيطفئون بيوت النيران ويجعلون مكانها بيوتا معمورة ، ليس للأصنام ولا للأوثان فيها مكان ، وستقع فى أيديهم معابد المجوس وما حولها من مدن مثل توس وبلخ وبقية البقاع العظيمة .

كان ساسان يتحدث عن مستقبل الفرس والعرب كأنما قد فتح أمام عينيه كتاب القدر ، وقد حفرت نبوءته فى سويداء قلوب الأبناء فنقلوها إلى الأحفاد ، وقد كانت تلك النبوءة حجر الزاوية فى سياسة الملوك الساسانيين قبل أبناء الصحراء .

وقام أردشير حفيد ساسان فى أهل فارس يريد الملك الذى كان لآبائه قبل الطوائف وأن يجمعه لملك واحد ، فراح يقاتل ويخوض غمار المعارك حتى دانت له ملوك فارس وقهرهم وصار له الملك دون منازع .

ولم يعرف أردشير الطمأنينة فنبوءة ساسان تقلقه وتغير قلبه على العرب فراح يرقب بيوتهم . إنها على ريف العراق وأنهم ينزلون الحيرة وإن قضاعة يسكنون بيوت الشعر والوبر غربى الفرات بين الأنبار والحيرة ، فإن تركهم آمنين فقد يثبون على ملكه وينتزعون منه سلطانه وتتحقق تلك النبوءة التى

صار يرتجف من إلحاحها على ذهنه ، فجمع جيوشه ووطئ الحيرة والأنبار وأعمل سيوفه فى رقاب العرب لعل الدماء التى سالت تروى الفرات تسكن مخاوفه .

وأسرف فى قتل العرب والإسكانيين ، ووجد فى قصر ملك الإسكانيين جارية رائعة الحسن فاتنة الجمال سلبته لبه ، ولما سألها عن أصلها أنكرت نسبها فلم تقل له إنها أسكانية دفعا للقتل وإبقاء على حياتها بل قالت فى خفر :

ــ أنا مولاة .

فقال لها وهو يأكلها بعينيه :

ــ بكر ؟

فأسبلت عينيها وأومأت برأسها فى حياء أن نعم ، فطار بها إلى قصره يقضى معها أسعد أوقاته ، حتى إذا ما حملت وظنت الأمن على نفسها ساءها أن تحيا فى كذبة كبيرة ، فقالت له فى ساعة من ساعات الصفو :

ــ أنا أسكانية يا مولاى .

فغضب أردشير وثار وتنكر لها ودفع بها إلى بعض مرازبة فارس وقال له :

ــ اقتلها .

وخرج بها المرزبان ولم يطاوعه قلبه فى قتلها فاستبقاها فى داره ، حتى إذا ما وضعت ما فى بطنها راح يرعاها ويرعى سابور ابنها .

ومرت الأيام ولم يعقب أردشير وغشيه هم ثقيل ، وفى ذات ليلة بينما كان جالسا مع ذلك المرزبان قال فى أسى :

ــ ليس لى من ولد يرثنى ويرث ملكى من بعدى .

ثم رفع أردشير رأسه ونظر إلى المرزبان بعينين زائغتين وقال :

ــ ليتنى ما قتلت الجارية ولا أتلفت ما فى بطنها .

فقال المرزبان :

ــ إنها عندى يا مولاى .

ــ عندك .

ــ أشفقت عليها فلم أقتلها ، وقد ولدت ولدا ذكرا وسميته سابور وقد أدبته وأحسنت تأديبه .

وبعث أردشير فى طلب سابور وراح يختبره فأظهر نباهة ونجابة ، فتهلل أردشير بالفرح وأوصى له بالملك من بعده .

ومات أردشير وملك سابور فأفاض العطاء فى أهل الدولة وتخير العمال ، شخص إلى خراسان فمهد أمورها ، ثم رجع إلى نصيبين فملكها عنوة فقتل وسبى ، وافتتح من الشام مدنا وحاصر أنطاكية وأخذ ملكها أسيرا ثم جدع أنفه وأطلقه .

وورث سابور فيما ورث كراهية العرب الذين سينتزعون يوما ما سلطان فارس كما تؤكد نبوءة ساسان ، فراح يتلفت فوجد الضيَّزن بن معاوية بن العبيد فى أرض الجزيرة ومعه من قبائل قضاعة ما لا يحصى ، وأنه مد ملكه حتى بلغ الشام ، فشخص إليه سابور حتى أناخ على حصنه فى مدينة الحضْر وضرب على الحصن حصارا شديدا بعد أن عجز عن اقتحامه .

ومرت أربع سنين وسابور أمام أسوار الحصن لا يستطيع له فتحا ، فقد راح العرب يدافعون عن حصنهم مستبسلين ، وسرى بين النسوة همس بعد أن بلغ مسامعهم لما لهجت به الألسنة من حسن سابور .

كانت النضيرة ابنة الضيزن رائعة الجمال استهواها حديث النسوة عن

سابور ، فانتهزت ذات ليلة غفلة من الرجال وخرجت إلى رَبَض المدينة وأشرفت على سابور فإذا بحسنه يفوق كل ما سمعته عنه ، فشغفت به وتقدمت إليه وهى مأخوذة قد سلبت منها إرادتها ، وراحت تسير كالطيف فقد كانت تحس ما يحسه النائم المستغرق فى حلم جميل .

ورآها سابور فإذا به يقف وهو مشدوه ، فقد كانت نضيرة من أجمل نساء العالمين ، وشغف بها حبا فمشى إليها وأخذها من يدها وأجلسها إلى جواره وراحا يتناجيان وقد غابا عن الوجود . .

وحدثته عن حصن أبيها ودلته على عورته فقام إلى فرسانه واقتحم الحصن عنوة ، وقتل الضيزن وأباد قضاعة الذين كانوا معه ، ثم أعرس بالنضيرة بعين التمر وباتت ليلتها تتضور فى فراشها وكان من الحرير محشوا بالقز والتسِي ، فإذا ورقة آس بينها وبين الفراش تؤذيها .

والتفت إليها سابور فى ضيق ففراشه الوثير دون ذلك الفراش الناعم الذى اعتادت أن تنام فيه ، فقال لها :

— ويحك ما كان أبوك يغذيك ؟

قالت فى دلال :

— الزبد والمخ والشهد وصفو الخمر .

ولم ينس سابور أنها خانت قومها وقادت إلى قتل أبيها فقال لها :

— وأبيك لأنا أحدث عهدا وأبعد ودا من أبيك الذى غذاك بمثل هذا .

واستدعى رجلا ركب فرسا جموحا وعصب غدائر النضيرة بذنبه وأمره أن يركض ، فانطلق الرجل بفرسه والنضيرة بذنبه ولم يزل الرجل يركض حتى تقطعت أوصالها .

وكان مانى الطشقونى قد أعلن عند تتويج سابور أنه المسيح المنتظر ، وكان مانى شابا صوفيا درس الزردشتية والمثرائية واليهودية وسمع بالمسيح أيام أن التحمت قوات فارس بقوات سورية ، فراح يقول إن الإلـٰه الحق أرسل سابور إلى الأرض ليقوم حياة البشر الدينية والأخلاقية .

واستمر سابور فى تنظيم ملك الساسانيين وراح مانى يقسم العالم مملكتين متنافستين هما مملكة الظلمة ومملكة النور ، ويقول إن الأرض تتبع مملكة الظلمة وأن الشيطان هو الذى خلق الإنسان ولكن ملائكة إلـٰه النور استطاعت بطريقة خفية أن تدخل إلى البشرية بعض عناصر النور ، وهى العقل والذكاء والتفكير .

وقال مانى إن فى النساء أنفسهن بصيصا قليلا من النور ، ولكن المرأة هى خير ما صنع الشيطان وهى عامله الأكبر فى إغراء الرجل وإيقاعه فى الذنوب ، فإذا امتنع الرجل عن العلاقات الجنسية والكلف بالنساء وامتنع عن السحر وعاش عيشة الزهد ولم يطعم إلا الأغذية النباتية وصام عن الطعام بعض الوقت ، فإن ما فيه من عناصر النور يتغلب على الدوافع الشيطانية ويهديه إلى النجاة كما يهديه النور الرحيم .

وملك سابور الحيرة وسط بلاد السواد وحاضرة العرب ، بعد أن انتصر على تميم ولخم والأزد من اتخذوا لهم شعارا أثناء القتال : « يا آل عباد الله » فسموا العباد والعباديين وولى عليهم عمرو بن عدى جد آل المنذر ، فجنى له الخراج وفرض عليهم سلطانه وقبض أيديهم عن الفساد بأقطار ملكه . .

كان مانى قد زعم أن سابور هو المسيح المنتظر ، وما لبث أن ادعى أنه (مانى نفسه) هو « الفارقليط » الذى بشر به عيسى عليه السلام الذى قال عنه :

« إن لم أذهب فلن يأتى الفارقليط » « إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم الفارقليط ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم فإذا جاء ذلك فهو يوبخ العالم على خطيئته » .

فراح يقول : « إن الحكمة والأعمال هى التى لم تزل رسل الله تأتى بها فى زمن دون زمن ، فكان مجيئهم فى بعض القرون على أيدى الرسول الذى هو « البدء » إلى بلاد الهند ، وفى بعضها على يدى « زاردشت » إلى أرض فارس ، وفى بعضها على يدى « عيسى » إلى أرض المغرب ، ثم نزل هذا الوحى وجاءت النبوءة فى هذا القرن الأخير على يدىَّ أنا « مانى » رسول إلٰه الحق إلى أرض بابل » .

وراح مانى ينظم الأغانى ويقول فيها : « إنى جئت من بلاد بابل لأبلغ دعوتى للناس كافة » . وأصاخ أهالى العراق وفارس سمعهم لمانى بينا كان عرب الحيرة والأنبار يعبدون الله ويشركون معه اللات والعزى والأصنام الأخرى .

وظل المجوس يهاجمون مانى وأتباعه ويؤلبون الناس عليه حتى تمكنوا من صلبه وحشو جلده بالقش وعلقوه على أبواب مدينة السوس .

وتوفى عمرو بن عدى وتولى ملك الحيرة بعده ابنه امرؤ القيس الأول ، وكان رجلا محاربا وقائدا كبيرا فأخضع قبيلتى أسد ونزار وهزم مذحجا وأخضع معدا ووزع بنيه فى القبائل ، وامتدت فتوحاته حتى بلغت أسوار نجران .

واعتنق امرؤ القيس النصرانية فانتشرت المسيحية بين عرب الحيرة وامتدت أيام امرئ القيس فعاصر جملة من ملوك الفرس هم هرمز بن سابور وبهرام بن هرمز وبهرام بن بهرام ، وقد كانوا جميعا يرتجفون فرقا من نبوءة

ساسان الأول التي تنبأ فيها بأن رجلا من العرب سينزع ملك فارس وتدين له الفرس بالولاء .

وتولى ملك فارس سابور بن هرمز بن نرسى وكانت نبوءة ساسان تقلقه ، فراح يقتل قتلا مبرحا من أنتج بلاد فارس من العرب ، ولم يشف ذلك غليله فقطع البحر وراح يفتك بالعرب فى بلاد البحرين وأفشى القتل فى « هجر » وكان بها ناس من أعراب تميم وبكر بن وائل وعبد القيس ، ثم عطف على بلاد عبد القيس فأبادها إلا من هرب منهم فلحق الرمال ، ثم أتى اليمامة وأثخن فيها الجراح وراح يطم المياه ويردم الآبار ليحرم الناس الانتفاع بها لعله يستطيع أن يقضى على العرب الذين سينتزعون من الساسانيين ملكهم .

وانطلق حتى أشرف على يثرب فقتل من وجد هناك من العرب ، ثم راح يخلع أكتاف من يقع بين يديه منهم . وقفل سابور ذو الأكتاف عائدا إلى بلاده بيد أن مخاوفه من ذلك العربى الذى سينتزع الملك من الساسانيين لم تنطفئ بل عاونت الدماء المسفوكة على أن تزيدها اندلاعا وضراما .

٦

كانت مكة غارقة فى وثنيتها انحرف أهلها عن طريق الرب الواحد الحق الذى آمن به أجدادهم وملئوا الفراغ الروحى بالتشدد فى الدين الوثنى والاجتهاد فى عبادة الأوثان التى جلبوها من كل مكان وكدسوها فى جوف الكعبة ، بل أسرفوا على أنفسهم وبنوا لها كعبات فى الوادى المقدس .

اتفقوا على أن خالق العالم ورازقهم ومدبر أمرهم ونافعهم وضارهم ومجيرهم واحد لا رب ولا خالق ولا رازق ولا مدبر ولا نافع ولا ضار ولا مجير غيره ، اعتقدوا أنهم يعبدون الله بعبادتهم الأصنام ويتقربون بها إليه ، وقال قائل منهم .

ــ ليس لنا أهلية لعبادة الله تعالى بلا واسطة لعظمته ، فعبدناها لتقربنا إليه زلفى .

وقالت طائفة تعبدت للملائكة :

ــ الملائكة ذوو جاه ومنزلة عند الله ، فاتخذناها أصناما على هيئة الملائكة ليقربونا إلى الله .

وقالت طائفة أخرى :

ــ جعلنا الأصنام قبلة لنا فى عبادة الله تعالى كما أن الكعبة قبلة فى عبادته .

واعتقدت طائفة أن على كل صنم شيطانا موكلا بأمر الله ، فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بأمر الله ، وإلا أصابه الشيطان

بنكبة بأمر الله . وبقي نذر يسير على ملة إبراهيم وإسماعيل يعترفون بوجود الله وتوحيده ملتزمين ما كانوا عليه من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والصلاة والصيام والزكاة والتقرب إلى الله بالمناسك والمشاعر .

وارتدت طائفة إلى أديان العرب قبل إبراهيم وإسماعيل إلى عبادة الكواكب والنجوم ، ففرقة عبدت الشمس واتخذت لها صنما بيده جوهر على لون النار وله بيت خاص ، وزعمت أن الشمس ملك من الملائكة لها نفس وعقل وهي أصل نور القمر والكواكب وهي عند ملك الفلك فتستحق التعظيم والسجود والدعاء . وفرقة عبدت القمر وزعمت أنه مدبر العالم السفلي واتخذت له صنما يعبدونه ويسجدون له ويصومون له أياما معلومة من كل شهر ثم يأتون إليه بالطعام والشراب والفرح والسرور ، وفرقة عبدت الكواكب فصنعت لها أصناما على صورة الكواكب وروحانيتها وبنت لكل كوكب هيكلا خاصا وصارت الأصنام رموزا لآلهة غائبة لتكون نوابا عنها وقائمة مقامها .

وآمن أناس بالدهر وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وافترق الدهريون إلى فرقتين فرقة تقول :

— إن الخالق خلق الأفلاك متحركة أعظم حركة ، دارت عليه فأحرقته ولم يقدر على ضبطها وإمساك حركتها .

وفرقة تقول :

— إن الأشياء ليس لها أول ألبتة وإنما تخرج من القوة إلى الفعل ، فإذا خرج ما كان بالقوة إلى الفعل تكونت الأشياء مركباتها وبسائطها من ذاتها لا من شيء آخر .

إن العالم لم يزل ولا يزال ولا يتغير ولا يضمحل ولا يجوز أن يكون المبدع يفعل فعلا يبطل ويضمحل إلا وهو يبطل ويضمحل مع فعله ، وهذا العالم هو الممسك لهذه الأجزاء التى فيه .

أنكروا الخالق والبعث والإعادة وقالوا : الطبع المحيى والدهر المفنى ، فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر .

وكان فى العرب صابئون على دين إدريس وإبراهيم ويحيى بن زكريا وقد انقسموا كما انقسم الذين من قبلهم إلى حنفاء ومشركين ، وراح الحنفاء يصومون ويصلون ويستقبلون الكعبة فى صلواتهم ويعظمون مكة ويرون الحج إليها ويحرمون الميتة والدم ولحم الخنزير ، وقال الصابئون المشركون :

ـــ لا سبيل لنا إلى الوصول إلى جلال الله إلا بالوسائط ، فعلينا أن نتقرب إليه بتوسطات الروحانيات القريبة منه .

فعظموا الكواكب السبعة والبروج الاثنى عشر ، وبنوا هيكلا كبيرا للشمس وهيكلا للقمر وهيكلا للزهرة وهيكلا للمشترى وهيكلا للمريخ وهيكلا لعطارد وهيكلا لزحل وهيكلا للملة الأولى ، واتخذوا لكل كوكب صنما ومذبحا وراحوا يقربون لها القرابين ويصلون لها خمس صلوات فى اليوم والليلة .

ونشأ أبناء قريش فى ظل هذه الوثنية التى تفرق فيها المكيون شيعا وأحزابا دينية ، فقاسوا من التحلل الاجتماعى الذى كان الناس غارقين فيه ، ومروا بذلك الطور الذى مرت به كل الدول المتحللة قبلهم ، طور الموت فى الحياة ، فاندثرت تلك الحضارة التى تكونت حول الحرم أو كادت ، ولولا القوافل التجارية الخارجة من مكة أو العائدة إليها لأسنت الحياة فى الوادى المقدس

الذى دنسته الأصنام التى تكدست فى جوف الكعبة .

غطيت سفوح الجبال التى تحيط بوادى مكة إحاطة السوار بالمعصم بدور من حجارة ، وخباء من صوف ، وبجاد من وبر ، وفسطاط من شعر ، وسرادق من قطن ، وقشع من جلود ، وحظائر للإبل من شذب الأشجار ، وخيام من عيدان الشجر . وما كاد الصبح يتنفس حتى خرج الرجال والنساء والصبيان والعبيد من الدور وانحدروا إلى بطن الوادى ليطوفوا بالبيت العتيق يلتمسون من آلهتهم الخير والبركة ، فقد كان ذلك اليوم يوم انطلاق قافلتهم التجارية إلى بلاد فارس التى امتد سلطانها حتى كاد يغطى وجه الأرض .

وخف التجار إلى الملتزم يعدون البضائع ويحررون العقود ، فجلسوا بين باب الكعبة والحجر الأسود يتحاسبون ، فمن كان لا يحسن الكتابة يعد بالحصى ، حتى إذا انتهى من عده رفع رأسه وقال للكاتب :

ـــ أحصيت .

ثم يملى على الكاتب عدد ما أحصاه فيدونه فى العقد ويشهد عليه الشهود ، وكان الكاتب يستخدم لتدوين الأرقام حساب عقود الأصابع ، فعند العشرة تجعل السبابة حلقة والعشرين تجعل الإبهام بين السبابة والوسطى ، والثلاثين تجعل رأس السبابة على رأس الإبهام ، والأربعين تجعل رأس الإبهام جالسا ، والستين تجعل ظهر رأس الإبهام على العضل الأعلى من باطن السبابة ، والسبعين تجعل رأس الإبهام على العضل الأسفل من باطن السبابة ، والثمانين تجعل رأس السبابة على ظهر الإبهام ، والتسعين تجعل السبابة حلقة غير مجوفة ، والمائة تجعل رأس السبابة اليسرى كما جعلت اليمنى فى العشرة ، والمائتين تجعل الإبهام اليسرى كما جعلت اليمنى فى العشرين .

وهبط إلى الوادى مالك بن النضر وحوله نفر قليل من قريش ، إخوته من النضر وأبناؤه وأبناء إخوته ، فما كان العهد قد طال على قريش فما وورى النضر التراب إلا من سنين ولا تزال سيرته تتردد فى جنبات مكة ورجع صوته لا يزال يرن فى الوادى الذى ران عليه الجهل بعد أن كان منارة التوحيد .

وطاف مالك ومن معه من قريش بالبيت العتيق ، ولما أتموا الطواف انطلق كل منهم إلى معبد إلـٰهه أو إلاهته يطوف به ويقدم إليه القرابين ، فذهب فريق إلى معبد اللات وفريق إلى معبد العزى ، وانتظر فريق حتى تنطلق القافلة إلى المشلل بين يثرب ومكة ليطوف بصنم مناة وكان منصوبا على ساحل البحر الأحمر ، ليسأل الربة أن تهبه الحظ والتوفيق .

كان مالك زعيم القافلة المنطلقة إلى فارس وكان التجار يتفاءلون به ، فما من مرة خرج فيها على رأس تجارتهم إلا وعاد إليهم بالربح الوفير . وكان مالك مولعا بالتجارة يتمادح بكسب المال وقد كسب منه الشيء الكثير حتى إن إبله كانت تغطى سفوح مكة ، ولكن فكره كان فى هذه الرحلة مشغولا بشيء أعظم من البيع والتجارة ، كان يفكر فى عداوة سابور ذى الأكتاف للعرب وتنكيله بهم .

إن سابور ذا الأكتاف سوط عذاب يبعث الرعب فى قلوب العرب جميعا ، وما كان أحد من العرب يدرى لذلك الاضطهاد من سبب ، فلماذا لا يذهب مالك إلى قصر سابور ويلتمس المثول بين يديه ثم يسأله عن مبعث كراهيته لأقوام لم تبد البغضاء من أفواههم ولا من أفئدتهم .

واستراح مالك لذلك الخاطر واستولى على لبه ، واستحوذت عليه فكرة أن يحرر العرب من بطش سابور ومن ذلك الهلع الذى استبد بهم ، فقد كان

الرعب يزلزل كيان الرجال إذا ما طاف بأذهانهم احتمال وقوعهم فى يد ذلك الطاغية وثقب أكتافهم .

وخرجت القافلة من مكة تضم العدنانيين والإياديين والنزاريين والمضريين والخزاعيين والبطون التى تفرعت عن عدنان بن أدد وآثرت أن تلوذ بالحرم تمضى الحياة فى كنفه وفى حمايته . وكان فى القافلة حفنة من قريش ، فما كانت قريش قد كثر عددها ، وإن كان على رأسها ابن قريش البكر مالك ابن النضر .

وانطلقت القافلة فى معبد الله يتجاوب فى أرجاء الصحراء صوت الحادى يشق السكون الذى ران على الكون ، ويحث الإبل على الإسراع ويذهب عنها الملل والكلال .

وراح ذهن مالك يسبق الزمن فكان يرى نفسه بعين خياله فى قصر سابور ذى الأكتاف يطلب مقابلة الشاهنشاه ويتلمس الأمان ، وكانت الصور تتتابع فى رأسه وينعكس أثرها على محياه ، فكان يعبس إذا احتلت صفحة ذهنه خيالات سابور وهو يأمر بالقبض عليه وخلع أكتافه والتنكيل به ، وما تلبث أساريره أن تنبسط إذا ابتدع خياله صور الترحيب به ونجاح سفارته .

وراحت القافلة تطوى الأرض فى الليل والنهار تنزل فى منازل العرب على طول طريق القوافل الذى يربط بين مكة والعراق ، حتى لاحت لهم أرباض الحيرة فأغذوا السير ليدخلوا جنة العرب ، لينعموا بطيب هوائها ومروجها الخضر بعد لفح الشمس وجدب الصحراء .

وحطت القافلة رحالها فى الحيرة وخف الرجال إلى أسواقها يبيعون الطيب والذهب والفضة ويشترون القمح والحبوب وخيرات الأرض الطيبة ،

وانطلق مالك بن النضر إلى قصر الحاكم العربى الذى خضع الفرس له لعله يجد عنده الشفاعة لدى سابور الذى صب جام غضبه على العرب جميعا .

وسار مالك بن قريش يتلفت ، كانت الحيرة غاصة بالبيع والكنائس فقد اعتنق عرب الحيرة المسيحية على مذهب اليعاقبة ، وكانوا يعتقدون أن للمسيح طبيعة واحدة ، ولم يكونوا على مذهب المسيحيين الغربيين أعداء سابور ، فقد كان مسيحيو الغرب على مذهب النسطوريين القائل : إن القتل وقع على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته ، « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة . وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » .

وبلغ مالك بن النضر القصر فدخل على عمرو بن امرىء القيس البدء حاكم الحيرة ، فرحب به وأجلسه إلى جواره ودار الحديث حول الدين بين عمرو ومن عنده من أتباع مانى فلاحت الدهشة فى وجه مالك ، فقد كان عمرو رجلا محاربا حتى أطلق عليه « مسعر الحرب » ، وكان مالك يتوقع أن يكون الحديث حول الطعن والنزال ومجالدة الأبطال وما دار بخلده أن يسود المجلس حديث الروح .

كانت الصلة طيبة بين مانى وأتباعه وبين ملوك الحيرة ، فقد زعم مانى أنه « الفارقليط » الذى بشر به المسيح ، وكان عمرو مسيحيا يؤمن بالمسيح فدار الحديث حول البشارات فى الإنجيل ، كان أتباع مانى يرددون الآيات المتعلقة بالفارقليط : « ولكن الذى يأتى بعدى هو أقوى منى ، الذى لست أهلا أن أحمل حذاءه ، هو سيعمد بالروح القدس » . « إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الرب فيعطيكم الفارقليط آخر ليمكث معكم إلى

الأبد » . « وأما الفارقليط الروح القدس الذى سيرسله الرب باسمى فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم » . « متى جاء الفارقليط الذى سيرسله إليكم الرب هو روح الحق الذى من عند الرب ينبثق فهو يشهد لى وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معى من الابتداء » . « لكننى أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم الفارقليط » ، وكان المسيحيون يلقون إليهم السمع فى طمأنينة وهدوء .

وظل مالك بن النضر فى مجلسه يتململ ، كان يتلهف على انتهاء ذلك الحديث ليحدث عمرو عن سفارته إلى سابور ليضع عن العرب اضطهادهم الأليم . ولو أن مالك استطاع أن يخترق ببصره حجب الغيب لرأى أن « الفارقليط » الذى كان القوم يتحدثون عنه سيأتى من صلبه ليملأ الدنيا نورا ورحمة .

وانفض الجمع ولم يبق فى المجلس إلا عمرو بن امرىء القيس البدء ملك الحيرة ومالك بن النضر زعيم قافلة المكيين وشيخ قريش ، فراح مالك يبث عمرا نجواه ويستثيره فيما عقد عليه العزم ، فشجعه عمرو على إنفاذ سفارته وراح يمده بنصائحه ويبصره فيما ينبغى أن يقول ويفعل وهو بين يدى سابور شاهنشاه فارس وما حولها من البلدان .

واستأنفت قافلة المكيين رحلتها ، غادرت الحيرة وانطلقت إلى مدينة طيسفون محلة سابور ، فلم يعد إقليم فارس وعاصمته إصطخر صالحين لإقامة الشاهنشاه بعد أن صارت بلاد ما بين النهرين المركز الرئيسى للإمبراطورية ، ولم تكن طيسفون بعيدة عن الحيرة ، فما لبثت القافلة أن وقفت أمام أسوار المدينة العظيمة تنتظر الإذن بالدخول .

كانت المدينة على شاطئ دجلة الشرقى تحوطها أسوار حصينة عليها أبواب محكمة وأبراج عالية ، وقد وقفت الحراس بأسلحتهم الماضية يحرسون الأبراج والأبواب ، ووقف الموظفون يجبون المكوس من القوافل ثم يفتحون لها الأبواب ويسمحون لها بالانطلاق إلى الأسواق العامرة بكل ما فى الأرض من تحف وخيرات .

وانسابت القافلة على الجسر الجديد الذى شيده سابور واتخذت طريقها إلى السوق ، وكل من فيها من المكيين يحلم بالربح الوفير إلا مالك بن النضر فقد راح قلبه يخفق وأرهفت حواسه وانثالت الأفكار على رأسه تسابق الزمن وتتخيل ما قد تتمخض عنه مقابلته للشاهنشاه من أمور .

وبلغت القافلة مكان تجمع القوافل فحطت رحالها ، وسرعان ما ألهت التجارة الرجال عن كل ما حولهم وانغمسوا فى البيع وقد تهللت الوجوه بالفرح بعد أن عرفت عملة سابور الذهبية والفضية طريقها إلى رحالهم .

وظل مالك فى قلقه يتلفت بعيون زائغة ، وأراد أن يقضى على ذلك الخوف الموار بين ضلوعه فانسل من السوق واتخذ طريقه إلى قصر سابور ليمضى رسالته ويواجه مصيره .

كانت الجدران مزينة بنقوش سعف النخل وزهور وبراعم وتيجان من الورد ونقوش التوريق ، وأشكال حيوانات وصور دببة وخنازير وحشية ، وكانت أنقاض الكاتدرائية التى ضربت إبان ولاية سابور تشوه جمال المكان ، ولكن شيخ قريش ذهل عن كل ذلك بصورة بشعة ملأت رأسه ، صورة سابور وهو ينقب أكتافه ويذيقه العذاب الأليم .

واشتعل كيان مالك بالخوف وراحت وسوسات منبعثة من وجله تحرضه

على أن ينكص على عقبيه وأن يعود أدراجه قبل أن يضع رأسه بين براثن وحش متعطش إلى دماء العرب أجمعين ، إلا أنه راح يقاوم مخاوفه ويطمئن نفسه بأن سابور لا يخلع إلا أكتاف العرب الذين يقعون أسرى بين يديه فى إبان الحروب .

ولاح لعينى مالك قصر سابور كجوهرة تتألق فى الشمس ، فراح يوسع من خطوه فبدت حدائق القصر الملكى وأشجاره كلوحة رائعة رسمتها يد فنان عظيم ، فتقدم مالك وهو مأخوذ حتى إذا بلغ باب القصر التمس المثول بين يدى الشاهنشاه ملك الملوك رفيق النجوم .

وأذن لشيخ قريش بالدخول فانطلق فى حديقة تمرح فيها الغزلان ، ثم دلف من الباب الداخلى إلى قاعة زينت بتهاويل ونقوش وتماثيل ، وانساب إلى جناح وزير القصر ليتلقى ما ينبغى عليه أن يفعله وأن يقوله لعابد مزدا الإلـٰه سابور .

وسار مالك إلى قاعة العرش بين صفين من الجنود وهو مسحور ، وفتح الباب وتقدم العربى خطوات وما لبث أن خر ساجدا وهو يقول :

ـ مولاى عابد أهورا مزدا ، الإلـٰه سابور ، شاهنشاه إيران وغير إيران ، سليل الآلهة ، رفيق النجوم أخو الشمس والقمر ، ألتمس منك يا مولاى الأمان .

وانتفخت أوداج سابور وأعطى مالك سؤله وأجلسه إلى جواره ، ودار الحديث بين الشاهنشاه وشيخ قريش ، حتى إذا اطمأن مالك إلى سابور قال له :

ـ جئت يا مولاى وفى صدرى سؤال يتردد ، أيأذن لى رفيق النجوم أن أفصح عما بى ؟

فقال له سابور وهو يفحص عنه بعينين نفاذتين :

ـ قل : إنى ألقى إليك سمعى .

فجمع مالك شتات نفسه وقال فى هدوء :

ـ لماذا يا سليل الآلهة وأخا الشمس والقمر تضطهد العرب ؟

فقطب سابور جبينه ولاح فى وجهه الجد ، ثم قال وهو شارد :

ـ قال المنجمون إنه سيظهر فى العرب رجل تزول على يديه دولة فارس ويمحق دينها .

فقال مالك :

ـ ربما كذب المنجمون يا مولاى .

فاعتدل سابور وقال فى رنة ملؤها الخوف :

ـ ونبوءة ساسان !؟

ـ وبماذا تنبأ ؟

فقال سابور كأنما يقرأ من كتاب مفتوح :

ـ حينما يفعل الفرس أفاعيل شريرة يظهر رجل من العرب ، فيأخذ سرير الملك ويقع المذهب فى قبضته ، ويصبح الرؤساء مرءوسين له ، ويجعل مكان تماثيل الآلهة ومواقد النيران المقدسة بيتا معمورا بلا صور ولا تماثيل . سيأخذ العرب معابد المجوس وستقع فى أيديهم توس وبلخ وبقية بقاعنا العظيمة . لا لم يكذب المنجمون .

ـ إذا كانوا صادقين فليقولوا من أية قبيلة ذلك الرجل .

ـ لو عرفوا من أية قبيلة ذلك الرجل لأفنيت تلك القبيلة وما سفكت دماء العرب أجمعين .

— إذا صدق المنجمون وكان ذلك واقعا ، أيمنع سفك مولاى لدماء العرب وقوعه ؟

وبهت سابور لكأنما كان قول شيخ قريش جديدا عليه ، والحق أنه لم يخطر له على بال . أعماه غضبه عن تلك الحقيقة البسيطة ، إن كانت نبوءة ساسان ونبوءة المنجمين واقعة فلا جدوى من القتل والتنكيل ، فلا يمنع حذر من قدر ، لقد كان مأفونا يوم أن قرر أن يكتم أنفاس أناس يطوى الغيب لهم فى جوفه سلطانا مبينا ، فالتفت سابور إلى مالك بن النضر وقال فى تسليم :

— صدقت ، لا سلطان لى على ما سيكون .

وقرأ مالك فى وجه سابور القهر فاطمأنت نفسه وعادت إليه شجاعته ، واستشعر أنه أصبح سيد الموقف فقال :

— يا أخا الشمس والقمر وسليل الآلهة ! ترفق بالعرب حتى يترفق بكم ذلك الذى سيظهر فى العرب ويظهره الله عليكم .

ونظر سابور إلى مالك فى إكبار فإن كان قوله بسيطا إلا أنه كان حكيما ، أشار عليه بما لم يشر به حكماء مملكته ، وضايق سابور ، من قال عنه مانى إنه المسيح الجديد ، أنه عاند القدر فقال لمالك :

— لقد وضعت القتل والتعذيب عن العرب .

وتهللت أسارير مالك بن النضر وقام وهو يشكر عابد أهورا مزدا الإلـه سابور سليل الآلهة رفيق النجوم أخا الشمس والقمر ، وغادر محرر العرب قصر الشاهنشاه وهو مفعم بالفرح لنجاح سفارته . ولو اطلع سابور على

الغيب لرأى أن الذى بشر به المسيح سيأتى من صلب ذلك الرجل ، وأن خليفته الثانى هو الذى سيأخذ سرير ملك الساسانيين ويقضى على دين المجوس وسيطفئ النار المقدسة ويحطم تماثيل الآلهة ويوجه وجوه الإيرانيين إلى البيت المعمور ، وستقع توس وبلخ وبقية البقاع العظيمة فى يده ، وسيصبح الرؤساء مرءوسين له يدينون بدينه ويشهدون برسوله .

٧

رانت الفوضى على إمبراطورية روما الوثنية ودب فيها الضعف الإدارى وترنحت من الوهن المالى ، وانتقل شطر عظيم من السطان فيها إلى أيدى ذوى الطموح من الجند ، ولاح الخطر على حدودها فإمبراطورية فارس الفتية تقرع أبوابها بين الفينة والفينة .

وكانت الثروة موزعة توزيعا غير عادل ، فبينا كان هناك كثيرون من أصحاب الملايين فقد كانت ولايات بأكملها غارقة فى الفقر حتى آذانها . وظلت الإمبراطورية تعانى من اضطراب ميزانها التجارى فالواردات من الهند والصين والدول الشرقية تتجاوز صادراتها . وكانت الأديان القديمة لا تزال هى أديان الكثرة الغالبة من سكان الإمبراطورية ، فأما اليهودية فقد ضمت فى مجامعها المتفرقة المطرودين من أتباعها بعد أن عضهم الفقر بنابه وراحت تنفس عن تقواها بترتيل التلمود . وظل السوريون يعبدون بعلا وإن أسموه بأسماء يونانية ، كما ظل الكهنة المصريون قائمين على خدمة آلهتهم الحيوانية الكثيرة بإخلاص وولاء ، واحتفظت سيبيل وإيزيس ومشراس بأتباعها ، واستمرت النذور والقرابين ترسل إلى آلهة الرومان القديمة فى هياكلها ، وظل المواطنون الذين يتطلعون إلى المراكز العليا فى الدولة يؤدون مناسك دين الأباطرة فى مختلف أنحائها ، لكن هذه الأديان القديمة فقدت حيويتها ولم تعد تثير فى الناس ذلك الإخلاص القلبى الذى يبعث الحياة فى الدين اللهم إلا فى

أماكن قليلة متفرقة .

ولم يكن ذلك الضعف أن اليونان والرومان قد تركوا أديانهم التى كانت ذات يوم جميلة محببة أو قوية صارمة ، بل كان سببه أنهم فقدوا إرادة الحياة وعمدوا إلى الإسراف فى تحديد النسل أو إنهاك الجسم أو الحروب المدمرة ، فقل عددهم إلى الحد الذى أفقد الهياكل عبادها فى الوقت الذى فقدت فيه الأرض فلاحيها .

ولم يجد الفقراء ولا الأرقاء ولا العتقاء قلوبا رحيمة تستشعر إنسانيتهم ، فكانوا يعيشون على عطايا الدولة ، بينا كان الأغنياء يحظون بمباهج الحياة ووسائل الترف المادية التى تفوق كل ما شهده العالم فى ذلك الحين . ولكن تلك الرفاهية كانت معرضة لأحداث فجائية تقطع تدفقها ، فكثيرا ما تعرض مواطنون مسالمون لإهانات أليمة فى أثناء الحروب الأهلية ، وكثيرا ما جرد بعضهم من أموالهم ، وما أكثر الذين استلت أرواحهم من بين أجسادهم ظلما وعدوانا ، فيئس الناس من الدنيا وزالت كل غشاوة كانت تغرهم فيها .

صارت الدنيا مترعة بالرعب والخوف ، فراح الناس يتلفتون باحثين عن الأمان فوجدوا فى الشرق الراحة والسلوان ، فتسربت من الشرق إلى الغرب العقائد ذات الشعائر السرية الخاصة بإيزيس والأم العظيمة ، فراح أتباع تلك العقائد والمتشيعون لها يزدادون على مر الأيام ، وفى غمار الطقوس السرية والرياضيات التى تفرضها هاتان الربتان كان المتبرمون بذلك العالم يمارسون شعائرها ليصلوا إلى الحقيقة العليا .

كانت هذه النحل حبيبة إلى قلوب الحصفاء البصيرين بأمور الدنيا والمكدودين المرهقين ، ولكن الجند وكل ذى همة من الرجال كانوا يفضلون

العقيدة المثرائية التى تسربت إليهم من إيران فكانوا يعبدون أبو للون الشمس التى تقهر ، وما وافى القرن الثالث الميلادى حتى كانت المثرائية منتشرة فى طول البلاد وعرضها .

وتسربت المسيحية من الشرق إلى الغرب بتصوفها ورموزها وراحت تدعو إلى المساواة بين العبد والإمبراطورية ، وتقول إن الناس سواسية عند الله لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، فوجدت آذانا واعية بين الفقراء والطبقات الدنيا .

وراحت المسيحية تنشر المحبة والأخوة البشرية بين الناس فدخل محبو الإنسانية فى دين الله أفواجا ، ووجدوا فى فلسفة الآخرة الرجاء والمأوى ، ومزج بولس منذ أيام المسيحية الأولى بين دين المسيح والفلسفة الإغريقية فوجد الرومان فى الدين الجديد ما يشبع تلهفاتهم من تصوف وحب للرمز والرمزية ، فاغتنقوه وألقوا سمعهم إلى أساطير القديسين ومعجزاتهم فامتلأت أفئدتهم بالنشوة .

ونفت سوق العرافة والسحر وربت وانداحت خرافة « مس الشياطين » حتى أصبحت علما . وتسللت الخرافات الوثنية إلى دين السيد المسيح فصارت أعمدة ضخمة من دعائم الكنيسة المسيحية ، وحتى الفلسفة نفسها سارت فى الطريق الشعبى لترضى الدهماء ، فتدهورت الفلسفة الرواقية فى الغرب ومس السقم الأفلاطونية الحديثة لما سرت فى أحشائها الشعوذة والسحر وران عليها الشرك .

وحاولت الوثنية أن تحمى نفسها من المسيحية فقام سلسس Celisus وهو رجل من رجال الدنيا الذي يمتعون أنفسهم بنعيمها ، ولم يكن كالفلاسفة

يهاجم المسيحية فى ضراوة وينقد ما فى الكتاب المقدس من أمور ، ويبين ما بين موت المسيح وقدرته الإلـٰهية من تناقض .

وروع سلسس انتشار المسيحية وعداؤها للوثنية ، وكان يحس أن الحضارة التى يستمتع بها مرتبطة أشد الارتباط بالدين الرومانى ، وأفزعه أن المسيحية تزدرى الخدمة العسكرية والدولة فقال :

ــ كيف تستطيع الإمبراطورية أن تحمى نفسها من البرابرة الذين يحومون حول أطرافها فى جميع جهاتها إذا خضع أهلها لهذه الفلسفة المسالمة ؟

كان يرى أن من واجب المواطن الصالح أن يدين بدين بلاده والعصر الذى يعيش فيه دون أن ينتقد علنا ما فيه من سخافات لأن هذه السخافات لا أهمية لها ، أما الشيء المهم حقا فهو أن يكون للدولة دين يوحدها ويعين على الخلق الكريم ويثبت قواعد الولاء لها .

ونسى سلسس ما صبه على المسيحية من إهانات فدعاهم إلى أن يعود إلى الآلهة القديمة وأن يعبدوا عبقرية الإمبراطور الحارسة ، وأن ينضموا إلى سائر مواطنيهم فى الدفاع عن الإمبراطورية التى يتهددها الخطر ، غير أن أحدا لم يلق بالا إلى هذه الدعوة ، وغاب عن فطنه سلسس أن الدين الميت لا يستطيع أن ينجى روما من الدمار الذى يتهددها .

أنشأ الفيثاغوريون الجدد والأفلاطونيون الجدد من نظرية فيثاغورس فى تناسق الأرواح وآراء أفلاطون فى الأفكار الإلـٰهية نظاما فى الزهد أرادوا به أن يقووا الإدراك الروحى بإماتة الحواس الجسدية ، وأن يعودوا بتطهير أنفسهم إلى صعود المراقى التى انحطت بها الروح من عالم السموات وسكنت فى جسم الإنسان . وفى ذلك الوقت كسبت الكنيسة طائفة من المؤبدين كانوا أحصف

عقول الإمبراطورية ، وقد وهب هؤلاء المؤمنون المسيحية فلسفة انتصرت على أعدائها بحججهم القوية .

وكان جستين من هؤلاء المؤمنين الذين انبروا للدفاع عن دينه الجديد فحكم عليه بأن يلقى للوحوش لأنه أبى أن يرتد عن دينه ، فكتب وهو فى طريقه إلى روما :

« فليعلم جميع الناس أنى أموت طائعا فى حب الله إذا لم يحل أحد بينى وبين الموت . وأتوسل إليكم ألا تأخذكم بى رأفة أرى أنها فى غير أوانها بل اتركونى تنهشنى السباع حتى أصل عن طريقها إلى الله .. ألا ما أشد شوقى إلى الوحوش التى أعدت لى » .

وأعدم جستين السامرى وقام من بعده إيرينيوس أسقف ليون يحارب الإلحاد ، وكان إيرينيوس يشفق من تفرق المسيحية إلى شيع كثيرة فقال :

ـــ لا سبيل إلى منع المسيحية من أن تتفرق فتصبح ألف شيعة وشيعة إلا أن يرضى المسيحيون بالخضوع لسلطة واحدة تحدد لهم مبادئ دينهم ، وتلك السلطة هى قرارات مجالس الكنيسة الأسقفية .

وقام قرطاجنى يدافع عن المسيحية بعد إعدام جستين السامرى ذلك هو ترتليانس ، وقد درس البلاغة ثم اشتغل بالمحاماة عاما واحدا فى رومة واعتنق المسيحية فى كهولته وتزوج بمسيحية ونبذ كل اللذائذ الوثنية واستخدم جميع الفنون والأساليب التى عادت عليه من تعلم البلاغة للدفاع عن الدين المسيحى . كانت المسيحية اليونانية فلسفة لاهوتية صوفية ، فلما اعتنق ترتليان دينه الجديد جعل المسيحية اللاتينية دينا أخلاقيا قانونيا عمليا ، وقد أصبحت الآداب المسيحية فى الغرب على يديه لاتينية وأصبح الأدب اللاتينى

مسيحيا .

كان الحكام الرومان فى قرطاجنة يتهمون المسيحيين بعدم الولاء للدولة ويحاكمونهم على هذه التهمة ، فكتب ترتليان رسالة باسم الدفاع جاء فيها :
« إن المسيحيين لا ينقطعون عن الدعاء لجميع الأباطرة وسلامة الأسرة الحاكمة ، ويطلبون إلى الله أن يهب البلاد جيوشا باسلة ومجلس شيوخ وفياً أمينا وأن يمن على العالم بالهدوء » .

وراح ترتليان يدافع عن عظمة التوحيد ويقول :

— انظروا إلى ما تشهد به النفس ذاتها وهى بفطرتها مسيحية .

وأصدر كتابه المسمى « فى المسرح » وصف فيه المسارح الرومانية وصفا ساخرا فقد قال عنها : إنها حصون البذاءة . ووصف المدرجات التى كان يتصارع فيها العبيد حتى الموت على مرأى من النظارة المتهللين بالفرح فقال عنها إنها أكبر دليل على قسوة الإنسان على أخيه الإنسان .

وختم مشاهد مسرحه بذلك الوعيد المرير .

— وستشهدون مناظر أخرى — مناظر اليوم الخالد الأخير يوم الحساب .. يوم يحترق هذا العالم الذى بلغ سن الشيخوخة ولا يزال يحترق أهله جميعا فى لهيب نار واحدة . ألا ما أروع هذا المنظر فى ذلك اليوم ! وما أشد عجبى وأعلى ضحكى وأكثر ابتهاجى وطربى حين أرى هذا العدد الجم من الملوك — وكان يظن أنهم ينعمون فى ملكوت السموات — يئنون ويتوجعون فى أعماق الظلام ! ، والحكام الذين اضطهدوا اسم يسوع تذوب أجسامهم فى لهب أشد حرارة من جميع النيران التى أوقدوها .. ضد المسيحيين !

وأرى حكماء وفلاسفة تعلوهم حمرة الخجل أمام تلاميذهم وهم يحترقون

معا ! وممثلى المآسى وهم الآن أعلى صوتا فى مأساتهم مما كانوا فى أى يوم من أيام حياتهم ، واللاعبين ذوى الأجسام اللدنة فى أعماق النار ، وسائقى المركبات تشوى لحومهم على عجلة اللهب !

وراح ترتليان فى شيخوخته يندد بجميع أسباب السلوى عدا سلوى الدين والأمل فى نعيم الآخرة ، فأخذ يخاطب المرأة بأوقح الألفاظ ويصفها بأنها الباب الذى يدخل منه الشيطان .

ورأى ترتليان الأساطير تطمر تعاليم السيد المسيح فلم يقبل فكرة موت ابن الله ولا قيامه من بين الأموات ، وندد بجميع الآباء الذين لا يحجبون بناتهم ، وبجميع الأساقفة الذين يغفرون خطايا المذنبين التائبين وانتهى به الأمر أن أطلق على البابا لقب « راعى الزناة » .

وازدهرت الكنيسة فى قرطاجنة ، وكان نماؤها فى مصر أبطأ منه فى قرطاجنة ، حتى إذا ما جاء أواخر القرن الثانى الميلادى قامت فى مدينة الإسكندرية مدرسة لتعليم أصول الدين بالسؤال والجواب ، فاقترنت المسيحية بالفلسفة اليونانية ، ولم يعد المسيح رسول بنى إسرائيل الداعى إلى عبادة الله وحده ، بل صار ابن الله الخالد معه ، ولم يكن المحكم بين الناس فى المستقبل بل أصبح هو الخالق الأول للكون . وقد هضمت تقاليد العقل الهلنستى الدينية والفلسفية فكرة المسيح الإلـه وامتصتها .

ولم تقض المسيحية على الوثنية بل تبنتها ، ذلك أن العقل اليونانى المحتضر عاد إلى الحياة فى صورة جديدة فى لاهوت الكنيسة وطقوسها ، وأصبحت اللغة اليونانية التى ظلت قرونا عدة صاحبة السلطان على السياسة أداة الآداب والطقوس المسيحية ، وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية إلى طقوس القداس

الخفية ، وجاءت من مصر آراء الثالوث المقدس . تطورت فكرة أزريس وحوريس وإيزيس وعبادة أم الطفل والاتصال الصوفى بالله ، ذلك الاتصال الذى أوجد الأفلاطونية الحديثة واللاأدرية وطمس معالم العقيدة المسيحية عقيدة الإسلام التى جاء بها كل الرسل منذ أن عرف العالم تاريخ الرسالات .

وجاء من فريجيا عبادة الأم العظمى وأخذت من سوريا تمثيلية بعث أونيس وأسطورة بعل الذى حوكم وصلب وعن يمينه وشماله مجرمان وإطلاق مجرم ثالث يوم المحاكمة ، وقد أطلق على اسم المجرم الذى أطلق سراحه فى تمثيلية محاكمة المسيح براباس . وفى بلاد الفرس جاءت عقيدة رجوع المسيح وحكمه الأرض ألف عام . ولم يكد يمضى على موت المسيح عشرات السنين حتى ابتدع بولص والعالم الوثنى القديم دينا وثنيا أطلقوا عليه المسيحية ، وقد قام الموحدون المؤمنون برسالة السيد المسيح الحقة يناهضون تلك التيارات الوثنية ويحاولون أن يعيدوا إلى الدين القيم نصاعته ووحدانيته .

وفى عام ٢٨٤ انتقلت السلطة فى الإمبراطورية الرومانية إلى دقلديانوس . وكان مدركا تمام الإدراك لحالة الإمبراطورية ، فقد كانت الفوضى ضاربة أطنابها فى أرجائها وكان الكساد التجارى قد ران عليها ، فكرس حكمه كله لتنفيذ برامج إصلاحات بعيدة الغاية والمدى ، فأحل محل قانون العرض والطلب نظاما اقتصاديا تسيطر عليه الدولة ليتغلب بذلك على الكساد ويمنع نشوب الثورات ، ووضع نظاما نقديا سليما بأن عين للعملة الذهبية وزنا وعيارا محددين ، ووزع الطعام على الفقراء بنصف ثمنه فى السوق أو بغير ثمن ، وراح يقيم كثيرا من المنشآت العامة ليوجد بذلك عملا للمتبطلين ، ووضع عددا كبيرا من فروع الصناعة والتجارة تحت سيطرة الدولة ليضمن بذلك

حاجات المدن والجيش ، وقد بدأت هذه السيطرة الكاملة باستيراد الحبوب فأقنع أصحاب السفن والتجارة والبحارة المشتغلين بهذه التجارة أن يقبلوا إشراف الدولة عليها نظير ضمان الحكومة لأرباحهم وعدم تعطلهم .

كانت الدولة من زمن بعيد تمتلك معظم مقالع الحجارة ورواسب الملح والمناجم ، ولكنها خطت فى ذلك الوقت خطوة أخرى فحرمت تصدير الملح والحديد والذهب والخمر والحبوب والزيت من إيطاليا وفرضت نظاما دقيقا صارما على استيراد هذه المواد ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى السيطرة على المؤسسات الصناعية التى تنتج حاجات الجيش وبلاط الأباطرة وموظفى الدولة ، وحتمت على مصانع الذخيرة والنسيج والمخابز ألا يقل إنتاجها عن قدر معين واشترت هذا القدر بما حددت له من أثمان ، وألقت على جمعيات الصناع تبعات تنفيذ أوامرها ومواصفات منتجاتها ، فإذا تبينت أن هذه الخطة لم تؤد إلى الغرض المقصود منها أممت تلك المصانع .

وكان دقلديانوس يرى الإمبراطورية أضخم من أن يستطيع إمبراطور واحد أن يحكمها ، فأمر أن يكون للإمبراطورية إمبراطوران يقوم أحدهما فى شطرها اليونانى ويقيم الآخر فى شطرها اللاتينى ، وجعل لكل إمبراطور قيصرا يساعده ويكون وريثه من بعده .

كانت فكرة ألوهية الملك من الأمور المعروفة فى الشرق وكانت بدعة رائجة فى عهد الملكيات الهلينستية : ملكيات اليونان ، إلا أن روما كانت تكره الملكية فاكتفى أباطرتها الأوائل بلقب المواطن الأول ، وسرعان ما رؤى أن من الخير للشعوب المحكومة أن تؤله الإمبراطور فصار دقلديانوس نصف إلـه .

ونقل دقلديانوس عن أعدائه الساسانيين كثيرا من مراسمهم وثيابهم

الرسمية ، فلم يعد الإمبراطور يكثر من التنقل بين رعاياه بل أخذ يعيش منعزلا في بلاط تحكمه المراسيم . وأصبح فى رعاية الخصيان ، وصار على من يطلبون مقابلته أن يسجدوا له وألا يرفعوا رءوسهم قبل أن يأذن لهم .

ولبس دقلديانوس التاج وانتعل بحذاء قرمزى وارتدى أثوابا ذات ألوان أرجوانية ورأى أن من الخير له أن يجد بينه وبين الآلهة نسبا فانتسب إلى جوبتر (المشترى) رب الأرباب ، كما انتسب ملوك بابل إلى مردوخ من قبله .

واحتذى مكسميان قيصر الشرق وقنسطنطيوس قيصر الغرب حذو الإمبراطور ، فادعى مكسميان أنه من نسل هرقل وادعى قنسطنطيوس أنه سليل أبوللون إلٰه الشمس .

وكان الرعايا الرومان على استعداد لعبادة الإمبراطور ولكن المسيحيين رفضوا أن يعبدوا الدولة ، فغضب دقلديانوس وراح يصب جام غضبه على المسيحيين فى كل مكان .

وراحت الاتهامات تلقى جزافا من كلا الجانبين ، من الجانب الرومانى الذى كان ينظر إلى دينه الوثنى على أنه جزء من كيان الحكومة وشعائرها ومن الجانب المسيحى الذى كان ينظر إلى دينه على أنه منفصل عن المجتمع السياسى وأنه أسمى من هذا المجتمع مقاما .

سمى الرومانيون المسيحيين حثالة الناس والبرابرة الوقحين واتهموهم بأنهم أعداء الجنس البشرى ، ورد المسيحيون على ذلك بأن سخروا من الوثنية ومن آلهة الوثنيين ، وراح الوثنيون يقولون إن المسيحيين سحرة متصلون بالشياطين وإنهم يقترفون الخطايا سرا ويشربون دماء الآدميين فى عيد الفصح ويعبدون الحمار ، واتسعت شقة الخلاف بين الفريقين .

وأمر دقلديانوس حكامه أن يهدموا الكنائس المسيحية وأن يحرقوا الكتب المسيحية ، وأن يحلوا المجتمعات المسيحية وأن تصادر أملاكها وأن يحرم المسيحيون من جميع المناصب العامة ، وأن يعاقب بالإعدام كل من يضبط فى أى اجتماع دينى .

وكان المسيحيون فى ذلك الوقت من الكثرة بحيث يستطيعون رد العدوان بعدوان مثله ، فلما قام الجند بإحراق كنيسة نقوميديا ودمروها عن آخرها قامت حركة ثورية فى سورية وأضرم بعضهم النار مرتين فى قصر دقلديانوس بنقوميديا . وألقى القبض على كثير من المسيحيين وسجنوا وعذبوا ، ثم أصدر دقلديانوس أمرا بأن يطلق سراح المسجونين من المسيحيين الذين يعبدون الآلهة الرومانية ، أما من يرفض ذلك منهم فليذق جميع ألوان العذاب التى تعرفها روما .

وقاوم المسيحيون تلك الأوامر فاستشاط غضبا من تلك المقاومة وأمر جميع كبار الحكام فى الولايات بأن يبحثوا عن كل مسيحى وأن يستخدموا معه كل وسيلة مستطاعة لإرغامه على استرضاء الآلهة ، فراح مكسميان ينفذ ذلك الأمر فى إيطاليا تنفيذا عسكريا صارما ، ووقع الاضطهاد فى الشرق على المسيحيين فزاد عدد الشهداء فى كل جزء من أجزاء الإمبراطورية عدا غالة وبريطانيا حيث اكتفى قنسطنطيوس بإحراق عدد قليل من الكنائس .

وراحوا يجلدون المسيحيين بعنف وقسوة حتى كانت لحومهم تنفصل عن عظامهم ، وكان الملح أحيانا والخل أحيانا يصب فى جروحهم ، وكان لحمهم يقطع قطعة قطعة ويرمى للحيوانات الواقفة متلهفة عليها ، وسملت أعينهم ، وعلق بعضهم من يده أو من قدمه ، وصب الرصاص المصهور فى حلوق

بعضهم ، وصلب بعضهم وتركوا للوحوش الضارية لتنهشهم نهشا . ودام الاضطهاد ثمانية أعوام ، وهلك بسببه نحو ألف وخمسمائة من المسيحيين بعضهم من أتباع الدين القيم وبعضهم من الملاحدة ، وكان دم هؤلاء الشهداء البذور التى نبتت منها المسيحية .

واعتزل دقلديانوس العرش فى عام ٣٠٥ وما مرت بضع سنين حتى كان فى البلاد أباطرة أربعة هم ليكينيوس ومكسمين فى الشرق ومكسنتيوس وقسطنطين بن قسطنطيوس فى الغرب ، ولاح فى الأفق شبح الحرب الأهلية .

كان قسطنطين ابنا غير شرعى لقنسطنطيوس من حظيته هلينا خادمة إحدى الحانات ، وانخرط قسطنطين فى سلك الجندية فى سن مبكرة وأظهر بسالة فى الحروب التى خاضها فى مصر وفارس . ولما خلف جليريوس دقلديانوس أبقى الضابط الشاب بالقرب منه ليكون رهينة لديه يضمن به حسن مسلك قنسطنطيوس ، ولما طلب إليه قنسطنطيوس أن يرسل إليه الشاب تلكأ جليريوس فى إجابته إلى طلبه وأظهر فى ذلك كثيرا من الدهاء ولكن قسطنطين فر من حراسه واخترق أوروبا راكبا ليلا ونهارا لينضم إلى أبيه فى بولونى ويشترك معه فى حربه لبريطانيا .

وكان جيش غالة شديد الولاء لقنسطنطيوس لما كان يتصف به من الرحمة ، فلما أبصر ابنه الوسيم الشجاع أحبه حبا جما ، ولما مات فى يورك لم يكتف الجند بأن ينادوا بقسطنطين « قيصرا » فحسب بل نادوا به إمبراطورا .

ودارت الحروب بين الطامعين فى الإمبراطورية ، وذهب قسطنطين يريد دخول روما دخول الظافرين . فلما رأى مكسنتيوس غريمه يرفع لواء الشمس التى لا تقهر عقد العزم على أن يستعين بالمسيحيين ، فزعم أنه رأى فيما يرى

النائم أن صوتا يأمره بأن يرسم جنوده حرف × على دروعهم وفى وسطه خط يقطعه وينثنى حول أعلاه ، علامة الصليب ، فأثار ذلك حماسة جنوده المسيحيين ودارت معركة رهيبة انتصر فيها قسطنطين وهلك مكسنتيوس هو وآلاف من جنوده فى نهر التيبر ، ودخل القائد الظافر روما وحيته المدينة ، وأصبح سيد الغرب بلا منازع .

وكان اعتناق قسطنطين للمسيحية حركة بارعة أملتها عليه حكمته السياسية ، وكانت المسيحية عنده وسيلة لا غاية فكان يعامل أساقفته على أنهم أعوانه السياسيون . ولم يكن يعنى بالفروق اللاهوتية التى كانت تضطرب بها المسيحية ولكنه لم يكن يتردد فى القضاء على الانشقاق محافظة على وحدة الإمبراطورية .

وكان أمل قسطنطين أن تظل المسيحية داخل إمبراطوريته وحدة متماسكة إلا أن ذلك الأمل تزعزع قبل مضى عام واحد على اعتناقه المسيحية ، فقد حدث انشقاق شديد الخطورة بين أساقفة قرطاجنة ، وحزن قسطنطين أشد الحزن لما أعقب ذلك الانشقاق من فوضى وعنف ، واستخدم دهاءه فى لم الصدع والتوفيق بين الجماعة المسيحية المتنافرة فى إفريقية ، وما كاد يستريح من ذلك الشقاق حتى قامت فى الإسكندرية أخطر حركة إلحادية فى تاريخ الكنيسة .

انطلق آريوس القس المصرى فى شوارع الإسكندرية بقامته الطويلة . وكان نحيل الجسم مكتئب الهيئة ذا مظهر تبدو فيه آثار خشونة العيش ، وكان يرتدى جلبابا قصيرا من غير كمين تحت ملحفة يستخدمها عباءة ، وكانت تدور فى رأسه أفكار غريبة عن طبيعة المسيح ، وكانت اللهفة تبدو فى وجهه

فقد كان يريد أن يفضى بتلك الآراء إلى أسقفه ألكسندر .

ودخل الكنيسة فأظهرت له العذارى اللاتى نذرن أنفسهن للدين الاحترام والتبجيل ، فقد كان حديثه ظريفا وكانت خطبه مقنعة وكان له من بين رجال الدين عدد كبير من المؤيدين ، وانطلق إلى حيث كان الأسقف وسرعان ما دار النقاش بين الرجلين ، قال أريوس :

ـــ إن المسيح لم يكن هو والخالق شيئا واحدا ، بل كان هو الكلمة أول الكائنات التى خلقها الله وأسماها .

واحتج الأسقف ألكسندر على هذا القول وقال :

ـــ هذا كفر وإلحاد .

وقال أريوس فى إصرار :

إذا كان الابن من نسل الأب فلا بد أن تكون ولادته حدثت فى زمن ، وعلى هذا لا يمكن أن يكون الابن متفقا مع وجود الأب فى الزمن ، وإذا كان المسيح قد خلق فلا بد أن يكون خلقه من لا شىء ، أى من غير مادة الأب ، لأن المسيح والأب ليسا من مادة واحدة . وقد ولد الروح القدس من الكلمة وهو أقل ألوهية من الكلمة نفسها .

وكانت هذه الأفكار منحدرة من أفلاطون عن طريق الرواقيين وفيلون وبذلك أصبحت الأفلاطونية التى كان لها أعظم الأثر فى اللاهوت المسيحى فى نزاع مع الكنيسة .

وأراد قسطنطين أن يخمد هذه الفتنة برسالة بعث بها إلى ألكسندر وأريوس ولكن لم يكن لهذه الرسالة أثر ما ، لأن مسألة اتفاق الأب والابن فى المادة لا مجرد تشابههما كانت فى نظر الكنيسة مسألة حيوية من الوجهتين الدينية

والسياسية ، وكانت ترى أنه إذا لم يكن المسيح إلـٰها فإن كيان العقيدة المسيحية كلها يبدأ فى التصدع .

ودعا قسطنطين أول مجلس عام للكنيسة ليجتمع فى نيقية وفتح بذلك باب بدعة المجامع التى تقرر ما تشاء من أمر الدين ، واجتمع فى مؤتمر نيقية ألفان وثلثمائة وأربعون أسقفا وبطركا وقسا ، ورأس الاجتماع قسطنطين . وراح أريوس يعلن رأيه القائل بأن المسيح مخلوق لا يرقى إلى منزلة الأب ، وراح أثناسيوس رئيس شمامسة الإسكندرية البليغ المشاكس الذى جاء به الإسكندر معه ليقطع به ألسنة معارضيه يحيى أسطورة أزريس وحورس وإيزيس ، فقال :

— إذا لم يكن المسيح والروح القدس كلاهما من مادة الأب ، فإن الشرك لا بد أن ينتصر .

ودارت مناقشات حول كيفية تصوير أشخاص ثلاثة فى صورة إلـٰه واحد ، فسلم بما فى ذلك من صعوبة ولكنه قال :

— إن العقل يجب أن يخضع لما فيه الثالوث من غموض .

وانتهت المناقشات بإقرار كفر أريوس ونفيه من الإسكندرية ، وكتبوا العقيدة التى اتفق عليها أهل ذلك المجتمع :

« نؤمن بالله الواحد الأحد الأب مالك كل شيء وصانع ما يرى وما لا يرى ، وبالابن الوحيد يسوع المسيح ابن الله ذكر الخلائق كلها وليس بمصنوع ، إلـٰه حق من جوهر أبيه الذى بيده أتقنت العوالم وكل شيء ، الذى من أجلنا ومن أجل خلاصنا بعث العوالم وكل شيء ، الذى نزل من السماء وتجسد من روح القدس وولد من مريم البتول وصلب أيام بيلاطس ودفن ثم

قام فى اليوم الثالث وصعد إلى السماء وجلس على يمين أبيه ، وهو مستعد للمجىء تارة أخرى للقضاء بين الأحياء والأموات ، وتؤمن بروح الواحد روح الحق الذى يخرج من أبيه وبعمودية واحدة لغفران الخطايا وبجماعة قدسية مسيحية جاثليقية وبقيام أبداننا بالحياة الدائمة أبد الآبدين » .

وأثرت الوثنية فى المسيحية كما أثرت من قبل فى اليهودية ، فقد قال اليهود العزير ابن الله متأثرين بالديانة البابلية أيام المنفى ، وقال المسيحيون المسيح ابن الله متأثرين بما قاله أثناسيوس رئيس شمامسة الإسكندرية ، وكانت أسطورة أزريس وحورس وإيزيس متغلغلة فيه حتى النخاع .

وحرقت أناجيل وأقرت الأناجيل الأربعة وأنشأ قسطنطين بعد سنة واحدة من اجتماع المجلس مدينة جديدة وسط خرائب بيزنطة سماها روما الجديدة وسمتها الأجيال التى أعقبته القسطنطينية واتخذها عاصمة له ، ومرت الأيام ولم يهدأ الجدل الدينى بين طوائف المسيحيين : قالت شيعة إن الزواج من الخطايا ، وقالت شيعة إن جسم المسيح لم يكن لحما ودما بل كان شبحا أو خيالا ، ولم تكن شيعة الثيودوتية ترى فى المسيح أنه أكثر من إنسان ، وكانت طائفتان تعتقدان أن المسيح كان بمولده رجلا عاديا ولكنه وصل إلى درجة الألوهية بكماله الخلقى ، واعتقدت الظاهرية والسابلية بأن الأب والابن والروح القدس ليست أقانيم منفصلة بل هى صورة مختلفة يظهر فيها الله للإنسان ، واعتقد اليعاقبة أن للمسيح طبيعة واحدة ، وانقسمت المسيحية إلى ألف شيعة وشيعة .

وفى عام ٣٣٤ م عقد الإمبراطور قسطنطين مجمعا آخر فى صور ألغى قرارات مجمع نيقية ، وصدر قرار بالعفو غن أريوس وأتباعه وقبول تعاليمه ،

ورفع المسيح من عبد الله ورسوله إلى ابن الله كما رفع اليهود العزيز من قبل ، « وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلـٰها واحدا لا إلـٰه إلا هو سبحانه عما يشركون » .

٨

ارتفعت الشمس وراء جبال مكة وراحت تسكب ضياءها فى الدور والخيام ، وغمرت الوادى المقدس بالنور فقام الناس يستقبلون النهار بعبادة آلهتهم ، فسجد عباد الشمس لأصل نور القمر والكواكب ، وراحوا يبتهلون ويدعون فى إيمان عميق ، وراح عباد الأصنام يتمسحون بها لتقربهم إلى الله زلفى ، واغتسل الصابئون الحنفاء منهم والمشركون وراحوا يصلون لفاطر السموات والأرض الحكيم العزيز .

كان الصابئون الحنفاء يؤمنون بالله وملائكته ورسله ، وكان المشركون منهم يعتقدون أن لا سبيل لهم إلى الوصول إلى جلال الله إلا بالوسائط ، فعليهم أن يتقربوا إليه بتوسطات الروحانيات القريبة منه فهم أربابهم وآلهتهم وشفعاؤهم عند رب الأرباب وإله الآلهة . فما يعبدونهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى ، وعليهم أن يطهروا نفوسهم عن الشهوات الطبيعية ، ويهذبوا أخلاقهم عن علائق القوى الغضبية ، حتى تحصل المناسبة بينهم وبين الروحانيات وتتصل أرواحهم بهم ، فحينئذ يسألون حاجتهم منهم ويعرضون أحوالهم عليهم ويصبون فى جميع أمورهم إليهم ، فيشفعون لهم إلى إلههم وإله شفعائهم .

ويعتقد الصابئون المشركون بأن التطهير والتهذيب يمكن أن يتحقق بالتضرع والابتهالات بالدعوات فى الصلوات والزكوات وذبح القرابين وإحراق البخور ، فحينئذ يحصل لنفوسهم استعداد واستمداد من غير واسطة الرسل بأن يأخذوا من المعدن الذى أخذت منه الرسل ، فيكون حكمهم

وحكم الرسل واحدا وهم وإياهم بمنزلة واحدة ، وقد قالوا : « والأنبياء أمثالنا فى النوع وشركاؤنا فى المادة وأشكالنا فى الصورة يأكلون مما نأكل ويشربون مما نشرب وما هم إلا بشر مثلنا يريدون أن يتفضلوا علينا » .

وفتحت الدور وانحدر الرجال والنساء من عبدة الملائكة وعبدة الجن وعبدة الأصنام والصابئين الحنفاء والمشركين إلى الوادى المقدس ليطوفوا بالكعبة ، فقد كانوا جميعا يؤمنون بأن لهذا الكون ربا ، وأن هذا البيت بيته قد جعله لهم حرما آمنا بينا يتخطف الناس من حولهم . « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » . « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » .

« قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله » .

« قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله » .

وخرج مالك بن النضر زعيم قريش من داره ومن حوله ابنه فهر وبعض الغلمان ، ونظر فتى إلى أعلى وقال فى صوت أقرب إلى الهمس فيه رنة خوف :

— الأعور .

والتفت الرجال إلى حيث نظر الفتى فرأوا غرابا ، وفطنوا إلى أنه كناه مخافة الطيرة فقد كانوا يتشاءمون من الغراب واشتقوا منه الغريب والغربة ، واستشعر فهر فى أعماقه رهبة وإن رفت على شفتيه بسمة باهتة أراد بها أن يطمئن نفسه القلقة ، فقد كان خارجا على رأس عير قريش إلى سوق دومة الجندل .

وطاف مالك وابنه فهر وفتيانه مع الطائفين وهم يبتهلون إلى رب البيت أن يشرح صدورهم وأن يبارك تجارتهم وأن يغنيهم من فضله . وأحس فهر رغبة

فى العطاس ولكنه حبس نفسه من العطاس لأن القوم يتشاءمون منه وراح يبعد وجهه عن عيني أبيه حتى لا يرى فيه أثر القلق الذى استبد به ، فقد استفتح النهار بغراب وألح عليه العطاس وهو يطوف بالبيت الحرام ملتمسا البركة . ترى ماذا يخبئ له القدر فى هذه الرحلة ؟

وانطلق فهر ورجال قريش إلى صنم هبل وكان فى جوف الكعبة ليستثيروه فى أمر السفر ، وقد كان هبل مبجلا عند قريش فإن خزيمة بن مدركة أول من نصبه وكان يقال له هبل خزيمة .

كان هبل من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى ، فلما ازدهرت تجارة قريش جعلوا له يدا من الذهب ، وكان سدنته ذوى نفوذ وسلطان . وقد وضع أمام التمثال سبعة أقداح مكتوب فى أولها صريح والآخر ملصق ، فإذا شكوا فى مولود أهدوا للإلـٰه هدية ثم ضربوا بالقداح فإن خرج « صريح » ألحقوا المولود واعترفوا به ، وإن خرج « ملصق » رفضوا المولود ولم يعترفوا به .

وكان من الأقداح قدحان مكتوب فى أحدهما « سافر » وفى الآخر « لا تسافر » ، فتقدم فهر من الكاهن وقدم للإلـٰه هدية ، فأخذ الكاهن القدحين وكانا على هيئة سهم ووضعهما فى كيس من القماش ، ثم مد يده وأخرج أحدهما فإذا مكتوب فيه « سافر » فتهللت وجوه سادات قريش فقد أمر الإلـٰه بالسفر .

والتقى مالك بأخويه يخلد والصلت ، وقد كان مع يخلد ابنه الحارث ولم يكن مع الصلت أحد من عقبه فإنه لم ينجب ، فخف الحارث إلى ابن عمه فهر وراحا يتناجيان ، وسار القرشيون إلى حيث أناخت عير قريش خارج مكة .

ومر الرجال بشجرة قد حط عليها الطير فزجرها أحدهم فطار ناحية اليمين ، فصاح الرجال فى فرح :

ــ تيامنت .

إنه فأل حسن أن تيامن الطير ، وراح عقل فهر يعمل فقد وقعت عيناه على الغراب أول ما خرج من الدار ، وفاجأه العطاس وهو يطوف بالبيت ، وسرعان ما رضى الإلـٰه عنه فأمره بالسفر وجعل الطير يتيامن ليؤكد له رضاه عنه وعن رحلته ، فاطمأنت نفس فهر لعلامات الرضى والقبول ، وراحت تسدل ستارا على شؤم مطلع النهار .

وبلغ شيوخ قريش وشبابها مكان العير . كان العبيد يقفون إلى جوارها حفاة الأقدام وإن تمنطقوا بالسيوف وجعاب السهام وعلقوا بأكتافهم الأقواس . وراح الفرسان يطوفون حولها على صهوة جيادهم فلما وقعت أعين الناس على سادات قريش خفوا إليهم للترحيب بهم وإلقاء آذانهم إلى أوامرهم وإرشاداتهم .

وتحدث مالك إلى ابنه فهر يوصيه بمن معه ، ثم حان أوان الرحيل فتعانق الرجال . وركب فهر راحلته وأصدر أوامره بالسير فانطلقت العير فى قطار طويل تحمل عز قريش .

وغابت القافلة فى الأفق البعيد فعاد مالك وأخواه ومن معهم من الفتيان إلى الكعبة ، وجلس مالك فى حجر إسماعيل يفكر فى القافلة المنطلقة إلى سوق دومة الجندل ، ويفكر فى تلك الحرب التى اشتدت أوارها بين الفرس والروم ، بين سابور ذى الأكتاف وقسطنطين ، تلك الحرب التى حالت دون انطلاق قوافل قريش إلى أسواق الحيرة وسورية والمناطق الآمنة التى تحولت إلى ميادين

قتال .

إن مالكا يذكر تلك الأيام التى انطلق فيها إلى سابور يلتمس منه رفع مقته عن العرب ، وإنه ليذكر جيدا استجابته له ووعده إياه بأن يكف عن خلع أكتاف من يقع من العرب فى قبضته ، وقد وفى سابور بما وعد ، ولكن مالكا لم يكن يعرف ما انتهت إليه تلك الحرب المشبوبة بين فارس والإمبراطورية الشرقية الرومانية التى أسسها قسطنطين وجعل عاصمتها القسطنطينية . ترى ما الذى يجرى الآن على مسرح الدنيا بين الشرق والغرب ؟

تذرع سابور بالمنازعات الداخلية فى أرمينية ليبدأ الحرب التى أراد بها استرجاع البلاد التى فقدت بهزائم ترسى . واجتاح أرمينية بغير صعوبة ، ثم اصطدم بعد ذلك بالرومان فى الجزيرة وكان قسطنطين قد مات فأشرف خلفه كونستانس الثانى على سير الحرب الرومانية ، وقد ثبتت قلعة نصيبين لهجمات الفرس المتوالية . وظفر الرومان بمعركة سنجار ، ولكن هذا النصر تلته هزائم عديدة ، وبعد ذلك توقفت الحروب على حدود الرومان عدة سنين .

وفى سنة ٣٥٦ وجه موسونياس قائد الحرس الملكى الرومانى إلى المرزبان الفارسى اقتراحا للصلح ، فرفعه هذه إلى الملك سابور وكان قد أمن الحدود الشرقية ، فأرسل سابور سفيرا إلى الإمبراطور كونستانس مع الهدايا ورسالة ملفوفة فى الحرير الأبيض . ودخل السفير على الإمبراطور فى قصره بالقسطنطينية وحياه ، ثم قدم له الرسالة ففضها الإمبراطور وراح يقرأ :

— يحيّى سابور ملك الملوك رفيق النجوم أخو الشمس والقمر أخاه القيصر كونستانس ، وقد أدرك مغتبطا أن الإمبراطور قد أصلح بالتجربة خطأه وعاد إلى الطريق السوى . وقد مد آباؤه (آباء سابور) سلطانهم حتى

نهر ستريمون وإلى حدود مقدونيا ، وأنه هو — كذلك بغير غرور — قد جاوز في الجلال وكثرة الفضائل الملوك الأولين ، وأن عليه أن يستعيد أرمينية وبلاد الجزيرة اللتين أخذتا غصبا من جده ، وأنا لن نجيز الرأى الذى أجزته فى عتوك ، الرأى الذى يرى كل فوز فى الحرب جديرا بالثناء من غير أن يفرق بين نصر يرجع إلى الشجاعة ونصر أساسه الحيلة الخادعة .

وكما أن الأطباء يكوون أو يبترون أعضاء الجسد أحيانا حتى يستطيع استخدام أعضائه الأخرى ، فعلى الإمبراطور أن يتنازل عن جزء صغير من أرضه على هذه الطريقة ، من الجزء الذى كان مصدر القلق وإراقة الدماء حتى يحكم هادئا باقى مملكته . وإذا عاد السفراء الفرس من غير أن يظفروا بشىء ، فإن الملك العظيم سيسير بكل قواه لحرب الإمبراطور بعد استراحة الشتاء .

وطلب كونستانس كاتبه وراح يملى عليه :

— من كونستانس المظفر فى الأرض والبحر والعظيم دائما إلى أخيه الملك سابور . إن جلالتنا يرفض رفضا خالصا مع لوم شديد للملك الجشع الذى يتزايد جشعه على الدوام ما عرضتموه علينا . وإن كان الرومان قد آثروا أحيانا الحرب الدفاعية على الحرب الهجومية فإن هذا الإيثار لم يكن عن خوف ولكنه عن اعتدال ، وإذا كان الرومان قد اضطربوا فى الحرب فى بعض المعارك فإن النتيجة النهائية للحرب لم تكن تدور عليهم .

وبدأ سابور الحرب بالهجوم على قلعة آمد — ديار بكر — واستولى عليها . وبعد سنتين توفى كونستانس فصار جوليان إمبراطورا واحدا على الرومان فقاد بنفسه الجيوش الرومانية ، وتقدمت جيوش الرومان وحلفاؤهم نحو المدائن ، وقد أثار دهشة المسيحيين الرومان أن العشاء الربانى لا يختلف فى

كثير أو قليل عما يعتقده الفرس ، فعباد هوما النور المقدس الذى مات ثم بعث حيا يعتقدون أن شراب هوما المسكر يتحول إلى دم الإلـٰه ، وأن لحم التقدمة يتحول إلى لحم الإلـٰه ، وأن المؤمن يشرب حقيقة لا مجازا دم الإلـٰه ويأكل لحمه ، فيسرى الإلـٰه فى عروقه مسرى الدم . وأن الحال هو نفس الحال مع عباد المسيح ، فخشى الرهبان المسيحيون أن يفتن ذلك المؤمنين فقالوا إن الشيطان قد أغوى الفرس على فعل ذلك ليزيغ المؤمنين عن إيمانهم ، ولم يقولوا إن بولص استعار فكرة العشاء الربانى من الفرس عباد مثرا .

وصد جيش فارس هجوم الرومان ، وقتل جوليان سنة ٣٦٣ فى المعارك التى تلاحقت ، وسحب خلفه جوفيان الجيوش الرومانية إلى ما وراء الحدود .

وكان مالك بن النضر فى مجلسه فى حجر إسماعيل يتطلع إلى الكعبة وهو يفكر فى الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين تتصارعان لبسط سلطانهما على المنطقة ، فطافت بذهنه فكرة : إن فليب العربى قد صار إمبراطورا على الرومان منذ أكثر من مائة سنة ، ترى هل يأتى يوم تكون فيه الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية فى قبضة حاكم عربى ؟

ورفت على شفتى مالك بسمة هادئة فقد أنكرت نفسه ذلك الخاطر ، فأين الجزيرة العربية برمالها القاحلة ورجالها الضاربين فى بيداء الحياة من الدولة الفارسية التى عرفت عراقة الحكم ، ومن الإمبراطورية الرومانية التى أقامت أول دولة عالمية فى الأرض ؟ ولم يدر بخلد مالك أن الدول تشيخ كما يشيخ الرجال ، وأن دينا ساميا قادر على أن يبعث فى أرواح المؤمنين به قوة تزلزل الجبال وأعتى الإمبراطوريات .

ومالت الشمس نحو المغيب خلف جبال مكة فنهض مالك ونهض إخوته

وشيوخ قريش وشبابها وراحوا يطوفون بالبيت قبل أن يعودوا إلى دورهم ، وقد شغل فكر مالك بابنه فهر والقافلة المنطلقة إلى دومة الجندل .

وسقط الليل والقافلة منطلقة فى معبد الله ، حتى إذا بلغ الجهد والكلال من الرجال حطوا الرحال ، وأخرج كاهن القافلة تمثال الإلـٰه ليطوف به القوم قبل أن يستسلموا للرقاد وليتمسحوا به ، ولكن الرعب ارتسم فى وجهه ومزق صوته المرتجف سكون المكان ، نادى قائلا :

ـــ يا أهل الرحال ! إن ربكم قد هلك فالتمسوا ربا .

فخف فهر إليه ونظر فألفى تمثال الإلـٰه قد انفلق فسرى الخوف فى أوصاله ، وسرعان ما تذكر الغراب الذى وقعت عيناه عليه فى الصباح والعطاس الذى فاجأه وهو يطوف بالكعبة ، وخشى إن استسلم لتطيره أن يفسد مزاج نفسه وأن ينتقل منه التشاؤم إلى كل من خرجوا معه ، فالتفت إلى شباب القافلة وقال :

ـــ اركبوا كل صعب وذلول وأتونا بربنا .

وخرج الشباب على رواحلهم ينقبون فى ضوء القمر على حجر يشبه إلـٰههم الذى هلك وذهب كل منهم فى اتجاه ، ووجد أحدهم نفسه فى مفازة وحده فخاف على نفسه من الجن وطوارق الليل ، فعمد إلى وادى ذى شجر فأناخ راحلته فى قاع الوادى وعقلها وخط عليها خطا وهو يقول فى خوف كأنما يخاطب عظيم الوادى ، الجن الذى يبسط عليه سلطانه ! .

ـــ أعوذ بصاحب هذا الوادى .

ثم راح يتلفت وهو مرعوب يبحث عن إلـٰهه أو شبيهه .

وأحس شاب آخر الخوف فراح يتحسس صدره ، فلما وجد أنه قد علق

كعب الأرنب فى عنقه اطمأن قليلا فالجان لاتقرب كعب الأرنب وتتحاشاه بينا تمتطى كعب الثعلب ، وهبط عن راحلته وراح ينقب عن إلٰهه وهو يترقب .

وتصرمت ساعات وأقبل الشباب على القافلة فرحين ، ونادى مناد منهم وهو يكاد يطير من السرور :

ـــ إنا وجدنا ربكم أو شبهه .

فخف إليه الرجال ينظرون وما أسرع أن تهللت الأسارير . كان الحجر الذى عادوا به يشبه تمثال إلٰههم ، فأخذه الكاهن وقد تهلل بالفرح ، ثم غسله ووضعه فراحوا يطوفون به وينحرون عليه الجزور .

وبلغت القافلة سوق دومة الجندل أول يوم من ربيع الأول ، فما إن رآها الأهلون ، حتى قالوا :

ـــ عير قريش .. عير قريش .

ونزلت القافلة فى مكانها بين سائر قوافل العرب ، وجاء صاحب دومة الجندل وافتتح السوق وراح يراعى الناس ويقوم بأمرهم . وبدأ البيع والشراء والأخذ والعطاء ، وقد عرفت المبايعة فى هذا السوق ببيع الحصاة ، وارتفع الصخب قال بائع :

ـــ ارم هذه الحصاة فعلى أى ثوب وقع فهو لك بدرهم .

وقال آخر لمن جاءه يشترى منه أرضا :

ـــ أبيعك من أرضى ما انتهت إليه رمية الحصاة بكذا دينار .

وباع آخر سلعة وقال للمشترى وهو يقبض من الحصاة قبضة :

ـــ لى بكل حصاة درهم .

واعترض رجل قطيعا من الغنم وقال لصاحبه بعد أن أخذ حصاة :

ـــ أى شاة أصابتها الحصاة فهى لى بكذا .

واستمر أكل الأموال بالباطل وانتعش البيع والشراء ، ففى الناس ميل للحظ والقمار . ومرت الأيام حتى إذا ما أتم السوق أجله عادت قافلة قريش بالخيرات وبعملة سابور ذى الأكتاف وقسطنطين على السواء ، فقد ورد السوق العباديون عرب الفرس والغساسنة عرب الروم ، وقد شهدت الليالى أعنف المناظرات بين مسيحيى الشرق ومسيحيى الغرب .

قال بعضهم برسالة المسيح ، وزعم بعضهم الآخر أن المسيح ابن الله ، وهو من أب قديم كان اتصاله بمريم تجسد كلمة منه مازجت جسد المسيح وتدرعت به ، فكان مجموع الكلمة والجسد ابنا ، وهو ناسوت كلى قديم أزلى ، وولدت مريم إلـٰها أزليا . « وقال اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون » .

﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلـٰهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق . إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

٩

كانت الصداقة متينة بين قسطنطين وعيزان نجاشي الحبشة ، وكان النجاشي يلقب فى ذلك الوقت بملك أكسوم وحمير وذو ريدان والحبشة وسبأ وسلح وتهامة والبجاء ملك الملوك . وقد جاء المبشرون المسيحيون من الدولة الرومانية الشرقية ليدعوا الناس فى الحبشة لاعتناق دين المسيح ، ومنها دخلوا أرض اليمن فقد احتلت الحبشة اليمن ردا على الغزو الذى قام به « ملوك سبأ وذى ريدان » من قبل على السواحل الإفريقية وعلى الأرضين التابعة لمملكة أكسوم .

كان ريدان قصر ملوك حمير فى ظفار ، وقد انطلق منه السبئيون قبل الميلاد واحتلوا القسم الأكبر من أرض الحبشة والسواحل الإفريقية المقابلة لبلاد العرب . وقد هب الأحباش لطرد العرب وقد ظفروا بذلك وأسسوا مملكتين هما مملكة أدولس ومملكة أكسوم ، وسرعان ما انتزعت أكسوم السلطة من منافستها فصار لها الحكومة والملك .

ولم تكتف حكومة أكسوم بانتزاع الحكم من السبئيين بل راحت تقتفى أثرهم حتى استولت الحبشة على اليمن ، وتربع على عرش بلقيس عيزان نجاشي الحبشة . ولكنه لم يعرف الاستقرار طويلا فقد ثار أهل « بجة » و« كسو » والشعوب الإفريقية التى خضعت لحكم « أكسوم » والساكنة فى جنوب الحبشة فانتهز اليمانيون هذه الفرصة المواتية فطردوا الأحباش عن ديارهم .

وملك اليمن كرب يهامن وقام هو وابناه أبو كرب أسعد ورا أمر أيمن ببناء معبد لرب السماء ، فقد أثرت المسيحية فى دين القوم فأعرض الملوك عن

آلهتهم القديمة فلم يعودوا يعبدون المقة وذات حميم ، القمر والشمس ، بل صاروا يعبدون رب السماء « ذو سموى » فراحت اليمن تسير نحو التوحيد فقد خطت خطوة نحو تصفية الحساب مع العقيدة الوثنية القديمة التى تعترف بآلهة عديدة مع الآلهة المحلية ، وآمنت بإله واحد أعلى قاهر هو رب السموات .

وتعاقب التبابعة على ملك اليمن كما تعاقب القياصرة على ملك الروم ، وصار ربيعة بن نصر ملك اليمن وكان حاكما غنيا تأتيه الخيرات من أطراف مملكته ، « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور » .

وذات ليلة رأى ربيعة بن نصر رؤيا هالته وفظع بها ، فبعث إلى كهان مملكته والسحرة والمنجمين وقال لهم :

ـــ إنى رأيت رؤيا هالتنى وفزعت لها ، فأخبرونى بها وبتأويلها .

فالتفت الكهان والسحرة والمنجمون بعضهم إلى بعض فى دهش فما يطلبه الملك فوق إدراكهم ، فكيف يخبرونه بتأويل رؤيا لم يقصصها عليهم ؟ وقال قائل منهم :

ـــ اقصصها علينا نخبرك بتأويلها .

فراح الملك يقلب وجهه فيهم ثم قال :

ـــ إنى لو أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ، فإنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها من قبل أن أخبره بها .

فقال له رجل منهم :

ـــ فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سطيح وشق ، فإنه ليس أحد أعلم منهما فهما يخبرانه بما سأل عنه .

فبعث إليهما ، فقدم عليه سطيح قبل شق فقال له :

ـــ إنى رأيت رؤيا هالتنى وأفزعتنى فأخبرنى بها ، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها .

قال :

ـــ أفعل . رأيت حمُمَة (فحمة فيها نار) ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بأرض تَهمة ، فأكلت منها ذات جمجمة[1] .

فقال له الملك :

ـــ ما أخطأت منها شيئا يا سطيح ، فما عندك فى تأويلها ؟

فقال :

ـــ أحلف ما بين الحرتين من حنش ، لتهبطن أرضكم الحبش ، فليملكن ما بين أبين (موضع فى جبل عدن) إلى جرش .

فقال له الملك :

ـــ وأبيك يا سطيح إن هذا لنا لغائظ موجع ، فمتى هو كائن ؟ أفى زمانى هذا أو بعده ؟

قال :

ـــ لا بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين ، يمضين من السنين .

قال :

ـــ أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟

---

(١) هذه من أساطير العرب ، والتأليف فيها واضح ، وقد ذكرتها لإعطاء صورة عن تفكير مؤرخى الجاهلية وصدر الإسلام .

قال :

ـــ لا بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ، ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين .

قال :

ـــ ومن يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟

ـــ يليه سيف بن ذى يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك أحدا منهم باليمن .

ـــ أفيدوم ذلك من سلطانهم أو ينقطع ؟

ـــ لا بل ينقطع .

ـــ ومن يقطعه ؟

ـــ نبى ذكى ، يأتيه الوحى من قبل العلى .

ـــ ومن هذا النبى ؟

ـــ رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر .

ـــ وهل للدهر من آخر ؟

ـــ نعم . يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون .

ـــ أحق ما تخبرنى ؟

ـــ نعم ، والشفق والغسق ، والفلق إذا اتسق ، إن ما أنبأتك به لحق .

وقام سطيح وقدم على الملك شق ، فقال له الملك :

ـــ إنى رأيت رؤيا هالتنى وفظعت بها فأخبرنى بها ، فإنك إن أصبتها

أصبت تأويلها .

وكتمه ما قال سطيح لينظر أيتفقان أم يختلفان ، فقال :

ــ رأيت حممه ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بين روضة وأكمه ، فأكلت منها كل ذات قسمة .

وعرف الملك أنهما قد اتفقا وأن قولهما واحد ، فقال له الملك :

ــ ما أخطأت يا شق منها شيئا ، فما عندك فى تأويلها ؟.

قال :

ــ أحلف ما بين الحرتين من إنسان ، لينزلن أرضكم السودان ، فليغلبن على كل طَفْلَةِ (الناعمة الرخصة) البنان ، وليملكن ما بين أبين إلى نجران .

فقال له الملك :

ــ وأبيك يا شق إن هذا لنا لغائظ موجع ، فمتى هو كائن ؟ أفى زمانى أم بعده ؟

قال :

ــ لا بل بعده بزمان ، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شأن ، ويذيقهم أشد الهوان .

ــ ومن هذا العظيم الشأن ؟

غلام ليس بِدنىٌّ ولا مُدن (المقصر فى الأمور) ، يخرج عليهم فى بيت ذى يزن ، فلا يترك أحدا منهم باليمن .

ــ أيدوم سلطانه أم ينقطع ؟

ــ بل ينقطع برسول مرسل ، يأتى بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك فى قومه إلى يوم الفصل .

— وما يوم الفصل ؟

— يوم تجزى فيه الولاة ، ويدعى فيه من السماء بدعوات ، يسمع منها الأحياء والأموات ، ويجمع بين الناس للميقات ، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات .

— أحق ما تقول ؟

— إى ورب السموات والأرض وما بينهما من رفع وخفض ما أنبأتك به لحق ما فيه أمض (باطل) .

فأهم ربيعة بن نصر ما قالا وفكر فى أمره ، وظل حلمه يؤرقه فلم يجد خيرا من الخروج فجهز بنيه وأهل بيته وانطلق إلى الحيرة ، ليستولى أبناؤه على مقاليدها ويؤسسوا بها ملك آل نصر .

١٠

أشرك ورثة النفحة الروحية والبيت العتيق بالله فصار لكل قبيلة من قبائل المكيين إلٰه تطوف به وتتقرب إلى رب الناس والكون ، فاتخذت قريش العزى واتخذت خزيمة هبل واتخذت هزيل بن مدركة بن إلياس سواعا . وتكدست الأصنام فى جوف الكعبة وحولها فتدنست منارة التوحيد التى أقام قواعدها إبراهيم الخليل وإسماعيل ، لتكون أول بيت وضع للناس مباركا يشهد أن لا إلٰه إلا الله .

فسد الدين فى مكة ولكن الناس ظلوا يتعلقون بالسماء ، فإن الإنسان يعجز أن يعيش بالخبز وحده ولا بد من مطمع روحى وملاذ يلوذ به فى الملمات ، فنصب المكيون الأصنام والأوثان وتمسحوا بها لتقربهم إلى الله زلفى ، وتعصبوا لها وراحوا ينسجون حولها الأساطير ويملأون الفراغ الروحى بالأوهام .

كان المكيون يغتسلون ويتطهرون ويتقربون إلى آلهتهم بالقرابين ويحجون إلى بيت الله ويسوقون إليه الهدى ، فسرت فيهم قوى روحية ولكنها كانت على نظم وثنية متزمتة ، فلم يومض الفيض الروحى فى نفوس المؤمنين ذلك الوميض الذى يدفعهم إلى غايات عليا ، غايات تقودهم إلى تحقيق انتصار الحياة على المادة والانطلاق فى طريق تقدم البشرية .

وعقمت مكة على أن تلد الشخصيات المبدعة . القادرة على حمل رفاقها فى طريق تقدمها ، وكثر فيها العرافون والمنجمون ورجال الدين الذين يتاجرون ببركات الآلهة ، وبدا أن الضعف صار كامنا أصيلا فيها وأن حضارتها المنهارة لم

تواجه الموت على يد قاتل وأنها ليست ضحية العنف ، بل إنها تنتحر بيد أبنائها الذين استكانوا للخرافات والأوهام ، وأن ذلك الانتحار هو علة انهيارها .

وكانت ولاية البيت لخزاعة أبناء عمرو بن لحى الذى جلب الأصنام إلى مكة من أرض النبط وثمود وممالك سورية وبابل ومصر ، وشجع الذين فى قلوبهم مرض على جلب الأصنام من البلاد التى كانوا يشدون الرحال إليها .

وكان فهر بن مالك زعيم الناس يفزعون إليه ليحكم بينهم ويشير عليهم ويدلهم على ما يعود عليهم بأوفر الأرباح ، فقد جاب منذ نعومة أظفاره أسواق العرب والفرس والروم .

كانت قافلة مكة تنتظر أن يأذن لها شيوخ قريش بالرحيل إلى يثرب ، وكان فى قلوب شباب القافلة وشيوخها الماجنين شوق إلى صاحبات الرايات الحمر بغايا يثرب اللاتى يهرع إليهن طلاب اللذة المحرمة من كل فج عميق من أرض العرب .

وأقبل فهر بن مالك وأخواه يخلد والصلت ، وقد صار فهر شيخا مسنا يحوط به أبناؤه غالب ومحارب والحارث وأسد ، وكان حول يخلد أبناؤه وحفدته ، أما مالك فقد كان يمشى فردا فإنه لم يعقب وإن كان يرى بطاح مكة وأوديتها قد غطيت بأبناء قريش وحفدة قريش .

كان على رأس القافلة بدر بن يخلد بن الحارث بن يخلد بن النضر ، وكان فيها لؤى بن غالب بن فهر ، وتيم بن غالب وقيس بن غالب وزهرة قريش ، فذهب فهر إلى بدر يزجى إليه نصائحه ، والتفت لؤى وتيم وقيس بأبيهم غالب يودعونه قبل الرحيل .

وانطلقت عير قريش فى قطار طويل ، وخرجت مكة كلها تودع أبناءها ،

ووقف الخزاعيون ينظرون فامتلأت أفئدتهم بالخوف ، فولاية البيت لهم وهم أصحاب السلطة فى الوادى المقدس ولكن قريشا تزداد عددا وغنى وشرفا ومنعة . وإن قبيلة هذا حالها لا بد أن تشرئب بعنقها وتطمع فى ولاية البيت لتجمع بين شرف الدنيا والدين .

كانت خزاعة توجس خيفة من قريش ، وزادت الريب لما هجر بعض القرشيين التجارة وعكفوا بالحرم يتفقهون فى أمر الدين ويشتركون فى المناقشات التى كانت تدور حول الآلهة ومفهوم الذات والشفاعة والتقرب إلى الله . ولكن قريشا لم يكشفوا عن رغبتهم فى المنافسة على الزعامة الدينية وولاية البيت ، فلم تشأ خزاعة أن تثير زوابع لم يأت الأوان لإثارتها ، وإن بدا لكل ذى عينين أن خزاعة هى الشمس الغاربة وأن شمس قريش أوشكت على البزوغ .

وانطلقت عير قريش فى محاذاة شاطئ البحر الأحمر ، كان الجو حارا فكانت القافلة تسير بالليل وتحط رحالها بالنهار هربا من لفح الشمس وظمأ الرجال والإبل ، ولكن الحر كان شديدا فكثر الطلب على الماء ، وكان بدر سيد القافلة يشرف على توزيع الماء بنفسه .

وتقضت أيام وليال ونزلت القافلة منزلا قريبا من يثرب وقد أشرف الماء على النفاد ، فراح بدر يفكر فلم يجد مفرا من أن يحفر بئرا تسقى القوافل الرائحة الغادية بين مكة والمدينة ، فبينه وبين المدينة مسيرة أيام .

وراح بدر ورجال القافلة يحفرون وقد تصبب منهم العرق وبلغ منهم الجهد . وتدلى الرجال فى الحفرة وظلوا يعملون يداعبهم أمل ويستبد بهم يأس وإذا الماء ينبثق من تحت أرجلهم ، فارتفعت أصوات الفرح تتجاوب فى أرجاء

الصحراء :

ـــ ماء بدر .. ماء بدر .

وراح الرجال يغرفون الماء بأيديهم ويشربون فرحين ، وابترد لؤى بن غالب وتهلل بالفرح لما رأى ماء بدر يسيل . ولو اخترق ببصره حجب الغيب وتلفت فى المكان لوقعت عيناه على أول معركة حاسمة بين حفيده رسول الله وأنصاره وبين الذين طمس الله على قلوبهم من أشراف مكة ، ولو أصاخ سمعه لسرى فى وجدانه قرآن كريم يصف حال المؤمنين : ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم إنى مُمِدكم بألف من الملائكة مردفين .. وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم . إذ يُغَشِّيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كان بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾ .

واستأنفت القافلة رحلتها ودخلت يثرب ، فصاح الناس :

ـــ عير قريش .. عير قريش .

ونزلت القافلة فى مكانها من السوق فهرع الشباب إلى صاحبات الرايات الحمر ، وانتشر الرجال فى سوق بنى قينقاع وكانوا من اليهود الذين اشتهروا

بالصياغة وإقراض الأموال بربا فاحش ، وراحوا يشترون لنسائهم بعض الحلى أو يدفعون بعض ما اقترضوه وما استحق من الربا .

وذهب بعض رجال القافلة إلى حوانيت الحدادة واشتروا من اليهود بعض الدروع والسيوف ، وأصغوا إلى أحاديثهم الخلابة التى تروى قصص دروع داود وسيوفه البتارة .

ونشط البيع والشراء وباع القرشيون ما يحملون من طيب وفضة واشتروا ما يحتاجون إليه من حبوب . وراحوا ينظرون إلى اليهود الذين يشتغلون فى الزراعة بازدراء فقد كانت الزراعة من الصناعات المبتذلة فى نظر الأعراب .

وتقضت أيام السوق فعادت قافلة قريش إلى مكة ، وما إن بلغتها حتى ألفت الرجال والشيوخ فى عدة القتال ، قريش وقبائل كنانة وخزيمة وأسد وجذام ومضر ، ورئيس الناس فهر بن مالك الشيخ الجليل الذى كان يغدو ويروح فى نشاط الشباب .

وهرع بدر ولؤى بن غالب وتيم وقيس إلى جدهما فهر يسألون عن الخبر ، فقيل لهم إن حسان بن عبد كلال بن مثوب ذى حُرَث الحميرى قد أقبل من اليمن مع حمير وقبائل من اليمن عظيمة يريد أن ينقل أحجار الكعبة من مكة إلى اليمن ليجعل حج الناس عنده ببلاده .

ودخل لؤى وتيم وقيس على أمهم عاتكة بنت يخلد بن النضر بن كنانة حفيدة قريش ، فضمتهم إلى صدرها ونفضت عنهم غبار السفر ، ثم قلدتهم سيوفهم ليخرجوا مع الرجال ليدافعوا عن بيت الله أو يهلكوا دونه .

وطاف الرجال بالحرم وابتهلوا إلى رب البيت أن ينصرهم على من جاء يريد أن ينقل أحجار بيته إلى اليمن ، انتشرت فى المكيين روح قوية قضت على

عدوى النوم التى سرت إليهم من الخمول الذى ران على مكة وامتلأوا بعزيمة قوية استجابة لذلك التحدى الذى يهدد عزهم ومعقد آمالهم بالخطر .

كان حسان بن عبد كلال قد نزل بنخلة فأغار على سرح الناس ومنع الطريق، ولكنه هاب أن يدخل مكة فقد أوقع الله فى قلبه الرعب وجعل نفسه تذهب شعاعا كلما هم بأن يتقدم ليقوض الكعبة .

ورأى فهر إحجام حسان عن شن الهجوم على الوادى المقدس فأمر رجاله أن يسيروا إليه ليقاتلوه خارج مكة ، فخرج غالب وأبناؤه ويخلد وأبناؤه وسادات قريش وأبناؤهم وقبائل كنانة وخزيمة ومضر وكل قبائل العدنانيين النازلين فى رحاب الحرم وهم يتصايحون صيحات الحرب ، فزلزلت جبال مكة .

والتقى الجمعان ودار القتال ، وراح لؤى وتيم وأسد أبناء غالب يقاتلون قتال الليوث الكواسر ، وخاض الشيخ فهر غمار القتال ، ومشى غالب ومحارب وبدر بن يخلد إلى الأعداء مشى الوعول ، وسالت الدماء وارتفعت صيحات الفزع وهوت الأجساد إلى الأرض تتلوى ثم تسكن إلى الأبد ، وانبهرت الأنفاس وبلغت القلوب الحناجر وراح فهر يحرض رجاله على الثبات ويقول لهم :

ـــ هذا يوم له ما بعده . هذا يوم ينفع الصابرين صبرهم .

وكثر القتال فى الحميرين ولاح أن نصر المكيين قريب ، فسرت الحماسة فى صدر قيس بن غالب فاندفع فى صفوف أعدائه دون حذر ، فانقض عليه رجل من اليمن فقتله .

وسقط قيس حفيد فهر زعيم الناس قتيلا فلم يفت ذلك فى عضد المكيين

بل أجج نار الغضب فى صدورهم فراحوا يضربون فوق الأعناق ، وألقى الله فى قلوب الحميرين الرعب فأطلقوا سيقانهم للريح وتركوا حسان بن عبد كلال ملكهم فى الميدان ليقع أسيرا فى أيدى أهل مكة .

ودخل حسان مكة مكبلا بالأغلال مجللا بالخزى والعار ، وطاف فهر وأبناؤه وحفدته وسادات قريش وكنانة وخزيمة وأسد وجذام ومضر بالبيت العتيق وقد انهمرت الدموع من العيون شكرا لرب البيت الذى نصرهم على عدوه وعدوهم .

ومرت ثلاث سنين وحسان أسير فى مكة ينظر إلى بيت الله الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا ، ويرقب ذلك الطواف الذى لا ينقطع آناء الليل وأطراف النهار فيستشعر تقاصرا ورغبة فى الفرار من العذاب الذى يتجرع غصصه فى كل آن .

وفاوض المكيين على أن يفتدى منهم نفسه ويشترى حريته بالمال فقبلوا، وجاءت الأموال من اليمن وأطلق سراح حسان وخرج من مكة وصار طليقا فى الفضاء ، ولكنه لم يحس بالحرية فقد كان أسير نفسه التى كانت تلهبه بسوط عذاب .

وراح يغذ السير ليفر من الأشباح التى خيل إليه أنها تطارده ولكنه لم يفلح ، فقد كانت الأشباح تنطلق من أعماق أعماقه . وأحس رهقا وتفصد العرق منه وضاق نفسه فهبط عن راحلته وتمدد ليستريح ففاضت روحه وهو بين مكة واليمن ، ومات حسان بن عبد كلال من جاء فى جيوشه يريد أن ينقل

أحجار الكعبة وبقى البيت الحرام آمنا وإن تكدست الأصنام فى جوفه ، ينتظر ذلك اليوم المبارك الذى يجىء فيه الحق ويزهق فيه الباطل ويطهر من الأوثان تطهيرا . « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

١١

مات سابور ذو الأكتاف فكان موته فاتحة عهد تنازع فيه السلطة الملك وأشراف الدولة ، وعادت الأرستقراطية العليا وقد وجدت فى رجال الدين حلفاء لها ، ودارت معركة حامية بين ملوك فارس ورجال الدين ، فملوك فارس كانوا يطلقون على أنفسهم عباد مزدا ولكنهم فى الوقت نفسه يلقبون أنفسهم بالإلـٰه أو ابن الآلهة ، فكان رجال الدين يجدون فى ذلك منفذا لطعن الملوك الساسانيين وتوطيد سلطانهم .

وكان رجال الدين الزردشتيون شديدى التعصب ولكن مثار تعصبهم كان لأسباب سياسية خاصة ، ولم يكن الدين الزردشتى الذى تطور على أيدى المجوس دين دعاية ، فلم يكن رؤساؤه مملوئين بالحماسة لبث سعادة الأرواح فى العالمين ولكنهم ادعوا السيادة المطلقة فى داخل حدود الدولة ، وكانوا لا يطمئنون كثيرا إلى من يدينون بدين آخر وخاصة إذا انتموا إلى دين دولة أجنبية قوية .

لم تكن الجماعات اليهودية فى بابل تهدد سلطة رجال الدين الزردشتيين أو كيان الدولة الفارسية ، ولكن حال النصارى كان مختلفا فقد كان للجالية النصرانية مركز كبير فى الرها وكانوا يدينون بدين روما عدوة فارس اللدود .

وفى أوائل القرن الرابع حاول بابابر العكاوى أسقف سلوقية المدائن أن يجمع كل الجماعات النصرانية الفارسية تحت إدارة مركز روحانى واحد فى المدائن فأثار ذلك نزاعا انتهى بخلع بابابر ، خلعه مجمع مسيحى فقد سن قسطنطين مبدأ المجامع المسيحية للبت فى شئون الدين ، ففى مؤتمر نيقية تقرر

أن المسيح إله ، وما انقضت عليه سنوات حتى عاد قسطنطين وعقد مؤتمرا آخر فى صور صدرت فيه قرارات تلغى قرارات مجمع نيقية التى لم ينقض عليها أكثر من عشر سنوات ، فقد صدر فى ذلك المجمع قرار بالعفو عن آريوس ، وأتباعه وبقبول تعليمه « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار » .

وراح بين أبطال الديانة المسيحية الشرقية الغرور والحسد والخسة وبيع الأشياء المقدسة وشراؤها ، ودأبوا على هذا حتى فى أثناء اضطهاد سابور ذى الأكتاف لهم ، وخليفته أردشير الثانى ، الذى يمقت النصارى كسلفه الذى أقام لهم المذابح وأسال دماءهم أنهارا .

وتغير الحال فى أيام سابور الثالث وبهرام الرابع فقد سار على سياسة التقارب فى علاقاتهم بالإمبراطورية الرومانية . ولما تولى يزدجرد الملك تم السلام بين الإمبراطوريتين الكبيرتين ، ورأى الملك ضرورة وضع حد للنزاع بين الدولة ورعاياها النصارى ليعيشوا هادئين .

وبعثت الإمبراطورية الرومانية الشرقية وفدا برئاسة الأسقف ماروثا إلى الملك يزدجرد ، فترك ماروثا أثرا حسنا فى نفس الملك فأولاه ثقته وأصدر أمرا بإعادة بناء الكنائس المخربة وإطلاق سراح المسجونين بسبب عقيدتهم من النصارى ، وسمح لرجال الدين المسيحى بالتجول فى كل مكان بالدولة ، فحنق عليه رجال الدين المجوسى وأطلقوا عليه يزدجرد الآثم والأثيم والخادع .

وحث ماروثا الملك على عقد مجمع للأساقفة فى سلوقية للنظر فى أمور فارس وتوحيد الكنيسة المسيحية . وفى عام ٤١٠ م عقد ذلك المجمع تحت

رئاسة إسحاق أسقف سلوقية ـــ المدائن وماروثا الموفد من قبل قيصر . وقد كان ثمرة ذلك المجمع اتفاق الكنيسة الشرقية ومذهبها مع القواعد المعمول بها فى الغرب ، واعتمدت فيه عقيدة نيسكة الملاك الذى صار إلـٰه الحرب !

وأمر يزدجرد إسحاق وماروثا أن يجمعا الأساقفة فى بلاطه وأن يتحدثا إليهم باسمه مؤكدين من جديد حرية الديانة للمسيحيين وحق تشييد الكنائس ، ومعلنين أن من يعارض أوامر الجاثليق (المطران الكبير) إسحاق وماروثا يعاقب أشد عقاب .

ومرت سنوات وبعث يزدجرد إلى القسطنطينية « يهب الله » الخليفة الثانى لإسحاق لإتمام الصلح بين الإمبراطوريتين ، وقد عاد بكثير من الهدايا التى استعان بها على ترميم كنيسة سلوقية ـــ المدائن وبناء كنيسة جديدة .

كان التسامح فى أمر الدين ظاهرة طبيعية فى خلق يزدجرد ، فإنه أطلق للمسيحيين حرية العبادة وتسامح مع اليهود الذين لم يكن لهم شأن سياسى وتزوج من شوسين اليهودية ابنة رأس الجالوت .

وفى أواخر حكم يزدجرد اشتد ساعد النصارى وزادوا عتوا وتحدوا الرأى العام ، فقد اجترأ هاشو أحد القساوسة أن يهدم بإذن من الأسقف عَبْدا بيت نار قريب من الكنيسة النصرانية بمدينة هرمزد أردشير بخورستان ، فأمر يزدجرد بالقبض على القسيس والأسقف ، وسأل الملك عَبْدا فنفى كل اتفاق بينه وبين هاشوا ولكن هاشوا اعترف أنه هو الذى خرب بيت النار ، ثم فاه بألفاظ عدائية فيها إساءة إلى الدين الزردشتى دين الدولة الرسمى .

وأمر الملك عَبْدا بإعادة بناء المعبد ولكن عبدا رفض ذلك الأمر بإصرار وظل على عناده حتى حكم عليه وقتل ، وتعكر صفو الصفاء الذى كان بين

يزدجرد والمسيحيين وعاد الاضطهاد ، ونزل بالنصارى صنوف ألوان العذاب .

وكان يزدجرد لا يبقى له ولد فسأل عن منزل برىء صحى خال من الأدواء والأسقام فدل على ظهر الحيرة ، فدفع ابنه بهرام جور إلى النعمان بن امرىء القيس وأمره ببناء الخورنق مسكنا له ، وأمره بإخراجه إلى بوادى العرب .

وجاء النعمان بسنمار وهو بنّاء رومى وكلفه ببناء القصر ، فلما انتهى منه وكمل تعجب من حسنه وإتقان عمله ، وبدلا من أن يوفيه النعمان وفاء حسنا أمر به فطرح من رأس الخورنق .

وسكن بهرام جدر الخورنق وراح يرشف من معين العرب ويرقب النعمان ويتأثر به ، وقد كان النعمان رجلا حازما قويا محاربا من أشد الناس نكاية فى عدوه ، غزا عرب الشام مرارا كثيرة فسبى منهم وغنم وكان يغزو بكتيبتين كانتا عنده : دوسر وأهلها تنوخ والشهباء وأهلها الفرس ، يغزو بهما من لا يدين له من العرب .

وكان وجوه العرب يفدون عند رأس كل سنة فى أيام الربيع إلى النعمان ويمكثون شهرا ، وقد صير لهم أكلا عنده فعرفوا بذوى الآكال ، وكانوا يأخذون المرباع وهو ربع الغنيمة فى الحرب والغزو .

وعلا ذكر النعمان بن امرىء القيس ، وفى ذات يوم من أيام الربيع جلس فى قصره الخورنق فأشرف منه على النجف وما يليه من البساتين والنخل والجنان والأنهار فتهلل بالبشر ، فقد كان المشهد يلذ الأعين ، ويشرح الصدور ويملأ النفوس بهجة . فالتفت النعمان إلى وزيره وقد أعجبه ما رأى من الخضرة

والنور والماء وقال :

ـــ هل رأيت مثل هذا المنظر ؟

فقال الوزير :

ـــ لا ، لو كان يدوم .

فالتفت النعمان فى دهش وقال :

ـــ فما الذى يدوم ؟

قال الوزير فى إيمان :

ـــ ما عند الله فى الآخرة .

وأحس النعمان كلام الوزير ينفذ إلى شغاف قلبه فقال فى اهتمام :

ـــ فبم ينال ذلك ؟

ـــ بترك الدنيا وعبادة الله والتماس ما عنده .

وشغل النعمان بالحديث الذى دار بينه وبين وزيره فأصبح يزدرى كل ما فى قصره من جوارى وتحف ورياش ، ودخل لينام فأصابه الأرق ولم يعرف النوم طريقا إلى جفنيه وراحت تلح عليه فكرة ترك الدنيا وزخرفها ، ولم يستطع الفكاك من أسر ما ألقى وزيره فى روعة فترك ملكه من ليلته ولبس المسوح مستخفيا هاربا لا يعلم به . وأصبح الناس فحضروا بابه فلم يؤذن لهم عليه ، فلما أبطأ الإذن سألوا عنه فلم يجدوه !

لقد ساح الملك فى الأرض وعرف بالسائح !!

وولى ملك الحيرة المنذر بن النعمان فعكف على تربية بهرام ، فلم يتأدب بأدب العجم وإنما تخلق بآداب العرب . فقد أحضر له المنذر مؤدبين فعلموه الكتابة والرمى ، ثم أحضر له معلمى الفروسية فتعلم الرماية والصيد وركوب

الخيل حتى صار من أحسن الناس أدبا وأمهرهم فروسية .

ومات يزدجرد وقد ترك ثلاثة أبناء من بعده : سابور وبهرام ونرسى . وكان يزدجرد قد أقام سابور ملكا على قسم أرمينية الخاضع لفارس ، وكان بهرام يقيم عند ملك الحيرة العربى المنذر بن النعمان ، وكان نرسى ابنه الثالث من السيدة اليهودية قاصرا .

كان بهرام لم يتجاوز العشرين من عمره ، وأراد الأشراف ورجال الدين وقد تخلصوا من ملك غير موفق انتهاز هذه الفرصة لكى يوطدوا جاههم فتألفت جماعة من الأشراف لكى يبعدوا أبناء يزدجرد جميعا عن وراثة العرش . وأحس سابور بن يزدجرد بالخطر فسارع إلى المدائن ليضمن العرش ، ولكن عظماء الدولة قتلوه ونصبوا أميرا اسمه كسرى ملكا عليهم وكان من فرع بعيد من الأسرة الساسانية .

ولم يشأ بهرام أن يستسلم للأمر الواقع أو أن يقبل الهزيمة بغير نزاع ، ففزع إلى ربيبه المنذر بن النعمان من حباه أبوه يزدجرد بمرتبتين سنيتين « رام أفزود يزدجرد (الذى زاد سرور يزدجرد) ومهيشت (أعظم الخول) » فكان المنذر عند حسن ظنه فبعث إليه قوة بقيادة ابنه النعمان وسار هو على رأس قوة قوامها ثلاثون ألفا من فرسان العرب .

وسار بهرام فى جيش المنذر ، وتقدمت جيوش العرب فارتاع العظماء وأهل البيوتات فبدءوا يفاوضون المنذر وبهرام ، وانتهى الأمر بأن عزل كسرى وولى بهرام عرش فارس .

كانت وصمة فى جبين فارس أن جيشا عربيا صغيرا زحف إلى المدائن وفرض إرادته ، فأراد الناس أن يخففوا من تلك الصدمة فابتدعوا أسطورة

تقول إن اختيار الملك يتوقف على نوع من حكم الله : فإن من يتناول التاج والزينة من الطامعين فى الملك من بين أسدين ضاريين فهو الملك . وقد رفض كسرى أن يدخل حيث الأسدان فتقدم بهرام وقتل الأسدين ثم تناول التاج والزينة ، فهتف به جميع الحاضرين وكان كسرى أول من هتف .

حفظت الأسطورة ماء وجه أشراف فارس الذين خروا ساجدين تحت أقدام جيش عربى صغير وأجبروا على قبول ملك كانوا عنه معرضين .

وكان بهرام مطبوعا على الجلد والنشاط فدعا الناس إلى التمتع بالحياة ، وكان يقول الشعر بالعربية ويتكلم بسائر اللغات ، وكان محبا للموسيقى فسوى بين الطبقتين من الندماء والمغنين ورفع من أطربه وإن كان من أوضع الدرجات إلى الدرجة الأولى .

وأحضر من الهند جماعة من اللور أجداد الغجر حتى لا يحرم سواد الشعب من الاستمتاع بالموسيقى . ولما كان فارسا وملكا وسيما فقد راحت تنسج حوله الأساطير ، قيل إنه ركب فرسا مردفا وراءه قينة له ، وقد أرادت القينة فى خبث أن تعرف أيستطيع الملك بسهمه أن يشبه ذكران الوحش بالإناث وإناثها بالذكران ؟

فرمى تيسا من الظباء بنشابة ذات شعبتين فاقتلع قرنيه ، ورمى عنزا منها بنشابتين فأثبتهما فى موضع القرنين . وسجل الفنانون الإيرانيون تلك الحادثة على الكئوس والسجاجيد ، وأوحت بتصاوير على تتابع القرون للسجاجيد والمنسوجات .

ورويت عنه قصة أنه انتظم بضربة سهم واحدة حمارا وأسدا كان يعلو ظهره فلقب بَكَور (حمار وحشى) ، وصار بهرام الخامس بهرام جور .

ولم يكد يعتلى بهرام عرش أجداده حتى عاد اضطهاد نصارى فارس ، فراح النصارى المقيمون فى البلاد المجاورة للعرب يفرون زرافات إلى الأراضى البيزنطية ، فقد حرض الفرس العرب على التنكيل بالمسيحيين واضطهادهم .

وفر بعض كبار موظفى فارس إلى بيزنطة ، فطالب بهرام بيزنطة بتسليم اللاجئين فرفضت ، فاندلعت الحرب بين فارس وبيزنطة ، واشترك المنذر بن النعمان فى هذه الحرب واختار بلاد الشام ساحة لهجومه ليخفف ضغط الروم على ربيبه ، فمنى بخسائر جسيمة فى محاولة عبور جيشه نهر الفرات .

عقد الصلح بين الإمبراطوريتين فى السنة التالية لشبوب نار الحرب بينهما ، كانت السنة عام ٤٢٢ م ، وقد نص فى الصلح على حرية العقيدة للنصارى الذين يعيشون فى بلاد الفرس وحرية العقيدة للزردشتين المقيمين فى الإمبراطورية الرومانية وجدد الاتفاق على الأموال التى تدفعها بيزنطة لحفظ معابر القوقاز ضد الهون .

وفى ذلك الوقت كان نصارى فارس يتنازعون بشدة فيما بينهم ، فإن داد يشوع الذى انتخب جاتليقا فى سنة ٤٢١ م أو فى أوائل السنة التالية قد أدى للملك فارس خدمات جليلة فى دفاع خرسان ضد برابرة الشمال ، وقد اتهمه فريق من النصارى المنشقين عليه ببيع الأشياء المقدسة والتعامل بالربا وإثارة المظان لاتهام أهل ملته . وقد أحكم تدبير تلك الحملة حتى إن بهرام أمر بسجن داد يشوع .

وسعى إمبراطور الروم تيودوس الثانى لدى بهرام إمبراطور الفرس حتى أطلق سراح داد يشوع ، ولكنه كان يحس ضيقا بمنصبه حتى رغب فى الاستقالة منه ، ولكن أتباعه توسطوا فى الأمر وأشاروا عليه أن يعقد مجمعا

يعرض عليه الخلاف الذى بينه وبين المنشقين عليه فى أمر الدين . ولما كان قسطنطين قد ابتدع للمسيحيين بدعة عقد المجامع المقدسة لتقرير أركان الدين المسيحى ، فقد عقد داد يشوع مجمعا من ستة وثلاثين أسقفا فى الحيرة ، ونادى ذلك المجمع باستقلال كنيسة النصارى فى فارس وبانفصالها عن الكنيسة الغربية . ولا شك أن داد يشوع حين حمل المجمع على التصويت لهذا الرأى قصد أن يكون مركز نصارى فارس أكثر ثباتا فلا يتهمنهم أحد بعد ذلك بالتآمر مع بيزنطة .

كان الدين المسيحى ككل الأديان السماوية يدعو إلى وحدانية الله إلى أن قام بولص وزاوج بين الدين والفلسفة الرومانية وأساطير الوثنيين . وبدأ بين الموحدين وبين وثنيى المسيحية الانقسام ، وظل الخلاف مشتجرا بين الفريقين حتى قام نزاع جديد بين آريوس القسيس السكندرى ورئيسه الأسقف حول طبيعة إلٰهية المسيح ، فأخذ قسطنطين على نفسه دعوة أساقفة الكنيسة إلى الاجتماع فى نيقية ، وكان ذلك الاجتماع أول مجلس مسكونى (عالمى) للكنيسة .

شرع قسطنطين فى الدين المسيحى شرعة صارت فى أركانه ، فما إن يشجر خلاف بين المؤمنين بالدين الجديد حتى يعقد الخصم الأقوى مجلسا يقرر فيه ما يشاء من أمر الدين . وقد حصل قسطنطين برئاسته لأول مجلس مسكونى على قداسة جديدة تمحو عنه كل خطاياه ، وكان دم منافسيه وابنه بل حتى دم زوجته يلطخ يديه ولكنه صار فى نظر العالم « نظير الرسل » والرسول الثالث .

وزادت كرامته الروحية قوة بما أظهرته أمه هيلينا من همة فى أعمال الحفر

والتنقيب وهى الأمّة السابقة لقسطنطيوس . فقد زعمت أنها استطاعت بفضل المعجزات أن تجد الموقع الذى صلب فيه المسيح ، وادعت أنها استخرجت من بطن الأرض الصليب وصليبى اللصين اللذين صلبا مع المسيح ، والحربة والإسفنجة وتاج الشوك وجميع ما صحب آلام الصلب من آثار .

واهتز العالم المسيحى هزة هائلة لذلك الاكتشاف ودوت أرجاؤه للمجد الخالد الذى أسبغ على أم الإمبراطور ، وأصبح اسما قسطنطين وهيلينا أعظم الأسماء توقيرا فى تاريخ الإمبراطورية المسيحية .

وتتابعت المجالس والمجامع المسكونية التى تنظر فى أمر الدين المسيحى وطبيعة المسيح ، ولما كانت نظرة الشرق تختلف عن نظرة الغرب فقد تفرقت المسيحية وراحت كل فرقة تسلك طريقا . وكثيرا ما كانت المناقشات تحتدم بين تلك الفرق وغالبا ما كانت تقود إلى امتشاق الحسام لتقرير مبدأ من مبادئ الدين الذى جاء يدعو للسلام .

كانت المسيحية عقيدة شرقية وكانت الفلسفة الإغريقية قد صاغتها فى قالب تسيغه أوروبا ، ولكنها ظلت من حيث الجوهر شرقية الأفكار . وكان المواطن من سكان القسطنطينية ، تلك الدولة التى بنيت لتكون عاصمة الدين الجديد ، شديد الوعى لتراثه اليونانى والرومانى ، فتأثر بالأفكار الواردة من الشرق وأثر فيها ، وقد ظلت التقاليد الإغريقية الرومانية حية حتى النهاية .

لقد نشأ فى القسطنطينية ، روما الجديدة ، دين جديد يتعبد للثالوث المقدس ولمريم البتول ، دين نشأ من امتزاج حضارات شرقية بحضارات غربية ، ومن مناقشات أناس فى مجامع مسكونية ما أنزل الله بها من سلطان .

وراحت المجالس تفتى فى أمر الدين بما يرضى الأباطرة ورجال الدين وذوى النفوذ .

﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إلـٰه واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا ﴾ .

١٢

وليت خزاعة البيت مذ جلب جدهم الأعلى عمرو بن لحى الأصنام إلى الكعبة وأمر الناس أن يعبدوها لتقربهم إلى الله زلفى ، فبدأ نجم الشرك يبزغ فى الأرض المباركة التى كانت منارة التوحيد فى الدنيا ، وسادت مكة نكسة روحية شلت فيها الحياة الدينية الحقة التى كانت تدفع المؤمنين إلى الإبداع والسير فى الطريق السوى لتطور الحضارة ورقى البشرية .

وصارت ولاية البيت شرفا يحقق مجدا أرضيا ومغانم مادية ، فشغل رجال الدين والكهان بالحصول على النذور والهدايا التى تهدى للآلهة ، والأموال التى تقدم لها عند ضرب القداح لاستشارتها فى أمر الزواج أو السفر أو إلحاق نسب مشكوك فيه ، وكانت الأموال تزاد حتى ترضى الآلهة وتخرج السهم الذى يهواه من جاء خاشعا راجيا أن تمنحه الأصنام مفاتيح الغيب وما فى جوفها من حكمة !

وانتشرت الخرافات فى مكة وكثرت الكهانة والعرافة ونسجت الأساطير حول كل ظاهرة طبيعية ، فكانت البهائم عندهم فى أول خلقتها ناطقة عاقلة فنظموا على ألسنتها قريضا وفصلوا على ألسنتها الأسجاع ، وزعموا أن القطا قال للحجل « حجل حجل ، تفر فى الجبل ، من خشية الوجل » . فقالت لها الحجل كلاما مسجوعا كسجع الكهان الذى ذاع فى تلك الأيام .

وما أكثر ما نسجوا من خرافات حول الكواكب والنجوم ، فقد كانت

الكواكب رفيق أسفارهم ومرشد طريقهم والنور الذى به يهتدون فى ظلمات ليلهم ، فقالوا :

ـــ الشعرى كوكبان : إحداهما الشعرى العبور والأخرى الشعرى الغميصاء ، أما العبور فإنها من نجوم الجوزاء تسمى كلب الجبار ، وسميت بالعبور لأنها كانت والغميصاء وسهيل مجتمعة فانحدر سهيل فصار يمانيا ، وتبعته العبور فعبرت المجرة ، وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت وكل بصرها .

وقالوا فى سبب تسمية كوكبى الدبران والعيوق :

ـــ إن العيوق عاق الدبران لما ساق إلى الثريا مهرا ، فهو يتبعها أبدا خاطبا لها .

كانوا ينسجون الأساطير حول النجوم ، فقد كانت تهديهم عندما يرحلون فى الصحراء « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر » ، فمن أراد منهم أن يسافر إلى مكة نظر إلى القطب الشمالى ، وهو أثبت النجوم دلالة وأقواها . فإن كان قادما من العراق وما وراء النهر جعل القطب الشمالى خلف أذنه اليمنى ، وإن كان قادما من مصر جعله خلف أذنه اليسرى ، وإن كان قادما من اليمن جعله قبالته مما يلى جانبه الأيسر ، وإن كان قادما من الشام جعله وراءه .

كانت خزاعة تتجر بالمقدسات وقد أحلت القوة المادية مكان الوازع المعنوى ، وكان القرشيون ينتجعون جبال مكة وأوديتها ولا يخرجون من حرمها ، فقد كانوا يحسون فى أعماقهم أن سيكون لهم شأن وأن رفعتهم مرتبطة بذلك الحرم الآمن الذى يأتى إليه العرب رجالا ونساء من كل فج عميق .

وكثرت فى قريش الرياسة ، كان فهر بن مالك هو زعيم الناس يوم خرج إلى سابور ذى الأكتاف يكلمه فى أمر اضطهاده للعرب ، وقد رفع عن العرب اضطهاد الطاغية وصار محرر العرب من العذاب ، وإن كعب بن لؤى بن فهر ابن مالك بن النضر هو قبلة الناس اليوم وكانت تراوده فى يقظته ومنامه فكرة سيادة قريش على مكة وكان يرى أن السبيل لتحقيق حلمه هو الدين .

كان كعب بن لؤى من الحنفاء وكان على دين إبراهيم الخليل ، وكان ضيق الصدر بالأصنام التى تكدست فى جوف أول بيت وضع للناس وكان يتمنى لو يستطيع أن يطهر بيت الله من الأصنام ولكنه لم يجد القلة المؤمنة التى تشد أزره فى تحقيق غايته ، فقد كانت خزاعة وقريش والناس جميعا مفتونين بآلهتهم وكعباتهم التى بنتها القبائل لآلهتها .

شغل قلب كعب بن لؤى بآمال عريضة ، أن يحول ذئاب الدين إلى كلاب حراسة ترعى الغنم ولا تفتك بها وتذب عنها الخطر ، وأن يعيد للكعبة قدسيتها وطهارتها وجلالها وأن يمحق ما عداها من كعبات ، وأن يعيد الناس إلى الجادة وإلى عبادة الله وحده ، ولكنه كان أهون من أن ينهض بمثل هذا العمل الخطير فما كان من أولى العزم . وكان يخشى الانقسام وأن يقود الصدام إلى دمار ذلك المجتمع العاجز عن الاستجابة له استجابة فعالة .

تعددت الآلهة فزاد عدد المنتفعين والمتجرين بمقدساتها ، فراح الكهان يشرعون فى أمر الدين ما يجلب لهم المنافع . حتى القرشيين ولجوا ذلك الميدان ولم يستطع كعب بن لؤى أن يضرب على أيديهم . كل ما كان يستطيع أن يفعله أن يخطب فيهم وأن يلقى عليهم نصائحه وكانوا ينفعلون بها لحظات ثم يجرفهم تيار الحياة إلى طريق الشرك والضلال .

وراح الكهان يزينون للناس ذبح الرجبية وهى العنيرة التى تذبح فى رجب

للآلهة ، وذبح الفرع وهو ذبح أول نتاج الإبل والغنم للأصنام.وأشاروا على الناس إذا أرادوا ذبح الفرع أن يزينوه ويلبسوه ليكون ذلك أوكد فى نفوس الآلهة والناس . وما كانت الأصنام تنام لحوم الأضاحى بل كانت غنيمة باردة للكهان .

وتكونت طائفة دينية متزمتة فى مكة عرفت بالحمس ، وكانوا لا يأكلون السمن ولا يمخضون اللبن ولا يأكلون الزبد ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون به ماداموا حرما .

وقال الحمس :

ـــ لا نطوف فى الثياب التى قارفنا فيها الذنوب ، ولا نعبد الله فى ثياب أذنبنا فيها ، ولا نطوف فى ثياب عصينا الله فيها .

ووقر فى ذهن الشعب أن ثياب الحمس هى الثياب الوحيدة الصالحة للطواف ، وجاء أوان الحج ووقف الحمس يكرون الثياب الطاهرة للحجيج ، فكان الأغنياء يشترون منهم الثياب أما الفقراء فكانوا يخلعون ثيابهم ويطوفون بالبيت عرايا وهم يعتقدون أنهم قد تعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب .

وراح بعض الناس يطوفون بثيابهم ولما انتهوا من طوافهم خلعوا ثيابهم وتركوها لقى لتبلى من وطأة الأقدام ولفح الشمس والرياح ، فما كان يجوز لهم أن يستخدموا تلك الثياب تارة أخرى بعد أن طافوا بها !

وجن الليل وجاء النسوة الفقيرات للطواف حول البيت ، فارتفعت الأصوات :

ـــ من يعير مصونا ؟ من يعير ثوبا ؟ من يعيرنى تطوافا .

وراح اللاتى يئسن من أن يجدن ثوبا طاهرا يخلعن ثيابهن ويطفن حول البيت لا يستر عوراتهن لباس أو قماش ، بل كن يضعن إحدى أيديهن على

قبلهن والأخرى على دبرهن ، وارتفع صوت إحداهن :

اليوم يبدو بعضه أو كله   وما بدا منه فلا أحله

واتخذ بعض النسوة سيورا علقنها فى أعناقهن ليستترن بها .

وضجت جبال مكة ووديانها بالتلبية :

ــ لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

وراح كعب بن لؤى يقول فى انفعال :

ــ لا إلٰه إلا أنت سبحانك . لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

وانتهت مراسم الحج بأن طاف العرايا وقد بدءوا بإساف ثم الركن الأسود ثم أخذوا عن يمينه ، وطافوا وقد جعلوا الكعبة عن يمينهم ، فلما ختموا طوافهم سبعا استلموا الركن ثم استلموا نائلة فختموا بها طوافهم ، ثم خرجوا فوجدوا ثيابهم كما تركوها لم تمس فأخذوها فلبسوها .

وانطلق الحجيج إلى بيوتهم وقد حرص كل منهم أن يدخل بيته من ظهره فقد لقنوا أن دخول الحاج من باب بيته يفسد الحج . ﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها ﴾ .

كان كعب بن لؤى يرى فساد دين القوم وكان يتمنى من أعماقه أن يهدى أهله إلى الصراط المستقيم ، ولكنه كان يرى أن ليس هناك وسيلة للقضاء على ذلك التحجر الروحى الذى ساد مكة إلا إبادة تامة شاملة لهؤلاء الكافرين فتمنى أن يذهبهم الله ويأتى بخلق جديد ، فقد وجد نفسه بلا عون وبلا مؤمنين وإن كان سيد قريش وزعيمها .

كانت أيام الأسبوع عندهم أول وأهون وجبارا ودبارا ومونسا وعَروبة

وشبار . وكان ذلك اليوم هو يوم عروبة ، الذى تجتمع فيه قريش إلى كعب بن لؤى بن غالب ، وقد خطب فيهم مرة فقال :

ــ أما بعد فاسمعوا وافهموا وتعلموا واعلموا . ليل داج ، ونهار صاح ، والأرض مهاد ، والسماء بناء ، والجبال أوتاد ، والنجوم أعلام ، والأولون كالآخرين ، فصلوا أرحامكم ، واحفظوا أصهاركم ، وثمروا أموالكم ، فهل رأيتم من هالك رجع ، أو ميت انتشر ، والدار أمامكم ، والظن غير ما تقولون .

زينوا حرمكم وعظموه ، فسيأتى له نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبى كريم .

كانت عير قريش تنطلق إلى يثرب ، وكان كعب بن لؤى يلقى سمعه إلى أحبار اليهود ويصغى إلى أحاديث من أوتوا منهم العلم وهم يتحدثون عن النبى الأمى المنتظر ، وكانت قوافل قريش تسيح فى الأرض وتتصل بأهل فارس ، وكان كعب حنيفا من الموحدين فكان يهتم بأحاديث الدين ، وقد سمع بلا شك بنبوءة زرادشت وبوصيته لقومه بأن يستمسكوا بما جاءهم به إلى أن يأتى صاحب الجمل الأحمر من بلاد العرب ، وذهب إلى الحيرة واتصل بنصارى العرب وعلم منهم أن المسيح ابن مريم قد بشر بنبى يأتى من بعده اسمه الفراقليط الذى بشر به المسيح ولم يصدق أن مانى هو ذلك النبى المرتقب .

كان كعب يحس فى أعماقه أن النبى الذى بشر به موسى وزرادشت وعيسى ، هو من العرب بل من قريش بل من ولده على التحديد ، وكان يقول :

ــ أما والله لئن كنت فيها ذا سمع وبصر ويد ورجل ، لتنصبت فيها تنصب الجمل ، لأرقلت فيها إرقال (ضرب سريع من السير) الفحل .

وسمى يوم العروبة يوم الجمعة لاجتماع الناس إليه فى ذلك اليوم ، وظل يدعو الناس إلى الله فى هوادة ولين فلم يكن صاحب رسالة يخوض فى سبيلها المخاطر أو يهلك دونها وقد أحبه الناس وتعلقوا به حتى إذا مات أرخوا بموته فصار علامة من علامات التاريخ فى مكة .

١٣

كان الناس فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية والغربية لا يخوضون كثيرا فى المناقشات السياسية إما لعدل الدولة أو خشية من بطشها . وقد وجدوا فى المناقشات الدينية ميدانا فسيحا يمارسون فيه لذة المناقشات وبهجة الخصومات التى تبعث الدفء فى الأرواح المتشوقة للصراع الدائم ، الذى يجعل للحياة قيمة وهدفا ساميا .

وكان المسيحيون على اختلاف مذاهبهم يحاولون أن يعرضوا عن الدنيا فهى لعب ولهو وزينة ، ويقبلوا على الآخرة ابتغاء جنات عرضها السموات والأرض ، فقر فى أذهانهم أن السعادة السرمدية لا يمكن الحصول عليها إلا بإنتهاج سبيل الأرثوذكسية الكاملة ، وقد أرادت السلطة الدنيوية والسلطة الدينية أن تمارس كل منهما سلطانها فى حرية ، فقيل للناس : إن الله أمر بوجود قوتين هما الإمبراطور للدولة والبطريرك للكنيسة .

وغدت النقاط الصغيرة المتعلقة بالسنن اللاهوتية شغل الناس الشاغل وصارت أعظم أهمية من المسائل العظمى المتعلقة بالسياسة العالمية ، فالسياسة العالمية تهتم بمتاع الغرور ، بالدنيا القانية ، بينما سنن اللاهوت قد تفتح لهم أبواب الجنة أو تغلقها دونهم .

أوصى المسيح حوارييه بألا يذهبوا إلى الأمم بل حذرهم من دخول السامرة ، وأكد لهم أنه إنما بعث إلى خراف بنى إسرائيل الضالة . فلما توفاه الله ورفعه إليه أعرض الحواريون عن وصية نبيهم وذهب بطرس يدعو الأمم إلى

المسيحية . وقد أثار ذلك حفيظة اليهود فحدث أول انشقاق فى المسيحية .

وأعلن بولس عدو المسيحية اللدود أنه آمن بالمسيح بعد أن ظهر له المسيح فى البرية وهو فى طريقه إلى دمشق ، وصدقه برنابا الحوارى الجليل ووفق بينه وبين الحواريين الذين كانوا يخشون غدره . وسرعان ما اختلف برنابا وبولس لما رأى برنابا أن بولس يدعو إلى ما لم يدع إليه المسيح ، فكان ذلك شقاقا آخر فى المسيحية ولم يمض على رفع المسيح عشرات السنين .

وانتصرت فى الغرب تعاليم بولس التى امتزجت بالفلسفات اليونانية والأساطير الآرامية ، وفتحت أبواب الصراع على مصاريعها بين المسيحيين الموحدين وبين المسيحيين الذين أثرت فيهم تعاليم بولس الوثنية .

واستقرت الكراسى الرئيسية فى المسيحية فى العواصم الثلاث لعالم البحر الأبيض : روما والإسكندرية وأنطاكية . وكانت بيزنطة أسقفية صغرى تقع فى دائرة اختصاص مطران هرقلية ، فلما اعتنق قسطنطين المسيحية ورفع الإمبراطور فجعله حارس مفاتيح السموات وراعى القطيع وأشبه الناس ببطرس أمير الرسل ، وجعل من بيزنطة القسطنطينية روما الجديدة ، فأصبح وضع أسقف بيزنطة غير مناسب لعظمة عاصمة المسيحية فرفعت منزلته فأصبح بطريرك القسطنطينية . ودبت الغيرة فى الناس أن يجعلوا الدنيا دبر آذانهم وراحوا ينتهجون خطط المشاكسة وإقامة العراقيل فى طريق الكنيسة المنافسة الجديدة .

أسس بولس مذهب الثالوث فى المسيحية وهو مذهب عسير ، وإن مذهب التجسد لا ييسره ، فكان الطريق فى علم البحث عن طبيعة المسيح وشخصه وعرا ، فكان علماء اللاهوت مهما بلغ من حسن قصدهم عرضة

للانزلاق فى اتجاه أو آخر ، فيجد منافسوه الفرصة للطعن والتشهير واتهامهم بالزندقة والمروق من الدين . فكثر الشقاق والخلاف فى المسيحية التى ابتدعتها مخيلة بولس وزادتها فرقة المناقشات التى كانت تدور فى المجالس المسكونية التى ابتدعها قسطنطين بدعوته إلى عقد مؤتمر نيقية .

حاول آريوس وأتباعه فى مؤتمر نيقية إنكار الألوهية التامة للمسيح ودافعوا عن فكرة تنطوى على قدر كبير من التوحيد ، ولكن أول مجمع مسكونى وهو مجمع نيقية الذى عقد برئاسة الإمبراطور قسطنطين أصدر قرارا باستنزال اللعنة عليهم . ولكن الذى حدث هو أن مذهب آريوس ظل طوال القرن الرابع بأكمله يستمتع بمحبة الدوائر الراقية بالقسطنطينية وظل مسيطرا فى الشرق ، ولم يقض عليه إلا بعد انعقاد المجمع المسكونى الثانى .

ومنح المجلس المسكونى بطريق القسطنطينية المركز الثانى بين البطارقة لأن القسطنطينية هى روما الجديدة ، وأسندت الأسبقية لأسقف روما القديمة ولكن بطريقى الإسكندرية وأنطاكية لم يستريحا لذلك القرار .

ولم تعترف روما أبدا بادعاء القسطنطينية بحقها فى ذكر المركز إذ داخلتها الشكوك فيما يحتمل أن يترتب على مقدمات القضية من نتائج محتملة ، كما أن الإسكندرية قبلت الوضع محتجة وراحت تتحين على الدوام الفرص لإبراز استقلالها وأرثوذكسيتها المتشددة . وراحت غيرة البطارقة تطل برأسها وتعمل على تطوير العقيدة حسب هواها ، فكانت روما تحاول توكيد سلطانها على القسطنطينية بينما تحاول الإسكندرية أن تثبت على الدوام أنها وعاء الأرثوذكسية الأوحد .

وشرع نسطوريوس بطريق القسطنطينية شرعا جديدا فى المسيحية فذهب إلى تقسيم طبيعة المسيح إلى شقين هما اللاهوتى والناسوتى . وكانت

تلك حركة بغضت إلى قلوب الناس لأنها كانت تؤدى بصورة منطقية إلى مهاجمة مريم العذراء نصيرة القسطنطينية وراعيتها المحبوبة ، فالمذهب النسطورى سيحرمها من لقبها : أم الرب .

ووقفت الإسكندرية وروما وشعب القسطنطينية فى وجه الدعوة الجديدة ، وأصدر المجمع المسكونى الثالث المنعقد فى أفيسوس قراره متأثرا بقوة شخصية كيرلس بطريق الإسكندرية برفض نظرية نيسطوريوس . ولكن المذهب النسطورى ذاع فى العالم المسيحى الشرقى والغربى على السواء على الرغم من قرار المجلس المقدس .

ومات كيرلس بطريق الإسكندرية وخلفه ديوسقوروس فراح يدعو إلى وحدة طبيعة المسيح . فلم توافق روما على الفكرة وآثر البلاط الإمبراطورى أن يتمشى مع مزاج روما ، فانعقد مجلس مسكونى بخلقيدونية ونعى على ديوسقوروس آراءه ، وبذلك أصبح أصحاب مذهب وحدة طبيعة المسيح هراطقة مرقة وصاروا مضطهدين منبوذين .

وتفرقت المسيحية إلى طوائف وشيع ، إلى يعاقبة نسبة ليعقوب براديوس معتنق مذهب الطبيعة الواحدة ونسطوريين ، إلى قائلين بألوهية المسيح وإلى قائلين ببنوته ، إلى قائلين بطبيعة واحدة للمسيح وإلى قائلين بطبيعتين لا يمكن الفصل بينهما . وصارت كل طائفة تنظر إلى الطائفة الأخرى على أنها هراطقة مرقة ، وحاول بعض ذوى النيات الحسنة أن يوفقوا بين المذاهب المتنافرة فقالوا بوحدة إرادة المسيح ، ولكن هذه المحاولة رفضت وغمرت شخصية المسيح فى طوفان من الآراء الفلسفية والأساطير الوثنية ، وبدا أن العالم المسيحى أصبح فى حاجة إلى ظهور « الفراقليط » الذى بشر به المسيح لينصف المسيح ويوبخ العالم على خطيئته لما جعلوه إلـٰها كما قال السيد المسيح : لكن

أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط (أحمد) . فأما إن انطلقت أرسلته إليكم ، فأما إذا جاء ذلك فهو يوبخ العالم على خطيئة وعلى بر وعلى حكم ، فأما على خطيئة فلأنهم لا يؤمنون بى ، وأما على البر لأنى منطلق إلى الأب ولستم تروننى بعد ، وأما على الحكم فلأن رئيس هذا العالم قد دين وإن لى كلاما كثيرا أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن . وإذا جاء روح الحق ذلك فهو يعلمكم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما سيأتى وهو يمجدنى لأنه يأخذ ويخبركم » .

ــ « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إلٰه واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا » .

كان الناس منذ بعثة موسى عليه السلام ينتظرون ظهور نبى من أبناء عمومة موسى كما قال الله لهم فى توراته ، وكانت شهرة ذلك النبى عالمية حتى إنه لما بعث عيسى ابن مريم سأله الناس : « أأنت إيليا أو المسيح أو النبى » .

وبشر زرادشت أتباعه ببعثة صاحب الجمل الأحمر من بلاد العرب ، وجاء المسيح ابن مريم وبشر بأحمد ، بالفارقليط روح الحق الذى لا ينطق من نفسه بل ينطق بما يوحى إليه من ربه . وقد ادعى منفليس المسيحى فى آسيا الصغرى أنه الفارقليط الذى بشر به المسيح وكان منفليس تقيا زاهدا وفتن به كثيرون . ولكن منفليس لم يوبخ العالم على ادعاء الناس أن المسيح هو الله وهو ابن الله ولم يعد للمسيح كرامته وكان ذلك فى القرن الثانى .

وقام مانى بعد ذلك فى بلاد الفرس وزعم أنه الفارقليط الذى بشر به

المسيح ، ولم يدحض مانى تهمة تأليه المسيح بل ترك الناس يختلفون فيه دون أن يقول كلمة الحق ، وشبت العداوة بين مانى والمجوس وانتهت بأن قضى المجوس على مانى وصلبوه وبات العالم يترقب روح الحق الذى يعلم الناس الحق ، الذى لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى .

ولم يكن حال نصارى فارس أحسن حالا من نصارى روما والقسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية وبيت المقدس ، فعاد يسوع الذى انتخب جاثليقا فى سنة ٤٢٢ م وعقد مجمعا نادى فيه باستقلال كنيسة النصارى فى فارس وبانفصالها عن الكنيسة الغربية ، إلا أن هذا الإجرام لم يمنع انقسام نصارى فارس إلى نسطوريين ويعاقبة ، بل لقد شجر الخلاف بين أنصار المذهبين فى الشرق كما اشتد فى الغرب وأصبح كل فريق يكن للفريق الآخر بغضا دفينا .

كان الجدال قائما فى مدرسة الرها حيث كان نصارى فارس يتلقون الدين المسيحى ، وحينما توفى إباس سنة ٤٥٧ م وهو أستاذ هذه المدرسة المشهورة وكان نسطوريا متحمسا ، تفوق القائلون بوحدة طبيعة المسيح وطردوا رجال الدين النساطرة من الرها ، فراح اليعاقبة والنسطوريون يتبادلون التهم ويستخدمون أقذع أنواع السباب فى المعركة . ولم يقف الأمر عند حد المناقشات بل وصل إلى الضرب بالسياط والتعليق من أصابع البنصر والاغتيال ، وظهر بوضوح أن أتباع الدين الواحد تمزقوا شيعا متباغضة متنافرة متشاحنة ، وأن الإسلام الذى دعا إليه عيسى ابن مريم قد فسد ، وأن العالم قد صار فى حاجة إلى رسول كريم ليعيد الناس إلى الجادة ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، بعد أن طال على الناس الأمد وقست قلوبهم وأشركوا بالله

ما لا يعلمون .

« ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » :

١٤

كان كعب بن لؤى يحس فى أعماقه أن النبى الذى بشر به موسى وزرادشت والمسيح من قريش بل من صلبه ، فكان لا يسمح لقريش أن يتفرقوا فى البلاد فقد كان يرى أن عزهم فى تجمعهم حول الحرم . كان على ثقة من أن النور سينبثق من أول بيت وضع للناس ليغمر العالمين .

ومات كعب وصار ابنه مرة فى سادات قريش ، ولم يرث أحد من أبناء كعب الفكرة الجليلة التى استقرت فى وجدانه ، فبدأ القرشيون يهاجرون إلى البلاد الكثيرة التى استقر بها أجدادهم العدنانيون والمعديون والنزاريون والمضريون والكنانيون ، وسارت الحياة الدينية على وتيرتها ، الكهان يستغلون الناس ويستولون على أموال الآلهة والقرابين والنذور ، والحمس من أهل مكة يبيعون الناس الثياب الطاهر وليحجوا فيها ، والفقراء من الرجال والنساء يطوفون حول البيت عرايا فقد شرع الحمس أن الطواف بالملابس التى اقترف الناس فيها الذنوب لا يجوز وأن الحج لا يقبل منهم إن طافوا بها ، وراح الحجاج يدخلون بيوتهم من ظهورها حتى لا يفسدوا حجهم .

واستمر أهل مكة يهرعون إلى هبل ويضربون بالقداح عنده ليستشيروه فى أمر السفر أو الزواج أو ما يحتاج إلى رأى فى أمر الدنيا والدين . وطويت أيام مرة وذهبت مع التاريخ وجاء كلاب بن مرة ، وكانت أسماء الشهور العربية : مؤتمر ، أى أنه يأتمر بكل شىء مما تأتى به السنة من أقضيتها ، وناجر من النجر وهو شدة الحر ، وخوان من الخيانة لأنه كان شهر الثأر والقتال قبل دخول

الأشهر الحرم ، وصوان من الصيانة ، والزبا وهو الداهية العظيمة المتكاثفة سمي بذلك لكثرة القتال فيه ، والأصم لأنهم كانوا يكفون فيه عن القتال فلا يسمع فيه صوت سلاح ، والوغل الداخل على شرب وذلك لأنهم مقبلون على شهر يكثر فيه شربهم الخمر لأن الذى يتلوه هى شهور الحج ، وناطل هو مكيال الخمر سمي به لإفراطهم فيه بالشراب وكثرة استعمالهم لذلك المكيال ، والعادل فهو من العدل لأنه من أشهر الحج ، وكانوا يشتغلون فيه عن الباطل ، وناتق وهو العاذل ، وهواع وبرك لبروك الإبل إذا حضرت المنحر وكانوا يسمونه الميمون أيضا ، فرأى كلاب أن يغير تلك الأسماء باتفاق حال وقعت فى كل شهر منها .

سمي المحرم محرما لأنه شهر حرم القتال فيه ، وسمى الشهر الذى يليه صفرا لصفر بيوتهم منهم عند خروجهم إلى الغارات بعد انقضاء شهر تحريم القتال ، وسمى الشهرين التاليين لصفر بربيع لأنه حدث فى أيام قيامه بتسمية الشهور أن الأرض أخصبت فى هذين الشهرين والربيع هو الخصب ، وجمدت الماء بعد ذلك شهرين فسماهما جمادى الأولى وجمادى الآخرة ، وسمى الشهر الذى تلاهما رجب لتعظيمهم له فالترجيب التعظيم ، وبعد رجب تشعبوا فى القارات فسماه شعبان ، وجاء شهر حر بعد شعبان كأنه الرمضاء فسماه رمضان ، وفى الشهر الذى يليه حالت الإبل وشالت أذنابها فسماه شوال ، وجاءت الأشهر الحرم فقعدوا عن القتال فسمى ذلك الشهر ذا القعدة ، واتفق أن جاء الحج فى الشهر الذى يليه فسماه ذا الحجة .

وراح كلاب بن مرة يحفر الآبار لقريش خارج مكة ، فحفر لهم خُم والحفر فكان أولاده وأولاد إخوته تيم بن مرة ويقظة بن مرة وغلمانهم يشربون منها ويسقون الإبل والغنم . ومات كلاب وترك ولديه زيدا وزهرة

لأمهما فاطمة بنت سعد ، وكان زيد فطيما وزهرة كبيرا ، فلما تزوجت فاطمة ربيعة بن خزام رحلت معه وتركت زهرة مع أعمامه وأخذت معها زيدا لصغره ، فسمي قصيا لبعده عن دار قومه .

شب قصي لا يُعلم له أب إلا ربيعة ولا أخ إلا رزاحة الذى ولدته فاطمة لربيعة . وذات يوم وهو غلام تساب هو ورجل من قضاعة فقال له القضاعي معيرا :

ــ لست منا وإنما أنت فينا ملصق .

فوجم قصي ودخل على أمه وهو غاضب وقال لها :

ــ قال لى القضاعي إننى لست منهم وإنما أنا فيهم ملصق ، أريد أن أعرف الحقيقة .

فقالت فاطمة فى هدوء :

ــ يا بني صدق ، إنك لست منهم ولكن رهطك خير من رهطه وآباءك أشرف من آبائه ، وإنما أنت قرشي وأخوك وبنو عمك بمكة وهم جيران بيت الله الحرام .

ــ ابن من أنا يا أماه .

ــ أنت ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة .

ــ سألحق بقومي يا أماه .

كره قصي الغربة فى أرض قضاعة بعد أن عرف أن ربيعة بن خزام قد حمله من الوادى المقدس إلى بلاده من أرض عذرة إلى أشراف الشام ، وبعد أن عرف أنه من سادات قريش وأن أخاه زهرة من زعماء القوم ، فأجمع الخروج إلى قومه واللحاق بهم فقالت له أمه :

— يا بنى لا تعجل بالخروج حتى يدخل عليك الشهر الحرام فتخرج فى حاج العرب ، فإنى أخشى عليك .

فأقام قصى حتى دخل الشهر الحرام وخرج فى حاج قضاعة وهو يتلهف على لقاء أخيه زهرة ورجال قريش ، وما إن لاحت له أرباض مكة حتى استشعر شوقا يغمره وود لو أن له جناحين يطير بهما إلى أهله ليضم صدره الذى يخفق بالشوق إلى صدور تجرى فيها نفس الدماء التى تنبض بالحياة بين جنبيه .

والتقى قصى بزهرة وتعانق الأخوان وجرت عبرات الرحمة على الخدود ، وصار قصى فى شباب قريش فاستشعر عزة وكرامة وهدأت نفسه الثائرة وراح يتلفت وهو يقوم مع قومه بشعائر الحج . وكان أول ما أثار دهشته أن قريشا خير الناس وأكرمهم لم تكن ولاية البيت فيهم بل فى خزاعة ، وأن الإجارة للناس بالحج من عرفة ليست فى قريش بل فى أبناء الغوث بن مر بن أد ابن طابخة بن إلياس .

كانت أم الغوث من جرهم وكانت لا تلد ، فنذرت لله إن هى ولدت ذكرا أن تتصدق به على الكعبة عبدا لها يخدمها ويقوم عليها . فلما ولدت الغوث وهبته للكعبة وجعلته ربيطا لها وألبسته ثوبا من الصوف ، فقيل له ولولده من بعده صوفة .

وشب الغوث وصار رجلا فولى الإضافة بالناس من عرفة ، وكان إذا دفع بالناس يقول :

لا هم إنى تابــــع تباعـــــه   إن كان إثم فعلى قضاعـــــة

وكان يخص قضاعة بذلك لأنها كانت تستحل القتال فى الأشهر الحرم .

كان قصى يؤدى فريضة الحج لأول مرة وكان بين أهله من قريش فى عرفة ،

وإذا بصوفة تدفع بالناس من عرفة .

وجاء يوم رمى الجمرات فإذا رجل من صوفة يرمى للناس لا يرمون حتى يرمى ، وراح ذوو الحاجات المتعجلون يأتونه فيقولون له :

ـــ قم فارم حتى نرمى معك .

فيقول :

ـــ لا والله حتى تميل الشمس .

فراح ذوو الحاجات الذين يحبون التعجل يرمونه بالحجارة ويستعجلونه بذلك ويقولون له :

ـــ ويلك ! قم فارم .

فأبى عليهم حتى إذا مالت الشمس قام فرمى ورمى الناس معه .

وفرغوا من رمى الجمار وأرادوا النفر من منى ، فأخذت صوفة بجانب العقبة فحبسوا الناس وقالوا :

ـــ أجيزى صوفة .

فلم يجز أحد من الناس حتى يمروا .

ونفرت صوفة ومضت فخلى سبيل الناس فانطلقوا بعدهم ولم يعجب ذلك قصيا فقد استنكر أن تكون الإجازة للناس بالحج فى صوفة ، ورأى أن قريشا أحق بذلك الشرف منهم .

وفرغ قصى من الحج وأقام بمكة ، وكان كلما طاف بالبيت استولت عليه فكرة أن تكون ولاية البيت فى قريش . وكان قصى حازما بارعا فارتفع ذكره واتسعت أطماعه ، فرأى أن يربط الأسباب بينه وبين حليل بن حبشية بن سلول الخزاعى سيد خزاعة ، من يلى الكعبة وبيده مفاتيحها .

وجاء قصى إلى حليل وهو فى نادى قومه عند الكعبة وألقى التحية وقال :

ــــ أنا قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى .

فقال حليل وهو ينظر إلى الفتى فى إعجاب ، فقد كان قصى جليلا وإن كان فى شرخ الشباب :

ــــ أهلا بابن الكرام ، مرحبا بك .

وفسح له مكانا إلى جواره فجلس قصى ، وما استقر فى مكانه حتى قال :

ــــ جئت أخطب ابنتك حبى .

ورغب حليل فى الشاب النابه فرحب به وزوجه ابنته حبى ، وتمت المصاهرة بين سليل قريش وأشرف فتيات خزاعة .

وولدت حبى لقصى عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبدا ، وانتشر ولد قصى وكثر ماله وعظم شرفه ، وكان حليل يفتح البيت وإذا اعتل أعطى ابنته حبى المفتاح ففتحته ، فإذا اعتلت أعطت المفتاح زوجها قصيا أو بعض ولدها فيفتحه .

وكانت أنباء الحيرة والشام ومصر تفد إلى مكة مع عير قريش ، وقد علم قصى أن المنذر بن النعمان غزا الفرس ووطد سلطان ربيبه بهرام جور وفرضه على عظماء الفرس وأهل البيوتات ، فكان من المعجبين بالمنذر وكان يحلم بأن يأتى ذلك اليوم الذى يفرض فيه سلطانه على مكة كما فرض المنذر سلطان ربيبة على الفرس .

وحضرت حليل الوفاة فنظر إلى قصى وإلى ما انتشر له من الولد من ابنته فرأى أن يجعل ولاية البيت فى ولد ابنته فدعا قصيا وأسلم إليه المفتاح ، فلما هلك حليل أبت خزاعة أن يتولى قصى البيت فأخذت المفتاح من حبى ، ولم يقبل قصى أن يستسلم لطغيان خزاعة فمشى إلى سادات قومه من قريش ومن بنى كنانة وقال لهم :

ـــ نحن أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبنى بكر ، فقريش فرعة إسماعيل بن إبراهيم وصريح ولده .

ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبنى بكر من مكة فأجابوه ، وكتب إلى أخيه من أمه رزاح بن ربيعة يدعوه إلى نصرته ويعلمه ما حالت خزاعة بينه من ولاية البيت ، فقام رزاح يدعو الناس من قضاعة لنصرة أخيه قصى بن كلاب بن مرة .

وخرج رزاح بن ربيعة ومعه إخوته من أبيه : حسن ومحمود وطهيبة بنو ربيعة بن خزام فيمن معهم من قضاعة وفيمن معهم من حاج العرب مجتمعين لنصر قصى والقيام معه ، فلما اجتمع الناس بعرفة خرجوا إلى الحج فوقفوا بعرفة ونزلوا منى وقصى مجمع على ما أجمع عليه من قتال خزاعة بمن معه من قريش وبنى كنانة ومن قدم عليه مع أخيه رزاح من قضاعة .

وكان بنو عدوان بن عمرو بن قيس قد انتزعوا إجازة الناس من عرفة إلى منى من خزاعة بعد أن انتزعتها خزاعة من صوفة ، فكان أبو سيارة وهو رجل منهم يتقدم على حماره ثم يخطب الناس فيقول :

ـــ اللهم أصلح بين نسائنا وعاد بين رعايانا ، واجعل المال فى سماحنا وسمحائنا ، أوفوا بعهدكم وأكرموا جاركم واقروا ضيفكم .

وكان يرقب جبل ثبير ، ذلك الجبل الذى أخذ إبراهيم الخليل ابنه إسماعيل إليه لما رأى فى المنام أنه يذبحه ، وكان يطيل النظر إلى ثبير ويقول :

ـــ أشرق ثبير كيما نغير .

ثم ينفر ويتبعه الناس . وأراد أبو سيارة أن يفعل ما كان يفعله على مر السنين فى ذلك اليوم فأتاه قصى فمنعه من الإجازة ، فثار بنو عدوان وبنو فزارة بنو عم أبى سيارة وقال قائل منهم :

خلوا السبيل عن أبى سياره　　وعن مواليه بنى فزاره
حتى يجيز سالما حماره　　مستقبل القبلة يدعو جاره

فنظر أبو سيارة إلى السماء وراح يدعو الله قائلا :

— اللهم كن لنا جارا مما نخافه .

وأراد أبو سيارة أن يشق طريقه بين الجموع ولكن قصيا منعه ، فدار القتال بين قريش وكنانة ومن جاءوا مع رزاح أخى قصى من قضاعة وبين بنى عدوان وبنى فزارة ، فانتصر قصى وانتزع الإجازة من أبى سيارة .

ورأت خزاعة ما حل ببنى عدوان وبنى فزارة فأوجست خيفة ، فقصى ما جمع الناس إلا لينتزع منهم ولاية البيت . فلما كانت آخر أيام منى أرسلت قضاعة إلى خزاعة يسألونهم أن يسلموا إلى قصى ما جعل له حليل ، فأبت خزاعة أن تسلم لقصى مفاتيح البيت وأن تقر له بولايته .

وبعثت قريش وكنانة وقضاعة إلى خزاعة يحذرونهم الظلم والبغى بمكة ويذكرونهم ما كانت فيه جرهم وما صارت إليه حين مالوا إلى الظلم ، فأبت خزاعة أن تنقاد للنصح أو أن تخضع للتهديد ، فبدا أن لا أمل فى السلام وأن لا بد من القتال فى الشهر الحرام وإن كان إثم فعلى قضاعة .

ودار القتال فى منى وكثر القتلى فى الفريقين جميعا وكثرت فيهم الجراحات ، وحاج العرب من مضر ويمن ينظرون إلى القتال . ثم دخلت قبائل العرب بين الفريقين المتنازعين وعظمت عليهما سفك الدماء والفجور فى الحرم ، فاصطلحوا على أن يحكموا بينهم رجلا من العرب ، فحكموا يعمر بن عوف بن كعب بن مالك بن الليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وكان رجلا شريفا فقال لهم :

— موعدكم فناء الكعبة غدا .

وأمر بأن يعد القتلى فى الفريقين وأن يوافوه بها .

وجاء اليوم التالى واجتمع الناس فى الكعبة ، وأقبل يعمر ثم قام ليعلن حكمه ، فحبس الناس أنفاسهم ليسمعوا القرار الذى سيفصل فى أمر ولاية البيت وفى القتال الذى نشب بين قصى وأنصاره وخزاعة التى كانت لها ولاية البيت حتى تلك اللحظة .

قال يعمر بن عوف :

ــ ألا إنى قد شدخت ما كان بينكم من دم تحت قدمى هاتين ، ولا تباعد لأحد على أحد فى دم ، وإنى قد حكمت لقصى بحجابة البيت وولاية أمر مكة دون خزاعة لما جعل له حليل وأن يخلى بينه وبين ذلك ، وألا تخرج خزاعة من مساكنها .

فكان قصى أول رجل من كنانة أصاب ملكا وأطاع به قومه .

١٥

أنزل قصى قومه بطحاء مكة فى الشعاب ورءوس الجبال وقسمها رباعا بينهم ، وأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة فجمع قبائل فهر بعد افتراقها فسموه مجمعا .

ولم يكن أمر إنزال قريش حول الحرم شيئا هينا ، فلم يكن فى مكة بيت فى الحرم إنما كانوا يأتون إليها حتى إذا أمسوا خرجوا لا يستحلون أن يصيبوا جنابة ، فلما جمع قصى قريشا وكان أدهى من رؤى فى العرب قال لهم :

ــ أرى أن تصبحوا بأجمعكم فى الحرم حول البيت ، فوالله لا يستحل العرب قتالكم ولا يستطيعون إخراجكم منه وتسكنونه فتسودون العرب أبدا .

فقالوا :

ــ أنت سيدنا رأينا لرأيك تبع .

فجمعهم ثم أصبح بهم فى الحرم حول البيت ، فمشت إليه أشراف كنانة وقالوا :

ــ إن هذا عند العرب عظيم ولو تركناك ما تركتك العرب .

فقال :

ــ والله لا أخرج منه .

وثبت حتى إذا ما حضر الحج خشى أن يعترض الحجيج على ما فعل فقال لقريش :

— قد حضر الحج وقد سمعت العرب بما صنعتم وهم لكم معظمون ، ولا أعلم مكرمة عند العرب أعظم من الطعام فليخرج كل إنسان منكم من ماله خرجا .

وراحت قريش تخرج المال ليشترى به الإبل والجزور والخبز واللبن والزبيب ، فلما جاء أوان الحج نحر على كل طريق من طرق مكة جزورا ، ونحر بمكة وجعل حظيرة فجعل فيها الطعام من الخبز والثريد واللحم ، فمن مر باللحم والثريد أكل ومن قصد الحظيرة فأكل وسقى الماء واللبن .

وانتهى الحج ولم يرفع أحد صوت الاعتراض ، وقرت قريش فى أماكنها حول البيت المحرم .

كان قصي قد أحدث وظيفة الحجابة وهى منصب شريف ، تكون مفاتيح الكعبة عند من تقلد ذلك المنصب وهو المسئول عن ما فى الكعبة من الأمانات والأموال المهداة . وقد أحدث بحث قريش على إخراج المال لشراء طعام للحجيج وظيفة أخرى هى الرفادة ، فصارت لقصى الحجابة والرفادة .

ورأى أن يكون للحكومة دار فبنى دار الندوة وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ، فكانوا لا يتشاورون فى أمر نزل بهم إلا فيها ، وما كان يقطع أمرا قبل أن يستشير سادات قومه فكان أمرهم شورى بينهم ، وكان يجرى فيها التحاكم والتشاور . وأحدث قصي منصبا آخر هو اللواء ، وكان من فى حوزته اللواء إذا أخرجه اجتمعت عنده صناديد قريش لا يتخلف أحد منهم عنه ليشنوا الحرب على من عاداهم ، فصارت له الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، وجمع الشرف من أطرافه .

ورأى أن يجدد بناء الكعبة فهاب الناس ذلك ، ولكنه أقبل غير هياب ولا وجل وهدمها . وبينا هو يقيم القواعد من البيت حضر الحج وخشيت قريش

غضب الناس ؛ ولكنه ظل ثابت الجنان وأحاط على الكعبة دارا من خشب وربطها بالحبال . وراح الحجيج يدور من وراء الدار ولم ينبس أحد بكلمة استياء .

وعاد الحجيج إلى ديارهم واستأنف قصى بناء الكعبة ، حتى إذا ارتفع البنيان راح يسقف بيت الله بخشب من الدوم وجريد النخل وهو يدعو الله بدعاء بينا كان الكون كله يهمس فى إيمان بدعاء إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل صادق الوعد : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

وراح قصى يسقى الحجيج فى حياض من أدم ، وكان ينقل الماء من آبار خارجة من مكة ، فقد كانت زمزم لا تزال مطمورة . ورأى أن يحفر بئرا قريبة من الحرم فحفر العجول وراح الناس يرتجزون قائلين :

نروى على العجول ثم ننطلق إن قصيا قد وفى وقد صدق

وأقر لصفوان بالإجازة للناس بالحج من عرفة ، وأقر لعدوان بالإضافة للناس من المزدلفة ، وأقر النسأة وقد كان الناسئ يدعو الناس فى آخر موسم الحج إلى اجتماع حوله ، فإذا اجتمعوا ارتقى موضعا مرتفعا ظاهرا أو قام على ظهر جمله ليراه الناس ثم يقول بأعلى صوت :

— اللهم إنى لا أعاب ولا أحاب ولا مرد لما قضيت ، اللهم إنى أحللت شهر كذا من الأشهر الحرم وأنسأته إلى العام القابل ، وحرمت مكانه شهر كذا من الأشهر البواق .

وكان الناسىء يؤخر تحريم ما يشاء من الأشهر الحرم باسم الله ﴿ إنما النسىء

زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ .

وشرف عبد مناف فى زمان أبيه وذهب شرفه كل مذهب . بينا كان عبد الدار بكر قصى خاملا لا يرتفع إلى مكانة أخيه ، فلما كبر قصى ورق عظمه قال قصى لعبد الدار :

ـــ أما والله يا بنى لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها لهم ، ولا يعقد لقريش لحربها إلا أنت بيدك ، ولا يشرب رجل بمكة إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهالى الموسم طعاما إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمرا فى أمورها إلا فى دارك .

وأعطاه دار الندوة التى لا تقضى قريش أمرا إلا فيها ، وأعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، وجعل إليه كل ما كان بيده من أمر قومه . وقبل عبد مناف ما قضى به أبوه فقد كان قصى لا يخالف ولا يرد عليه شىء صنعه .

وهلك قصى بن كلاب فأقامت قريش ليس بينهم اختلاف ولا تنازع ، وإن كان بنو عبد مناف بن قصى : عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل يرون أنهم أحق من بنى عبد الدار بالحجابة واللواء والسقاية والرفادة .

وازدادت مكانة بنى عبد مناف بين قومهم رفعة فأجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار ، فتفرقت عند ذلك قريش فكانت طائفة مع بنى عبد مناف على رأيهم يرون أنهم أحق بشرف ولاية البيت من بنى عبد الدار ، وكانت طائفة مع بنى عبد الدار يرون ألا ينزع منهم ما كان قصى جعل إليهم .

كان عبد شمس بن عبد مناف أسن بنى عبد مناف فكان صاحب أمرهم ، وكان عامر بن عبد الدار صاحب أمر بنى عبد الدار ، وانضم بنو أسد بن

عبد العزى بن قصي وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم بن مرة بن كعب وبنو الحرث بن فهر بن مالك بن النضر إلى بني عبد مناف ، بينا انضم إلى بني عبد الدار بنو مخزوم بن يقظة بن مرة وبنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب وبنو عدى بن كعب ، وخرجت عامر بن لؤى ومحارب بن فهر فلم يكونوا مع واحد من الفريقين .

وعقد كل قوم على أمرهم حلفا مؤكدا على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا ما بل بحر صوفة ، فأخرجت بعض نساء بني عبد مناف جفنة مملوءة طيبا فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا وحلفاءهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم فسموا المطيبين .

وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا وحلفاءهم عند الكعبة حلفا مؤكدا ، وأخرجوا جفنة دم وغمسوا فيها أيديهم ومسحوا بها الكعبة فسموا الأحلاف ولعقة الدم .

وتساندت القبائل وتأهبت للقتال ، فعُبِّيت بنو عبد مناف لبني سهم وعبيت بنو أسد لبني عبد الدار وعبيت زهرة لبني جمح وعبيت بنو تيم لبني مخزوم وعبيت بنو الحارث بن فهر لبني عدى بن كعب ، ثم قالوا :

— لتُفن كل قبيلة من أسند إليها .

فبينا الناس على ذلك قد أجمعوا للحرب إذ تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار كما كانت ففعلوا ورضى كل واحد من الفريقين بذلك وساد السلام مكة ، ولكن إلى حين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٦

ادعى مانى أنه « الفارقليط » الذى بشر به المسيح ، ولكن علماء الفرس كذبوه وقالوا إن النبى المنتظر من بلاد العرب ، وإن زرادشت قد أوصاهم بأن يستمسكوا بما جاءهم به إلى أن يأتى صاحب الجمل الأحمر من بلاد العرب . وقالوا إن ساسان الأول تنبأ بظهور رجل من العرب يأخذ سرير ملك فارس عندما يضل الفرس ويلغون فى المعاصى .

وصلب مانى ولكن دينه الذى بشر به وجد أتباعا ، فقد ظهر فى روما مانوى اسمه بندس أتى بمذاهب جديدة تتعارض مع المانوية الرسمية : فقد كان إلـٰه الخير يحارب إلـٰه الشر ومنى هذا الأخير بالهزيمة ، فحق على البشر تمجيد المنتصر .

وذهب بندس إلى فارس ودعا إلى مذهبه الذى سماه الفرس : « مذهب إلـٰه الخير » وسموا تابعيه « أتباع الدين الحق » . وقد تهلل أتباع ذلك المذهب بالفرح لانتصار إلـٰه الخير ، وعرف بندس باسم زرادشت تيمنا بنبى الفرس القديم الذى دعا إلى عبادة أهورا مزدا إلـٰه النور الواحد القهار ، والذى تطور دينه لما طال على الناس العهد إلى دين المجوس .

كان بندس يبغى إصلاح مذهب مانى فبدأ يناقش الصلة بين الأصلين القديمين : النور والظلمة ، فاختلف عن مذهب مانى بأن قال إن الظلمة لا تعمل كما يعمل النور بالقصد والاختيار ولكنها تفعل على الخبط والاتفاق ، وعلى هذا النحو يكون امتزاج النور بالظلمة ــ وهو الامتزاج الذى نشأت

عنه الدنيا ـــ غير ناتج بالقصد والاختيار كما قال مانى ولكنه كان على الاتفاق والخبط .

وبعد بُندس بقرنين من الزمان ولد مزدك فى مادرايا على الشاطئ الشرقى لنهر دجلة ، وكانت مدينة عامرة غاصة بأشراف الفرس ورجال الدين . وقد شب مزدك وهو يهوى علم الفلك والنظر فى النجوم ، وقد انحدر ذلك العلم من أيام بابل أيام أن بلغ أوج مجده وازدهاره .

ورأى مزدك فى النجوم أن نبيا سيظهر وشيكا وأن دينه سيظهر على الدين كله ، فشغل بما رأى وولدت فى نفسه أمنية أن يكون هو صاحب ذلك الدين .

وأكب مزدك على دراسة الزردشتية والمانوية والمذاهب الأخرى ، فعثر على دعوة بندس وكانت دين الخاصة ، فعكف عليها حتى امتزجت بضميره واستولت على وجدانه .

وقام مزدك وادعى أنه النبى الذى بشر به زرادشت وأنه « الفراقليط » الذى بشر به المسيح ، ولما كان مانى يقول بوجود خمسة أركان للنور هى : الأثير والهواء والنور والماء والنار ، فقد قال مزدك بثلاثة أركان هى الماء والنار والتراب ، وقال بثلاثة أركان للظلمة ولما اختلطت حدث عنها مدبر الخير ومدبر الشر ، وكان مدبر الخير من صفوها وكان مدبر الشر من كدرها .

وصور مزدك معبودة قاعدا على كرسيه فى العالم الأعلى على هيئة قعود كسرى فى العالم الأسفل وبين يديه أربع قوى هى قوى التمييز والفهم والحفظ والسرور ، كما بين يدى كسرى أربعة أشخاص : الموبدان موبد (الكاهن الأعظم) والهربدان هربد (السدنة) والأصبهبد (القائد) والرامشكر (صاحب الموسيقى) .

وقال مزدك إن الخلاص إنما يقع بالاتفاق دون الاختيار كما حدث بين

الظلمة والنور . وأن على الإنسان أن يأمل بالخلاص بالقيام بأعمال والامتناع عن أخرى ، وأن على المرء أن يتفادى كل ما من شأنه توثيق صلة الأرواح بالمادة ، ومن أجل ذلك حرم على المزدكية أكل لحم الحيوان .

ودعا مزدك إلى الزهد وقال : كل سفك للدماء إنما هو عمل يعوق الجهد فى سبيل تخليص الأرواح ، وحض على قتل النزوات والشهوات ونهى عن المخالفة والمباغضة والقتال .

ولما كانت البغضاء ودفع الناس بعضهم لبعض إنما يقع بسبب عدم المساواة بين الرجال ، فقد أوجب مزدك إزالة ذلك السبب .

كان على الصديقين فى الجماعة المانوية أن يعيشوا بلا نساء ، وأن لا يملكوا من الغذاء غير قوت يوم واحد ومن الملابس غير ما يكفى سنة واحدة . وقد فرضت على الأتقياء الأصفياء من المزدكيين نفس القواعد ولكن مزدك أدرك أن الرجال العاديين لا يستطيعون التخلص من حب اللذات ، من الرغبة فى تملك الأموال والنساء إلا فى اللحظة التى يستطيعون فيها إشباع تلك الحاجات بالاختيار ، فقال مزدك :

ـــ إن الله إنما جعل الأرزاق فى الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتساوى بحيث لا يكون لأحدهم أكثر مما لغيره ، وقد نشأ عدم المساواة بالقوة ، فكل يريد إشباع رغباته على حساب أخيه .

وراح مزدك يقول : إن من كان عنده فضلة من الأموال والنساء والأمتعة ليس أولى به من غيره ، وأنه ينبغى أن يؤخذ من الأغنياء للفقراء وأن يرد المكثرين على المقلين لإقامة المساواة بين الناس ، وقال :

ـــ ينبغى أن تكون النساء والأموال شركة بين الناس كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ .

وعارض الناس تلك المساواة البدائية ، تلك الشيوعية التى تردهم إلى عهد الغابة ، وقالوا إنها ليست من الدين فى شيء ، فقال مزدك :

ـــ إن ذلك من البر الذى يرضاه الله ويثيب عليه أحسن الثواب ، وأنه لو لم يكن الذى أمرهم به وحثهم عليه من الدين كان مكرمة فى الفعال ورضاء فى التفاوض .

وحدث قحط فى فارس فذهب مزدك إلى قباذ شاهنشاه فارس وراح يحاوره ، وقال له فيما قال :

ـــ ما حكم من منع رجلا من الطعام والشراب ؟

فقال قباذ :

ـــ ينبغى أن يقتل به .

وخرج مزدك من قصر الملك فخف إليه الناس المتجمعين حول القصر زمرا ، فأشار لهم بيده أن اصمتوا فساد السكون المكان وأرهفوا سمعهم ، فقال لهم مزدك :

ـــ إن الملك قد أباحكم ما فى الأهراء من غلات فابسطوا أيديكم ، وأينما وجدتم شيئا فاستبيحوه .

وانطلق الشعب الجائع ينهب كل ما يقع تحت يده ، وامتلأ الأشراف بالغضب فقد كانت الثروة الفارسية كلها فى أيديهم ، وأوجسوا خيفة من الملك قباذ بن فيروز خشية أن يتحالف الشاهنشاه مع الشيوعية المزدكية لتحطيم قوة الأشراف .

وقد وقع ما كان يخشاه الأشراف فقد دخل قباذ فى مذهب مزدك وراح يشرع فى أمر المال ، ففرض ضرائب باهظة على الأغنياء لتحسين أحوال الفقراء ، ويسَّر للرجال أن يتنازلوا عن زوجة أو أكثر إلى رجال قد مسهم

الإملاق ، وراحت القوانين تتجه إلى شيوعية المال وشيوعية النساء .

وقامت العداوة للدين الجديد فى صفوف رجال الدين المجوسى والأشراف ، وشن عليه نصارى فارس هجوما شديدا لا رحمة فيه ، وأظهر سكان مدينة آمد عداوة سافرة لقباذ ، فجهز جيشا وانطلق إلى المدينة التى هاجمته فى ضراوة . وسرعان ما خرت مدينة آمد ساجدة تحت أقدام الفرس فأباح قباذ المدينة لجنوده ، وجرت فيها مذبحة يشيب من هولها الوليد . ووقف قباذ الذى يخشى سفك الدماء ينظر إلى ضحاياه بلا مبالاة ، فتقدم منه قسيس شيخ وقال له :

ـــ إنه ليس جديرا بملك أن يقتل الأسرى .

فالتفت إليه قباذ وقال وهو غاضب :

ـــ لماذا أصررتم أنتم على قتالى !؟

فقال القسيس الشيخ فى هدوء :

ـــ لقد أراد الله أن يضع آمد بين يديك لا بتدبير منا ولكن بفضل شجاعتك .

فأمر الملك بوقف المذبحة ولكنه أباح نهب الأملاك واسترقاق جميع الأحياء من سكان المدينة ، وقد نهى عن هدم الكنائس أو تخريبها .

ولم يتبع قباذ بغاية الدقة قواعد الأخلاق المزدكية كما لم يتبع من قبل قسطنطين بدقة قواعد الأخلاق المسيحية .

وتحالف رجال الدين المجوس والأشراف وعامة الناس الذين ضاقوا بالدين الجديد وبقوانين قباذ ، وثاروا ثورة عارمة على مزدك وعلى الملك الذى اعتنق دينه ، وأصبح (الزند) كتابه المقدس بعد أن كانت (الأوستا) كتابه الكريم . وامتدت الثورة إلى القصر فألقى القبض على قباذ الزنديق ونصب الثوار

جاماسب أخا قباذ على العرش .

واجتمع الأشراف الذين كونوا مجلس شورى الملك تحت رئاسة جاماسب ليتداولوا فى مصير قباذ فقال قائل :

ـــ أرى قتل الملك المعزول .

ورفض آخرون ذلك الاقتراح وقالوا :

ـــ بل يحبس .

وسجن قباذ فى قلعة النسيان ، ومرت الأيام وإذا بامرأة جميلة آسرة تأتى فى سواد الليل إلى السجن وتغرى الحارس بجمالها ، ثم تنسل إلى السجن وتخفى قباذ زوجها فى ثيابها وينسل قباذ هاربا من سجنه .

وهام على وجهه حتى بلغ بلاط الخاقان فاستقبله استقبال صديق قديم وزوجه ابنته ، ثم أمده بجيش ليستعيد عرشه . وقد تعهده قباذ بأداء جزية إذا استتب له ملك فارس مرة أخرى .

ورأى جاماسب أن الناس انفضوا من حوله ، ولم يجد مدافعين عنه متحمسين له فآثر أن ينزل باختياره عن العرش لأخيه ، فدخل قباذ قصره دخول الظافرين وعفا عن جاماسب ولكنه لم يعف عن الذى أشار بقتله ، بل سفك دمه وألحقه بالغابرين .

وفترت حماسة قباذ لمزدك والمزدكيين إذ أحس أن تأييده للمذهب المزدكى أطاح بعرشه ولكنه رأى من الحكمة أن يقف على الحياد بين المجوس والمزدكيين ، وألا يثير مرة أخرى الزوابع التى اقتلعته .

وكان لقباذ ثلاثة أبناء يصلحون لولاية العرش من بعده ، وكان كاووس أكبرهم وقد عهد إليه قباذ بولاية طبرستان ، وكان كاووس بن قباذ من بنته سمبيكة ، وكان زام الأخ الثانى وقد فقد عينا من عينيه وهذا يحرم صاحبه من

ولاية الملك ، وكان الأخ الثالث كسرى وقد ولد فى أثناء فرار قباذ وقبل أن يصل إلى بلاط الخاقان .

وكان قباذ قد عهد بتربية ابنه كاووس إلى المزدكيين قبل ثورة الأشراف والمجوس عليه ، فشب كاووس مزدكيا مؤيدا بمزدك والمزدكيين ، فآثر قباذ لخلافته كسرى الصغير على ابنه الأكبر كاووس ، وما إن علم المزدكيون بهذه الرغبة حتى أحسوا أن الملك الذى كان سندهم يوما قد قلب لهم ظفر المجن ، فبدت العداوة سافرة بين قباذ شاهنشاه إيران والشيوعيين المزدكيين .

١٧

« لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور » .

وكان أهل سبأ يعبدون الله وحده مذ أسلمت ملكتهم مع سليمان لله رب تسقط مدرارا فى مناطق كثيرة فى شرقى اليمن وتندفع سيولها فى الوديان حتى تصل إلى مأرب تجرف فى طريقها كل شىء ، فقد رأوا أن يقيموا سدا يسيطر على مياه

مأرب تجرف فى طريقها كل شىء ، فقد رأوا أن يقيموا سدا يسيطر على مياه

السيول المتدفقة فلا تخرب ما يعترضها إذا اندفعت فى غزارة ، ويخزن المياه خلفه يصرفونها بقدر ، ويزرعون أرضهم وكانت أخصب أرض العرب .

وتم تشييد السد فى منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، وصار لسبأ جنتان عن يمين السد وشماله . وراح اليمنيون يفلحون الأرض ويعمرون البلاد ، فكان بينهم وبين الشام قرى ظاهرة فكانوا يسيرون من قرية إلى قرية فى الليل والنهار حتى يصلوا إلى الأرض المباركة آمنين : ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين » .

وطال على الناس الأمد فقست قلوبهم وراحوا يعبدون الأوثان والأصنام ، وعادوا إلى عبادة الشمس والقمر والنجوم وكفروا بأنعم الله وقالوا :

ـــ لا نعرف لله علينا من نعمة .

ولما كان الله قد كتب على نفسه الرحمة وشرع ألا يعذب الناس حتى يبعث إليهم رسولا ، فقد أرسل إليهم رسله يذكرونهم بنعمة الله عليهم وينذرونهم

عقابه ، فأعرضوا عنه ووضعوا أصابعهم فى آذانهم واستكبروا استكبارا ؛ وبطروا بأنعم الله وضاقوا بالراحة التى أسبغها الله عليهم وتمنوا أن يكون بينهم وبين الأرض المباركة مفاوز ومتاعب وأخطار فقالوا :

— ربنا باعد بين أسفارنا .

وظلموا أنفسهم واتخذوا من آيات الله هزوا ، أولئك لهم عذاب مهين .

وفى أوائل القرن السادس الميلادى كان عمرو بن عامر ملكا على مأرب ، وكان يلبس فى كل يوم حلة ثم يمزقها لئلا يلبسها أحد بعده فعرف بمزيقياء . وكان قومه أغنياء فتنتهم الدنيا فأعرضوا عن السماء ونسوا الله فأنساهم أنفسهم وكفروا بالله . « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات فى بحى لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » .

وجلس مزيقياء مزهوا بملكه يمد بصره إلى سد مأرب وإلى الجنتين اللتين عن يمين السد وعن شماله فيتهلل بالفرح ، وينظر إلى أولاده الذين يغدون فى القصر ويروحون فيتملكه الغرور ، ويتذكر ما فى خزائنه من أموال فيفيض قلبه بالكبر ، « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون » .

أنعم الله عليهم فقالوا : لا نعرف لله علينا نعمة ، فبعث إليهم رسله فكذبوهم ولجوا فى الكفر المبين ، فكان ذلك آية انتهاء سلطانهم وأن الله سيذهبهم ويأتى بخلق جديد .

دخلت طريفة الخير زوجة مزيقياء لتنام فى فراشها الوثير ، وما كاد الكرى

يمس جفنيها حتى رأت فى منامها أن سحابة غشيت أرضهم فأرعدت وأبرقت ثم صعقت فأحرقت كل ما وقعت عليه ، ففزعت طريفة لذلك فزعا شديدا ولم تستطع أن تتريث حتى يصبح الصباح ، فانطلقت إلى الملك وما إن رأته حتى قالت :

ـــ ما رأيت كاليوم أزال عني النوم ، رأيت غيما أرعد وأبرق وزمجر وأصعق ، فما وقع على شيء إلا أحرق .

فلما رأى ما داخلها من الفزع سكنها ولكن القلق استبد به ، فما كاد النهار ينتصف حتى انطلق هو وطريفة إلى سد مأرب وراحا يفحصان عن السد بأعينهما .

كان مكان خروج الماء سليما على أوثق ما يكون ليس به عيب ، فانطلق عامر وطريفة إلى ناحية الجنة اليسرى إلى العرم حيث يدخل ماء السيل ، فإذا البنيان يريد أن ينقض ، إنه لا يحتمل سيلا شديدا فقالت طريفة فى أسى :

ـــ والنور والظلماء ، والأرض والسماء ، إن الشجر لهالك ، وليعودن الماء كما كان فى الزمن السالك .

وعلم عمرو بن عامر أن الخراب سيحل بالبلاد فكتم ذلك وأجمع على بيع كل شيء له بأرض مأرب وأن يخرج منها هو وولده ، ثم خشي أن تنكر الناس عليه ذلك فعزم على الانتقال من بلاده بمكيدة دبرها ، فطلب أصغر أولاده وقال له :

ـــ إذا تحدثت بحضرة الناس فجارينى الحديث ورد على حديثى ، فأظهر الغضب عليك وألطمك فافعل بى مثل ذلك .

وأولم عمرو وليمة عظيمة ، وبعث إلى أهل مأرب أن عمرا قد صنع طعاما يوم مجد وذكر فاحضروا طعامه .

ووفد الناس إلى القصر ودخلوا قاعة الطعام ، وجلس عمرو بن عامر وقد ارتدى حلة جديدة وأجلس مالكا أصغر أولاده إلى جواره . ودار الحديث رخاء كالنسيم ثم التفت عمرو إلى ابنه مالك وأمره أن يفعل شيئا فأبى مالك أن يفعله ، فأظهر عمرو الغضب . ثم عاد عمرو وتحدث فإذا بمالك يعارض حديثه فثار عمرو ولطم ابنه ، فقام مالك ولطم أباه .

واكفهر الجو وساد الوجوم برهة ، وسرعان ما هب عمرو يتظاهر بأنه يريد الفتك بابنه ولكن الناس منعوه عنه ، فقال عمرو فى غضب :

— لا أقيم ببلد يلطم فيه وجهى أصغر ولدى ولأبيعن أموالى حتى لا يرث بعدى منها شيئا .

وغادر عمرو قاعة الطعام وهو يتظاهر بأنه سيموت كمدا وسينفجر من الغيظ ، وما كان يختفى عن أعين الناس حتى التفت بعضهم إلى بعض وقالوا :

— اغتنموا غضبة عمرو واشتروا منه قبل أن يرضى .

وابتاع الناس منه كل أمواله وقالت الأزد :

— لا نتخلف عن عمرو بن عامر .

فباعوا أموالهم ، وخرج عمرو بن عامر وأولاده وخرج الأزد معه وانطلقوا حتى نزلوا بلاد عك بين اليمن والحجاز . ودارت الحرب بينهم وبين عك وبدا أن استقرارهم فى تلك الأرض بات مستحيلا فعزموا على أن يتفرقوا فى البلاد . وجاءوا طريفة وقالوا لها :

— ماذا تأمرين ؟

قالت :

— عليكم الإجابة وعلى التبيين .

— فماذا تقولين .

— من كان منكم ذا هم بعيد ، وجمل شديد ، ومزاد جديد ، فليلحق بقصر عمان المشيد .

فانطلق الأزد إلى عمان ليكونوا أزد عمان ، ثم قالت :

— من كان منكم يريد الراسيات فى الوحل ، المطعمات فى المحل ، فليلحق بيثرب ذات النخل .

فانطلق إلى هناك الأوس والخزرج ، ثم قالت :

— من كان منكم يريد الخمر والخمير ، والملك والتأمير ، ويلبس الديباج والحرير ، فليلحق ببصرى والغدير .

فانطلق إلى الشام آل جفنة ثم قالت :

— من كان يريد الثياب الرقاق ، والخيل والعناق ، وكنوز الأرزاق ، والدم المهراق ، فليلحق بأهل العراق .

وانطلقت قوافل اليمن إلى عمان وإلى يثرب وإلى الشام وطريفة تقول :

— سيروا فلن تجتمعوا أنتم ومن خلفتم أبدا ، فهم لكم أصل وأنتم لهم فرع .

وتلبدت الغيوم فى شرق اليمن وراحت تسير كالجبال ، ثم برق البرق ورعد الرعد وهطلت الأمطار فجرت كالأنهار ، وراحت تزمجر وهى ترغى وتزبد وتجرف كل شىء فى طريقها وهى تتدفق فى الوديان ، حتى إذا ما بلغت العرم مدخل سد مأرب راحت تلطمه لطما شديدا ، وترتفع كالجياد الشهب فى الجو ثم تنحسر لتعاود ضغطها على مدخل السد مع السيل المنحدر من السفوح والوديان يحمل الدمار .

ووهن السد وعجز عن أن يقاوم نطح السيول ، فمال وما لبث أن انسحق وسرعان ما انهار ، وفاضت المياه وغمرت الجنتين ورأى الناس الطوفان فصاحوا فى هلع :

— سيل العرم .. سيل العرم .

وفروا مرعوبين لا يلوون على شيء ، وقد ذهل كل امرىء بنفسه عن ماله وولده . وراحت المياه تغرق الأرض وتلاطم الدور والقصور وتغمر كل شيء ، كأنما أقبلت لتطهر سبأ من الرجس وتحق العذاب على المجرمين .

وفى ذلك للمؤتسى أسوة ومأرب عفىَّ عليها العرم
رُخام بنته لهم حِمير إذا جاء مواره لم يرم
فأروى الزروع وأعنابها على سعة ماؤهم إذ قُسم
فصاروا أيادىَ ما يقدرو ن منه على شُرب طفل فُطم

« لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا ليالى وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآية لكل صبار شكور » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٨

كان اليهود يعيشون فى جماعات متفرقة فى تيماء وخيبر ويثرب قد خالطهم أحياء من العرب وعاشوا فى آطام وحصون ، فقد كانوا أغنياء يخشون غدر جيرانهم ويخافون أن ينقض بعضهم على بعض .. تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى .

وكان بنو قينقاع يسكنون فى حى خاص بهم فى إطامين يقعان فى القسم الجنوبى الغربى من يثرب ، وكانت لهم سوق عرفت بالصياغة ، فكان العرب من كل مكان يفدون إلى يثرب إلى البغايا صاحبات الرايات الحمر وكانت لهن سقيفة بطرف المدينة لتحصيل اللذة ، ومن ثم ينطلقون إلى سوق بنى قينقاع لشراء أساور الذهب والحلى لنسائهن .

وكان بنو قريظة يسكنون فى الأقسام الجنوبية من المدينة وكانوا يشتغلون بالزراعة والتجارة ، وكان يحلو لشيوخهم أن يقصوا على مر الأيام قصة فرارهم إلى يثرب ، كانوا يقولون :

ــ ظهر ملك الروم على بنى إسرائيل وملَك الشام ، فخطب إلى بنى هرون ، ولما كان ديننا لا يسمح إلا بزواج اليهودى من يهودية وينهى عن أن نزوج بناتنا إلى من ليس من ملتنا خاف آباؤنا أن يرفضوا طلبه ، فسألوه أن يشرفهم بإتيانه إليهم فأتاهم ففتكوا به وبمن معه ، ثم هربوا ليلحقوا من كان بالحجاز من بنى إسرائيل .

فإذا سألهم سائل :

— ومن أين جاء اليهود الذين كانوا بيثرب قبل أن يخطب ملك الروم إلى بني هرون ؟

كانوا يروون فى طلاقة قصة اضطهاد بختنصر لليهود وقتلهم وحملهم إلى بابل أسرى وفرار من استطاع الفرار إلى تيماء وخيبر ويثرب ، وكان ذكر بابل يعيد إلى أذهان الشباب قصة إستر القديسة التى زينها مردخاى وأدخلها على أخشويرش ملك فارس ليلهو بها وتلعب برأسه وتنقذ شعبها الذليل ، فإذا ما تجرأ شاب وسأل :

— وإذا كانت الشريعة تحرم زواج غير اليهودى من يهودية فلماذا زين مردخاى إستر وأدخلها فى حريم أخشويرش ؟ ولماذا قدسها اليهود إذا كان ما فعلته ليس من الدين ؟!

كان مثل ذلك الشاب ينهر أو يعرض عنه فى احتقار شديد ، أما إذا ألقى مثل ذلك السؤال على حبر من الأحبار الذين عركوا الحياة وعركتهم فكان يقول له فى هدوء :

— إن ما قامت به إستر تضحية عظمى فى سبيل شعبها ، وإن يهوه إلـٰه إسرائيل يقبل مثل هذه التضحيات ويثيب عليها .

ونزل بنو النضير على مذينيب ومهزوز ، وكان مذينيب واديا فى يثرب يسيل فيه ماء المطر فكان يهود هذه القبيلة يزرعون على المطر وكانوا أول من احتفر الآبار بالعالية وغرسوا الأموال وابتنوا الآطال والمنازل ، ونزل عليهم بعض قبائل العرب فكانوا معهم ، فاتخذوا الأموال وابتنوا الدور والحصون .

وكثر اليهود فى يثرب فصاروا نيفا وعشرين قبيلة ، ولما كانت الآطام هى عز أهل يثرب فهى الحصون التى يتحصنون بها إذا دهمهم عدو أو عدا بعضهم على بعض ، فقد أصبحت آطامهم تسعة وخمسين أطما وأصبحت آطام

النازلين عليهم من العرب ثلاثة عشر أطما .

وراحت كل قبيلة من قبائل اليهود تحاول أن تؤكد أنها من نسل رسول من الرسل أو نبى من الأنبياء أو سبط من الأسباط ، فقالت طائفة نحن من نسل هرون ، وقالت أخرى نحن من نسل يوسف ، وقالت طائفة ثالثة نحن من نسل داود ، وراحت كل طائفة تدلل على أن أصلها هو خير الأصول وأنها وحدها التى كتب لها أن تنام فى حضن إبراهيم . وأن الأرض التى لا رجعة منها أعدت لغيرها من اليهود ومن الأمم .

واتسعت الهوة بين اليهود واليهود فى يثرب فكانوا أعداء متنافرين ، وكادت الصلة بينهم وبين السماء تنقطع فقد تكدست فى أيديهم الثروات وشغلوا بإدارة أراضيهم وبتجارة الأسواق فانطفأ بريق الإيمان فى قلوبهم ، ولم يبق من الدين إلا تزمت المتزمتين وما تتحرك به الألسنة فى الأفواه .

وتحولت اليهودية إلى وثن أشد خطورة من الأوثان الأخرى التى تجسمها مخيلة الناس فقد كانوا يحسبون أنهم يعبدون الله بينما كانوا يعبدون أنفسهم غرورا ، وإن أية عقيدة دينية تتردى فى مثل ذلك الشرك إذا ما أصرت فى جمود على أنها المستودع الأوحد للحقيقة المطلقة التى أوحيت إليها .

« وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » .

وراح يهود يثرب يحتفلون بأعيادهم كما يحتفل بها كل يهود الأرض ، ففى

أول يوم من تشرين يحتفلون بعيد رأس هيشا ويقولون إن الله تعالى أمر إبراهيم بذبح ولده إسحاق فيه وفداه بذبح عظيم . وفى اليوم التاسع من تشرين قبل غروب الشمس يبدءون بالصوم العظيم ومدته خمس وعشرون ساعة ، ويحل لهم الإفطار بعد ساعة من غروب الشمس من اليوم العاشر ولهذا يسمى العاشور ، ويشترطون رؤية ثلاثة كواكب عند الإفطار وهو عندهم تمام الأربعين الثالثة التى صامها موسى عليه السلام ، ولا يجوز أن يقع عندهم فى يوم الأحد ولا فى يوم الثلاثاء ولا فى يوم الجمعة ، ويؤمنون بأن الله تعالى يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم ما خلا الزنا بالمحصنة وظلم الرجل أخاه وجحده لربوبية الله .

وفى الخامس عشر من تشرين يبدأ عيد « المظال » وهو ثمانية أيام ، يجلسون فيها تحت ظلال من جريد النخل وأغصان الزيتون وسائر الشجر الذى لا ينتشر ورقه على الأرض تذكارا منهم لإظلال الله تعالى إياهم فى التيه بالغمام .

وفى الخامس عشر من نيسان يحتفلون بعيد الفصح وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير وينظفون فيها دورهم من خبز الخمير ، فهى الأيام التى خلص الله تعالى بنى إسرائيل من فرعون فخرجوا إلى أرض التيه وجعلوا يأكلون اللحم والخبز والفطير وهم بذلك فرحون .

وبعد عيد الفطير بسبعة أسابيع يحتلفون بعيد الأسابيع وهى الأسابيع التى فرضت فيها الفرائض والتى خاطب الله فيها موسى وأنزل عليه الوصايا العشر وكمل فيها الدين .

وأحدثوا « عيد الفوريم » وهو اليوم الذى تمكنت فيه إستر من إقناع أخشويرش بقتل هامان عدو اليهود وأن يكتب لليهود بالأمان والبر والإحسان .

ولما كان ذلك العيد تكريما لإستر فقد جعلوه عيد سرور ولهو وخلاعة ،

يهدى بعضهم فيه إلى بعض ويصورون من الورق صور هامان ويملأون بطنها نخالة وملحا ويلقونها فى النار . « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » .

وجاء من اليمن من مزقهم الله كل ممزق الأوس وأخوه الخزرج وأهلوهم ، وراحوا يتلفتون فى يثرب فوجدوا اليهود وقد تمكنوا منها : الزراعة فى أيديهم ، والأسواق غاصة بتجارتهم ، وسادات العرب يأتون إليهم يقترضون منهم الربا الفاحش ، وآطامهم منتشرة هنا وهناك وقد وضعت فيها أموالهم وتكدست فيها الأسلحة والمؤن يتحصنون بها إذا ما أوقدت نار الحرب أو أراد بهم عدو شرا ، فنزل الأوس والخزرج ومن معهما فى ضنك وشدة ينتظرون ما تتمخض عنه الأيام .

عاش أوس بن حارثة دهرا وليس له ولد إلا مالك ، وكان لأخيه الخزرج خمسة أولاد : عمرو وعوف وجشم وكعب ، فلما حضره الموت قال له قومه :

ـــ قد كنا نأمرك بالتزوج فى شبابك فلم تتزوج حتى حضرك الموت !

فقال الأوس :

ـــ لم يهلك هالك ترك مثل مالك ، وإن كان الخزرج ذا عدد وليس لمالك ولد ، فلعل الذى استخرج العذق من الجريمة (النخلة من النواة) والنار من الوثيمة (من قدح حوافر الخيل) ، أن يجعل لمالك نسلا ورجالا بسلا .

ودخل عليه مالك فراح يوصيه :

ـــ يا مالك ! المنية ولا الدنية ، والعتاب قبل العقاب ، والتجلد لا التبلد ، واعلم ان القبر خير من الفقر وشر شارب المُشْتَف (المستقصى) ، وأقبح طاعم المقتف (الآخذ بعجلة) ، وذهابَ البصر خير من كثير النظر ، ومن كرم الكريم الدفاع عن الحريم ، ومن قل ذل ، ومن أمِرَ فل ، وخير الغنى القناعة ،

وشر الفقر الضراعة ، والدهر يومان يوم لك ويوم عليك ، فإذا كان لك فلا تبطر ، وإذا كان عليك فاصبر ، فكلاهما سينحسر ، فإنما تعز من ترى ، ويعزك من لا ترى .

ولو كان الموت يشترى لسلم منه أهل الدنيا ، ولكن الناس فيه مستوون : الشريف الأبلج واللئيم المُعَلْهَج (المتناهى فى الدناءة) ، والموت المقيت خير من أن يقال لك : هبيت (أحمق) ، وكيف بالسلامة لمن ليست له إقامة ، وشر من المصيبة سوء الخلف ، وكل مجموع إلى تلف ، وحياك إلـهك .

ونشر الله من مالك بعدد بنى الخزرج ، وانقسم الأوس إلى بطون وأفخاذ ، وانتشر الخزرج فى يثرب وفى الشمال منها حتى خيبر وتيماء ، وقد تحالفت الخزرج مع بنى قينقاع وتحالفت الأوس مع بنى قريظة .

ومرت الأيام وبطون الأوس وأفخاذها تتكاثر ، وبطون الخزرج تزداد قوة وكان أشهرَها بنو النجار ، وقد آلت إليهم تلك الدار التى بناها تبان أسعد تبع اليمن ، يوم أن أراد أن يحرق نخيل يثرب انتقاما ممن غدروا بابنه فنهاه أحبار اليهود عما هم بأن يفعله قائلين :

ــ أيها الملك إن هذه البلدة محفوظة ، فإنا نجد اسمها فى الكتاب طيبة ، وإنها مهاجر نبى من بنى إسماعيل .

فبنى تبع تلك الدار وقال :

ــ هذه الدار من تبان أسعد إلى النبى المنتظر لينزلها إذا قدم يثرب .

١٩

كانت رغبة قباذ أن يتولى ابنه الثالث كسرى عرش فارس من بعده ، وكان يخشى معارضة مزدك والمزدكيين الشيوعيين لتلك الرغبة فقد كان ابنه الأكبر كاووس من أتباع مزدك ، وكان أمل المزدكيين أن يئول إليه عرش البلاد ليقضوا على الزردشتيين ويفرضوا على الناس شيوعية الأموال وشيوعية النساء.

وراح قباذ يتدبر الأمر فتذكر أن يزدجرد أخذ تحت حمايته تيودوس الثانى ابن قيصر الروم لما كان طفلا قاصرا ليضمن له عرش آبائه ، فلماذا لا يضع قباذ ابنه كسرى فى حماية الإمبراطور جستين فيلتزم الإمبراطور التزاما أدبيا بالدفاع عن قضية كسرى ؟

واستراح قباذ للفكرة فعقد مع الإمبراطور جستين صلحا نهائيا ثم طلب إليه أن يتبنى ابنه كسرى . فقبل الإمبراطور طلب قباذ ولكنه اشترط ألا يتم التبنى بوثيقة مسطورة بل بالسلاح على الطريقة البربرية التى كانت شائعة بين البرابرة الجرمان فى أوروبا ، ومثل هذه الطريقة لا ترتب حقوقا قادمة كإعلان الحرب على من يناوئ سلطة كسرى ، فلم يقبل قباذ هذا الشرط وانقطعت المفاوضات .

وكان الجانب الفارسي فى هذه المفاوضات مكونا من سياوش وكان حتى ذلك الوقت أقوى رجل بين سادات فارس ، ومن ماهبود وكان عظيما آخر من عظماء الدولة وكان ينفس على سياوش مكانته ، فراح يتهمه بأنه كان السبب فى إخفاق المفاوضات .

وانعقد المجلس الأعلى لمحاكمة سياوش على خيانته العظمى ، وكان أعضاء المجلس يحقدون عليه لأنه كان يؤمن بآلهة أخرى غير آلهة فارس ولأنه لما ماتت زوجه لم يترك جثتها على قبر الصمت حتى يلتهمها جوارح الطير بل دفنها فى التراب ، فنجس بذلك مادة من مواد الآلهة . وحكم المجلس بإدانة سياوش ولكنه فر من سجنه ، وخامرت قباذ الشكوك وراح يؤكد لنفسه أن ذلك كان بفعل المزدكيين وأنه أصبح أمام مزدك وأتباعه وجها لوجه .

لم يعد هناك مفر من أن يرفع كل من قباذ ومزدك القناع عن وجهه وبدت العداوة سافرة بينهما ، فانضم قباذ صراحة إلى الدين الزردشتى وراح يؤيد المجوس ويحارب معهم من كانوا إخوانه فى العقيدة إلى الأمس القريب .

وكانت المبادئ الشيوعية قد بدأت تتأصل فى السوقة وكانوا منذ أجيال فى ضيق من ظلم الطبقات الممتازة ، وقد انتشرت هذه المبادئ بطيئة أول الأمر ثم لم تلبث أن أسرعت فلما أحس السوقة القوة رفعوا حجاب الأدب فظهر قوم لا يتحلون بشرف الفن أو العمل ، لا ضياع لهم موروثة ولا حسب ولا نسب ولا حرفة ولا صناعة ، عاطلون ، مستعدون للغمز والشر وبث الكذب والافتراء ، وإن كانوا يحيون فى رغد من العيش وسعة فى المال .

واقتحم الثوار قصور الأشراف ناهبين الأموال مغتصبين الحرائر ، ووضعوا أيديهم على الضياع ولكن الأراضى الزراعية قد تلفت وحاق بها البوار لأن السادة الجدد لا يعرفون الزراعة .

وكان المزدكيون الشيوعيون يوطدون أقدامهم فى البلاد بينا كان قباذ مشغولا بحرب الروم وبتحريض المنذر بن النعمان ملك الحيرة على التوغل فى أرض الروم ، فسار بجيوشه واستولى على أرض الخابور ونصيبين وانطلق حتى بلغ حمص وأنطاقية ، ثم قفل عائدا إلى الحيرة يحمل الأسلاب والغنائم . وقد

زعم الرهبان أنه قتل عددا كبيرا من السكان وقال قائل منهم إنه اختار من بين الأسرى أربعمائة راهبة أخذهن لنفسه ، وقال آخر إنه ضحى بأربعمائة راهبة للعزى .

كان قيصر الروم يطمع فى أن يعقد هدنة أو معاهدة مع المنذر وكان يبعث إليه برسله بين الحين والحين ، فقد كتب إليه ذات يوم يطلب منه أن يخرج من فى أرضه من القائلين بطبيعة المسيح الواحدة ، وبعث إليه أكثر من مرة برسله لإبرام معاهدة بينه وبين الرومان ، ولكن ذلك الأمل لم يتحقق ، وأوجس قباذ من المنذر خيفة وبات يخشى توسع نفوذه .

وظهر فى أرض العراق الحارث الكندى طامعا فى ملك المنذر وفى ملك عرب العراق ، فراح قباذ يتصل بالحارث الكندى سرا لما بدأ ينازع المناذرة على ملكهم ولم يمد يده لعون المنذر ، فسقطت الحيرة وأصبح الحارث بن عمرو الكندى ملكاً عليها . وقد أحس ضعف قباذ فحرض بعض رجاله على التحرش برجال الحدود ، ففزع قباذ وأرسل إلى الحارث يقول له :

ـــ إن لصوصا من لصوص العرب قد أغاروا علينا .

وطلب أن يوافيه فذهب الحارث الكندى إليه ، فقال له قباذ :

ـــ لقد صنعت صنيعا ما صنعه أحد من قبلك .

فقال له الحارث :

ـــ ما فعلت ولا شعرت ولكنها لصوص من لصوص العرب ، ولا أستطيع ضبط العرب إلا بالمال والجنود .

ـــ فما الذى تريد ؟

ـــ أريد أن تطعمنى من السواد . أتخذ به سلاحا .

فأمر له بما يلى جانب العرب من أسفل العراق ، فلما رأى الثوار الشيوعيون

ضعف الدولة ازدادوا عتوا وعارضوا قباذ معارضة جريئة ، ورفضوا علانية رأيه فى وراثة العرش من بعده .

كان مزدك وأعوانه يريدون تولية حليفهم كاووس فرأوا أن يسلكوا السبيل الذى سلكه رجال الدين على مر العصور منذ أن شرع قسطنطين مبدأ المجامع الدينية والمجالس العلمانية ، فقرروا أن يعقدوا مؤتمرا دينيا تدور فيه المناظرات بين المزدكيين وأعوان الملك يتقرر فيه رأى الأغلبية فى موضوع الجدال .

ونشط المزدكيون وراحوا يدعون أعوانهم إلى حضور المناظرة الرسمية ، وراح قباذ يجتمع بالزردشتيين ورجال الدين يديرون قداح الرأى بينهم ، حتى إذا وافى ميعاد المناظرة دخل مزدك وحوله رجاله وأقبل قباذ يحف به الموبدان موبد وأسقف النصارى ، وقد كان المسيحيون يعاونون الزردشتين على المزدكية ورجال الدين ، ووقف كسرى على رأس الجند الذين أحاطوا بمكان الاجتماع .

ورأس قباذ الاجتماع وجلس مزدك بين أعوانه وابتدأت المناظرات ، فقام مزدك وتحدث عن رسالته وقال إنه النبى المنتظر الذى بشر به زرادشت والمسيح ، وراح يبسط تعاليمه . وما إن انتهى من مقالته حتى انبرى له أقوى المناظرين الزردشتيين حجة: ابن ماهداذ، ونيوسابور، وآذر—مهر، وقالوا له:

— إن زرادشت أوصى بأن نستمسك بما جاءنا به إلى أن يأتى صاحب الجمل الأحمر من بلاد العرب[1] وأنت من فارس ولست من بلاد العرب ، وقد جاء فى كتاب ساسان الأول إمبراطورنا العظيم أنه حينما يرتكب الفرس

---

(١) من كتاب « سياستنامة » لنظام الملك ، فصل ٤٤ .

المعاصى سيظهر رجل من العرب فيأخذ سرير الملك ويقع المذهب فى قبضته ويصير الرؤساء مرءوسين له ، وأنت منا لا تمت إلى العرب بسبب .

ويقدم علماء الفلك وراحوا يناظرون مزدك وأعوانه ويؤكدون أن النبى المنتظر لم يأت بعد زمانه ، وما انتهى الفلكيون من مناظرتهم حتى قام أسقف نصارى فارس يؤكد أن مزدك ليس الفارقليط الذى بشر به المسيح ، فالفارقليط مثل موسى ومن أبناء إخوته يضع الله كلامه فى فمه . واستمر الأسقف يتدفق فى حديثه فقد كان يعرف حقيقة النبى الذى سيرسله الله إلى الأمم كما يعرف نفسه .

وأرتج على أنصار مزدك وغلبوا فى المؤتمر الكبير الذى دعوا إليه ، ولاح الظفر فى وجه قباذ واكفهر وجه مزدك وبان فيه الخسران المبين ، وانتشر خبر هزيمة مزدك حتى بلغ كسرى والجند الذين كانوا يحرسون المكان فانقضوا على المزدكيين وانهالوا عليهم بأسلحتهم ، فقتل مزدك وهلك رؤساء المذهب المزدكى فصار الدهماء الشيوعيون بلا نبى وبلا زعيم .

وأباح قباذ دم المزدكيين الذين كان الزند كتابهم المقدس ، فنسبوا إليه فعرف المزدكى بالزندى ثم حرفت إلى زنديق ، فبدأت المذابح وسالت دماء الزنادقة وصودرت أملاكهم .

ورأى المنذر بن النعمان الفرصة سانحة لاستعادة ملكه ، فعبأ جيشا ثم انطلق إلى الحيرة لقتال الحارث الكندى الذى اغتصب منه ملك المناذرة . ولما كان المنذر محاربا خبيرا بفنون الحرب فقد انتصر على الحارث بن عمرو الكندى ، واسترد ملك آبائه ووضع نفسه مرة أخرى فى خدمة البيت الفارسى .

قضى قباذ على المزدكية فلم تعد هناك قوة تعارضه فى تنصيب ابنه كسرى ملكا على فارس من بعده ، فاستدعى ماهبود المستشار الأمين للملك وأمره أن يكتب وصيته بأن يكون كسرى خليفته من بعده ، فلما كتب ماهبود الوصية ختمها الملك ثم سلمها إليه وهو سعيد .

٢٠

عرفت اليمن اليهودية يوم أن أسلمت بلقيس ملكة سبأ مع سليمان لله رب العالمين ، وقد ظل الحميريون على دين التوحيد أمدا طويلا ، فلما طال عليهم العهد قست قلوبهم وعادوا إلى عبادة القمر والشمس والنجوم فأصبحت الوثنية دين السبئيين والحميريين وسائر قبائل اليمن .

واضطهد الرومان اليهود وراح القائد الرومانى طيطس يذيقهم العذاب ألوانا ، وقوض هيكلهم المقدس كما تنبأ بذلك السيد المسيح ، فهام اليهود على وجوههم وانطلقوا إلى الجنوب حتى استقروا فى أرض سبأ ونشروا اليهودية بين العرب .

وتسلل اليهود إلى حكومة حمير . ولما كانت لليهودية جذور عميقة منذ أيام بلقيس فى أرض اليمن فقد كان الحميريون يلقون أسماعهم إلى أحبار اليهود ويستجيبون إلى دعوتهم بصدور منشرحة وقلوب عامرة باليقين . وقد ازدهرت اليهودية فى اليمن يوم أن دخل فيها ذو نواس ملك اليمن وحمير وسبأ وذو ريدان وتهامة .

واهتمت الحكومة البيزنطية بنشر المسيحية بعد أن اعتنق قسطنطين النصرانية ، فراح قسطنطين يعمل على نشر ذلك الدين لتحقيق مآرب سياسية واقتصادية ، ولكسب قلوب رعاياه المؤمنين تقوية لمكانته وبسط سلطاته على الكنيسة والرعية . فراح المبشرون يطوفون بلاد العرب للتبشير وقد تمكنوا من إنشاء ثلاث كنائس فى ظفار وعدن وهرمز .

وقد أرسل قسطنطين وفدا برئاسة « ثيلوفيلوس » إلى ملك حمير يدعوه إلى المسيحية ، ولم يكن هدفه دينيا فحسب بل كان يطمع فى أن يعقد مع الحميريين معاهدة تجارية ، ويحقق منافع اقتصادية وسياسية بأن تزدهر تجارته البحرية ويضم الحميريين إلى معسكره لمناوشة الفرس أعدائه وأعداء المسيحية .

وكانت الرسائل تتبادل بين القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ومقر قياصرة الروم وبين ملوك حمير ونجاشي الحبشة ، وكانت السفارات تمشي بينهم وكانت تتدثر برداء الدين بينا كان هدفها الرئيسى ضم حمير والأحباش إلى معسكر البيزنطيين .

وفى أيام يزدجرد الأول قام حيَّان وكان تاجرا من كبار تجار نجران بالسفر إلى القسطنطينية ثم ذهب منها إلى الحيرة وهناك تلقى المسيحية . وكان نصارى الحيرة من النساطرة الذين يؤمنون بطبيعة المسيح الواحدة فاعتنق حيان المسيحية ولما عاد إلى نجران راح يعمل على نشر دينه .

وفى عهد البطريق « سيلاس » ، أى فى الفترة ما بين ٥٠٥ ـــ ٢٥٣ م هرب لاجئون من اليعاقبة ممن يؤمنون بلاهوت المسيح وناسوته إلى الحيرة ، غير أن النساطرة أجلوهم عنها فذهب فريق منهم إلى نجران فراحوا يعملون على نشر مذهبهم بين سكانها .

وأيام الملك شرحبيل ينكف ملك اليمن وسبأ وريدان وتهامة ، قدم إلى نجران قديس يدعى « أزفير » وأقام كنيسة ورفع الصليب وراح يدعو إلى المسيحية ، فاستاء من ذلك « ذو ثعلبان » و« ذو قيفان » وكانا قيلين على نجران من قبل شرحبيل ، وأرسلا رجالهما إلى المدينة لهدم الكنيسة وإنزال الصليب والقبض على القديس ، فانطلق الرجال وقوضوا الكنيسة وقبضوا على « أزفير » وألقوه فى غياهب السجن فراح الرجل يدعو إلى دينه بين السجناء فآمن له قوم

من نزلاء السجن ، وبلغ ذلك الملك شرحبيل فغضب وبعث إلى القيلين اللذين كانا فى نجران أن أرسلا إلى ذلك الرجل الذى فتن الناس .

وسار « أزفير » من نجران قاصدا ظفار عاصمة الحميرين وكان محوطا بالحراس فراح طوال الرحلة يدعوهم إلى دينه ، وكان كلما نزل فى مكان بشر بالمسيحية فآمن له بعض من رافقوه وبعض من ألقوا إليه سمعهم وهو فى الطريق .

وبلغ أزفير ومن معه ظفار وانطلقوا إلى قصر الملك ، فلما رأى شرحبيل الرجل الذى فتن الناس راح ينهره ، ثم عرض عليه اليهودية وأخذ يجادله فى الدين ، وظل أزفير متمسكا بمسيحيته فراح يغريه بالذهب والفضة فقال أزفير :

ــ الذهب والفضة فانيان ، أما ساكن السماء فباق .

وراح أحد أحبار اليهود يحرض الملك على قتله فأمر شرحبيل بأن يرسل إلى نجران ، وأن يقتل هناك ليكون عبرة لمن يخرج على دين قومه أو يقدم من بلاد عربية لإفساد الناس ، فلما بلغ نجران انقض عليه اليهود ومزقوه كل ممزق .

كانت النصرانية تتسرب إلى العربية الجنوبية من البر والبحر من ديار الشام ومن العراق فى ركاب القوافل التجارية المستمرة التى كانت بين الشام والعراق واليمن ، ومن اليونان وإيطاليا على ظهور السفن اليونانية والرومانية ، ومن أكسوم عاصمة الحبشة على متون البحر أو من شعاب الجبال . وكان أهل حمير من يهود ومتهودين ووثنيين يقاومون انتشار ذلك الدين ويضطهدون أهله ، وكان العدوان اللدودان الفرس والروم يعملان على نشر المسيحية فى اليمن وإن كان كل منهما يحاول أن ينشر مذهبه الدينى ليجر الحميريين إلى معسكره ، فكانت الفرس تدعو إلى مذهب النساطرة بينا كانت القسطنطينية تبذل كل جهد لنشر مذهب اليعاقبة بين العرب .

وتصارعت اليهودية والنصرانية فى أرض اليمن كل فريق يحاول أن يبسط

سلطان دينه على الفريق الآخر ، وكانت المناظرات تنقلب غالبا إلى صراع بين أتباع الديانتين تسيل فيه الدماء . وقد كان قياصرة الروم وأكاسرة الفرس يعملون على إضرام نار العداوة والبغضاء بين اليمنيين ليحققوا مآربهم السياسية والاقتصادية .

كان الروم يضطهدون اليهود فكانوا يسومونهم سوء العذاب ، بينا وجد اليهود من ملوك الفرس الساسانيين تسامحا مذ أيام قورش وصار لهم نفوذ فى إمبراطورية فارس بعد أن استولت إستر على لب أخشويرش ومكنت لأبناء دينها فى البلاط الفارسى ودواوين الدولة ، فكان اليهود يضعون كل ما أوتوا من قوة فى خدمة أكاسرة فارس ويتعاونون معهم على زعزعة سلطان الروم فى كل مكان .

ورجحت كفة اليهود فى اليمن يوم أن تهود ذو نواس ملك اليمن وتعصب لدينه ، فراح يرصد الأحداث التى تجرى فى بيزنطة وينفعل بالاضطهاد الذى يقع على إخوانه فى الدين ويكيل للنصارى الذين يعيشون فى ملكه الصاع صاعين انتقاما منهم للعذاب الذى يقاسيه إخوانه اليهود فى إمبراطورية الروم .

وقامت المناظرات بين الأحبار والرهبان فى نجران واشتد كل فريق فى نقد دين الفريق الآخر ، ولم يكن ذو نواس ممن يؤمنون بقرع الحجة بالحجة بل كان يرى وهو المتعصب لدينه تعصبا شديدا أن لا مكان للنصارى فى أرض اليمن وأن لا بد من القضاء عليهم قضاء مبرما . ولما كان متأثرا بقسوة التوراة التى كتبت فى بابل أيام السبى فقد أمر بحفر أخدود وأن تؤجج النار فيه وأن يلقى بالنصارى فى الجحيم .

وحفر الأخدود فى نجران واشتعلت فيه النيران وارتفعت ألسنتها فى السماء ، وانقض اليهود والمتهودون من حمير والوثنيون اليمنيون على النصارى

يذبحون الرجال والنساء والأطفال ويلقون بهم فى جهنم التى أوقد نارها ملكهم المتعصب المفتون .

﴿ والسماء ذات البروج . واليوم الموعود . وشاهد ومشهود . قُتِلَ أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له مُلك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد ﴾ .

قتل ذو نواس المؤمنين والمؤمنات نصارى نجران الذين كانوا من النساطرة القائلين بربوبية الله ورسالة السيد المسيح ، ولم يكتف بقتل نصارى مملكته بل عزم على أن يقتفى آثارهم ويقطع دابرهم فى كل أرض له فيها أصدقاء وحلفاء .

وكانت الصلة طيبة بين ذى نواس والمنذر بن النعمان ملك الحيرة ، وكان المسيحيون النساطرة منتشرين فى الحيرة وبأيديهم مقاليد حكمها ، وعلى الرغم من عزم ذو نواس على أن يبعث وفدا إلى المنذر يخبره بما فعله بنصارى اليمن ويطلب منه أن يستأصل شأفة النصارى من أرضه .

وأوفد ذو نواس إلى المنذر وفدا وبعث معه برسالة ، وفى نفس الوقت بعث يوسطينوس الأول ملك الروم بوفد إلى ملك الحيرة ، وانطلق الوفدان وكل منهما يقصد الخورنق قصر ملوك الحيرة العجيب .

وبلغ رسل ذى نواس الحيرة فى نفس الوقت الذى دخلها فيه إبراهيم ومارشمعون أسقف بيت أرشام فيمن دخلها من وفد ملك الروم . ودخل الوفدان على المنذر بن النعمان وراح رئيس وفد اليمن يقرأ رسالة ذى نواس إلى أخيه ملك الحيرة وقد سرد فيها ما فعله بالنصارى وما أنزل بهم من صنوف العذاب ، وكان وفد الروم يصغون فى ضيق وقد ملئوا رعبا مما حاق بإخوانهم فى الدين من اضطهاد .

والتمس وفد ذى نواس من المنذر بن النعمان أن ينزل بالمسيحيين ما أنزله مولاهم بهم من عذاب ، وقالوا له إن سيدهم ملك حمير يسره أن يحمل إلى أخيه ملك الحيرة الأموال إذا ما قتل من فى مملكته من القائلين بطبيعة المسيح الواحدة أو من القائلين بناسوت المسيح ولاهوته على السواء . فما كان ذو نواس يؤمن بالمسيح ولا بالمسيحية وما كان كأباطرة الرومان الذين يطلبون من ملك الحيرة إخراج من فى أرضه من القائلين بالطبيعة الواحدة .

وأحس مارشمعون نارا تكوى فؤاده ولم يستطع صبرا فأوفد رسولا إلى نجران ليأتى له بالخبر ، فلما عاد الرسول بنبأ الفاجعة راح شمعون يدون كل ما سمع من وفد ذى نواس وكل ما جاء به رسوله من أنباء ، ثم بعث برسالة إلى الأساقفة فى الأرض وإلى أساقفة الروم ليعلن للملأ الفاجعة التى نزلت بإخوانهم فى الدين فى أرض العرب .

وبعث شمعون برسالة إلى بطريق الإسكندرية ليتوسط لدى نجاشى الحبشة فى مساندة نصارى اليمن ، ووجه نداء إلى أحبار طبرية ليخلصوا من بقى من المسيحيين من براثن الحاكم اليهودى المتعصب الذى يتلذذ بسفك دماء النصارى .

وراحت الأناشيد الكنائسية تنظم فى رثاء شهداء نجران ، وراحت تتلى قصة القديس « الحارث » شهيد نجران فى كنائس قنسرين والرها وبيزنطة والإسكندرية وبيت المقدس ، وسارت السفارات بين الملوك النصارى وبدا أن معركة وشيكة الوقوع بين قوى النصرانية وقوى ذى نواس انتقاما لشهداء نجران .

٢١

كان المغيرة بن قصى فريدا فى حسنه وجماله حتى قيل عنه قمر البطحاء ، وكانت أمه حبى بنت حليل تتعبد لمناف وكان من أعظم أصنامهم ، فدفعته أمه إلى مناف فغلب عليه عبد مناف .

وشب عبد مناف سيدا فى قريش فهو ابن قصى الذى اجتمعت له الرفادة والحجابة والسقاية واللواء وصاحب دار الندوة ، وتزوج عاتكة بنت مرة بن هلال فولدت له توأمين هاشما وعبد شمس ، وكانت رجل هاشم ملتصقة فى جبهة عبد شمس فجىء بالطبيب فلم يقدر على نزعها إلا بجراحة ، فلما سال الدم وجمت الوجوه وسرى بين الموجودين همس :

ــ سيكون بين ولديهما دماء .

وكان اسم هاشم يوم أن ولدته أمه عمرا فما كان قد عرف بعد بهاشم ، وكبر عمرو والنور يتألق فى وجهه فكان لا يراه إنسان لا ينجذب إليه ، وتزوج عمرو قيلة بنت عامر بن مالك الخزاعى فأنجبت له أسدا . وكانت قريش فى ذلك الوقت إذا اشتد بأحدهم الجوع أغلق بابه عليه وعلى عياله حتى يموتوا جوعا ترفعا عن ذلة السؤال وخساسة الاجتداء ، وقد عرف ذلك بالاعتقاد .

وكان لأسد صديق من بنى مخزوم ولد معه وكان يحبه ويلعب معه ، وفى ذات يوم التقى أسد بصديقه فألفاه يبكى فقال له :

ــ ما الذى أبكاك ؟

فقال الصبى وهو يشرق بدموعه :

ـــ نريد أن نعتقد .

وملئ قلب أسد رعبا فقد احتلت ذهنه صورة صديقه الحميم وهو يموت من الجوع ، فدخل أسد على أمه يبكى فهرعت إليه تسأله :

ـــ مالك ؟

فقال أسد لأمه : إن أهل صديقه المخزومى يريدون أن يعتقدوا .

فأرسلت إليهم بدقيق وشحم فعاشوا فيه أياما ، ثم عاد صديق أسد يبكى فقال له أسد :

ـــ مالك ؟

فقال له صديقه :

ـــ إن أهلى يريدون أن يعتقدوا .

ودخل أسد على أبيه يشكو إليه جدب الناس فقام هاشم خطيبا فى قريش فقال :

ـــ إنكم أجدبتم جدبا تقلون فيه وتذلون ، وأنتم أهل حرم الله وأشرف ولد آدم والناس لكم تبع .

قالوا :

ـــ نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف .

فشرع لهم رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام للتجارة ، وراح يقسم أرباح التجارة على الأغنياء والفقراء ليسعد قومه : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقكم وإياهم » .

وآلف هاشم ملك الشام وأخذ منه خيلا فأمن به فى تجارته إلى الشام ، وآلف أخوه عبد شمس النجاشى ملك الحبشة وآلف أخوه المطلب ملك

حمير ، وآلف أخوه نوفل إمبراطور فارس فسموا المتجرين ، فراحت تجر قريش تختلف بخيل هؤلاء الإخوة فلا يتعرض لهم أحد . وتألق أبناء عبد مناف فى مكة حتى قال فيهم الشاعر :

يأيها الرجـل المحول رحلـه ... هلا نزلت بآل عبد منـاف

الآخذون العهد من آفاقهـا ... والراحلون لرحلة الإيلاف

والرائشون وليس يوجد رائش ... والقائلون هلم للأضيـاف

والخالطون غنيهم بفقيرهـم ... حتى يصير غنيهم كالكـافى

« لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

وأهل هلال ذى الحجة فقام هاشم صبيحته وأسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ، فاجتمع الناس إليه فقال :

ـــ « يا معشر قريش إنكم سادة العرب ، أحسنها وجوها وأعظمها أحلاما وأوسط العرب أنسابا وأقرب العرب إلى العرب أرحاما . يا معشر قريش إنكم جيران بيت الله أكرمكم الله بولايته وخصكم بجواره دون بنى إسماعيل ، وإنكم يأتيكم زوار الله يعظمون بيته فهم أضيافه ، وأحق من أكرم أضياف الله أنتم ، فأكرموا ضيفه وزواره فإنهم يأتون شعثا غبرا من كل بلد على ضوامر كالقدحَ ، فأكرموا ضيفه وزوار بيته ، فورب هذه البنية (الكعبة) لو كان لى مال يحتمل ذلك لكفيتكموه ، وأنا مخرج من طيب مالى وحلالى ما لم يقطع فيه رحم ولم يؤخذ بظلم ولم يدخل فيه حرام .

فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل . وأسألكم بحرمة هذا البيت أن لا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله وتقويتهم إلا طيبا لم يؤخذ ظلما ولم يقطع فيه رحم ولم يؤخذ غصبا » .

فراح رجال قريش يخرجون أموالهم الطيبة ويضعون ما يخرجونه فى دار الندوة ، فكان هاشم يصنع للحجاج طعاما حتى يغادروا مكة .

وأصاب قومه أزمة شديدة فكره أن يكلف قريشا أمر الرفادة ، فذهب إلى الشام بجميع ماله فاشترى به كعكا ثم عاد إلى قومه فهشم ذلك الكعك هشما وصنع منه طعاما يشبه الثريد ، فقال الناس :

ــ هاشم .. هاشم .

فسمى هاشما بعد أن كان اسمه عمرا .

وخرجت عير قريش إلى يثرب وكان هاشم بن عبد مناف سيد القافلة . وما إن حطت القافلة فى سوق يثرب حتى وقعت عيناه على امرأة جميلة واقفة على شرف من الأرض تبيع تجارة لها ، فدنا هاشم منها وسأل بعض من كان عندها :

ــ من المرأة ؟

ــ سلمى بنت عمرو .

ــ ممن ؟

ــ من بنى عدى بن النجار .

وراح هاشم يسأل عنها فعلم أنها كانت عند أحيحة بن الجلاح وأنها ولدت له عمرو بن أحيحة وأن زوجها قد مات ، وأنها لا تنكح الرجال لشرفها فى قومها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها إذا كرهت رجلا فارقته .

وتقدم هاشم إليها وتزوجها فولدت له غلاما فى مقدم رأسه شعر أبيض فسمته شيبة ، وأراد هاشم أن يعود إلى مكة فتركه عندها وقد ربط بين مكة ويثرب ، بل بين شرف عدنان وشرف قحطان .

وراح هاشم يحمل ابن السبيل ويؤدى الحقوق ويبذل الجهد ليريح أهله

وحجاج بيت الله ، فحفر بئرا فلما انبعث منها الماء قال :

أنبطت بئرا بماء قلاس جعلت ماءها بلاغا للناس

وحفر عبد شمس بن عبد مناف الطوى بأعلى مكة ، وراحت كل قبيلة من قريش تحفر بئرا فى رباعها فحفر أمية بن عبد شمس بئرا وسماها جفر مرة بن كعب .

وراح رجل يتمثل بشعر أحيحة بن الجلاح :

وما يدرى الفقير متى غناه ولا يدرى الغنى متى يعيل (يفتقر)

فتذكر زوجه سلمى وابنه شيبة وملء وجدا ، فشد الرحال إلى يثرب ليطفئ نار الشوق ويضم ابنه الحبيب إلى صدره ، فلما رأى شيبة بين غلمان بنى النجار ود لو يحمله إلى مكة لينشأ فى قريش وفى حمى الكعبة ، ولكنه لما دخل على سلمى رق قلبه وقرر أن يدعه إلى جوارها لكأنما لم يشأ أن يفجعها فى زوجها وفى فلذة كبدها .

وراح رجال من قريش ورجال من خزاعة يتفاخرون ، ورأى الفريقان أن يحتكموا إلى هاشم فخطبهم فقال :

ـــ أيها الناس ، نحن آل إبراهيم وذرية إسماعيل وبنو النضر بن كنانة وبنو قصى بن كلاب وأرباب مكة وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب ومعدن المجد ، ولكل فى كل حلف يجب عليه نصرته وإجابة دعوته إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة وقطع رحم .

يا بنى قصى أنتم كغصن شجرة أيهما كسر أوحش صاحبه ، والسيف لا يصان إلا بغمده ، ورامى العشيرة يصيبه سهمه ، ومن أمْحَكه (أغضبه) اللجاج أخرجه إلى البغى .

أيها الناس . الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمعروف كنز ، والجود سؤدد ،

والجهل سفه ، والأيام دول ، والدهر غُير (متقلب) ، والمرء منسوب إلى فعله ، ومأخوذ بعلمه ، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء ، وأكرموا الجليسَ يعمر ناديكم ، وحاموا الخليط يرغب فى جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة ، وإياكم والأخلاق الدنية فإنها تضع الشرف وتهدم المجد ، وإن نهنهة الجاهل (زجره) أهون من حزيرته ، ورأس العشيرة يحمل أثقالها ، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به .

فقالت قريش :

ـــ رضينا بك .

وأذعن له الفريقان بالطاعة ، ولكن ابن أخيه أمية بن عبد شمس حسده فقد عجز عن أن يجاريه فى جوده وكرمه وكياسته وشجاعته . وزاد فى غضبه عليه أن ألسنة العرب على اختلافهم فى القبائل لهجت بالثناء عليه فنشبت العداوة بين أمية وهاشم . وفى ذات يوم جاء أمية إلى عمه وأراد منافرته فكره هاشم ذلك لنسبه وقدره ، ولكن قريشا أبت إلا أن تحكم الكاهن الخزاعى بينهما فمن يخذله الكاهن ينحر ببطن مكة خمسين ناقة سود الحدق ، ويجلو عن مكة عشر سنين .

وخرج هاشم فى نفر من أصحابه وخرج أمية بن عبد شمس فى نفر من خاصته فنزلوا على الكاهن ، فقال قبل أن يخبروه خبرهم :

ـــ والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر ، لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر .

وتهللت أسارير أنصار هاشم فقد حكم الكاهن الخزاعى لهاشم على ابن

أخيه ، واربد وجه أمية وغض بصره ، ولم يكتف الكاهن الخزاعى بما قال بل التفت إلى أمية وقال :

ـــ تنافر رجلا هو أطول منك قامة ، وأعظم منك هامة ، وأحسن منك وسامة ، وأقل منك لامة ، وأكثر منك ولدا وأجزل منك صفرا ؟

فقال أمية :

ـــ من انتكاث الزمان أن جعلناك حكما .

وساق هاشم الإبل ونحرها ببطن مكة وأطعمها الناس ، وخرج أمية إلى الشام ليقيم بها عشر السنين ، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية ، وكانت بذرة الكراهية التي ستنمو على مر الأيام بين بنى هاشم وبنى أمية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢٢

مات أنسطاسيوس إمبراطور الروم ، وقبل أن يقبر نسجت فى القصر مؤامرة انتهت برفع جندى أمى من اليريا يقال له يوسطينوس إلى العرش ، وقد جاء معه إلى البلاط الرومانى يسطنيانوس ابن أخيه ، وما هى إلا أيام قليلة حتى كان يسطنيانوس يقوم بأعمال نائب قيصر .

وفى عام ٥٢٧ م قضى يوسطينوس نحبه وتبوأ يسطنيانوس عرش الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وراح يبعث الجيوش من القسطنطينية لاسترداد إفريقية من الوندال وإيطاليا من القوط الشرقيين وأسبانيا من القوط الغربيين ، ولحرب فارس عدو الرومان اللدود .

وكان يسطنيانوس قد تزوج ثيودورا وكانت ممثلة قبل أن ترفع إلى مكانة زوجة الإمبراطور ، وكانت شجاعة صافية الذهن لا تتمسك بالمثل كثيرا ، فكانت عونا له بل كانت قوتها تفوق قوته وسلطانه .

وكان يسطنيانوس يؤمن بلاهوت المسيح وناسوته فأراد أن يترك أثرا دينيا هندسيا يفوق هيكل سليمان ، فأمر ببناء أيا صوفيا كنيسة الحكمة المقدسة ، وما انتهى من بنائها حتى تهلل بالفرح ، ولكن سروره لم يدم طويلا فقد اكتشف أن زوجه تؤمن بوحدة طبيعة المسيح عقيدة أعدائه النساطرة ، وأنها تعمل على نشر عقيدتها الكافرة !

كان الانقسام فى قلب العرش بل فى سرير الملك ، وكانت المناقشات تحتدم بين الملك والملكة وكانت تيودورا ، تحاول أن تقنع الإمبراطور أن مصر

وسوريا قد تخرج من النفوذ الرومانى يوما بسبب عقيدة الإمبراطور ، ولما كان يعتبر نفسه من رجال اللاهوت فإنه لم يقتنع بمذهب وحدة طبيعة المسيح وخشي أن اتبعه أن يغضب الغرب ويجر على نفسه استياءه ، ولكنه كان يبحث عن وسيلة للتوفيق بين المذهبين يفرضها على عالم المسيحية كله ، فاتفق هو وتيودورا على أنه ينبغي لكل إنسان أن يتبع نظرية الإمبراطور فى اللاهوت حتى البطارقة والبابوات أنفسهم ، فسن سنة السيادة العليا الدينية للإمبراطور ، وصار دكتاتورا لاهوتيا .

وعقد المجامع الدينية ليقرر ما يشاء ، وسجن من عارضه من البابوات ورجال الدين ، ووضع صيغا لقانون الإيمان اعتقد أنها لا بد أن ترضى أصحاب مذهب وحدة طبيعة المسيح دون أن تخرق قرارات مجلس خلقيدونية ، ولكن الاستياء الدينى المستتر انتشر بين أصحاب المذهبين جميعا .

وجاءت الأنباء إلى القسطنطينية أن ذا نواس قد انقض على تجار الروم وسلبهم أموالهم انتقاما لإخوانه فى الدين اليهود المعذبين فى الإمبراطورية الرومانية ، فلم يحرك يسطنيانوس ساكنا فقد كان مشغولا بالقوط الشرقيين والغربيين والوندال وأبحاثه فى اللاهوت ، ولم يكن يرغب فى فتح جبهة جديدة بعيدة عن بلاده قد تطمع أعداءه فيه .

وتجاهل يسطنيانوس ما حاق بالتجار الروم فى أرض حمير وأرسل رسولا إلى النجاشي وإلى زعيم نصارى اليمن يرجو إعلان الحرب على الفرس وقطع العلاقات التجارية معهم لأنهما والقيصر على دين واحد ، فعليهما مساعدة أبناء دينهم الروم والاشتراك معهم فى قضيتهم وهى قضية عامة مشتركة على النصارى جميعا الدفاع عنها .

وطلب الرسول من ملك حمير خاصة أن يوافق على تعيين قيس شيخا على

قبيلة معد ، وأن يجهز جيشا كبيرا يشترك مع قبيلة معد فى غزو أرض فارس .
وكان قيس من أبناء المشايخ وكان شجاعا قديرا غاية فى الكفاءة ، وقد وعد ملك حمير رسول يسطنيانوس خيرا ولكنه لم ينجز وعده .

ورأى ذو نواس أنه سيصبح محاطا بالنصارى الطامعين فى ملكه ، ففى الجنوب فى أكسوم نجاشي الحبشة ، وها هو ذا إمبراطور الروم يطلب تعيين قيس الموالى له شيخا على قبيلة معد القوية ، وفى قلب مملكته فى نجران حصن من أقوى حصون النصرانية ، ولما كان يهوديا متعصبا فقد آمن بأنه إذا قضى على النصرانية فى اليمن أرض دينه أمن غدرهم به إذا ما تحرك الملوك المسيحيون لغزو بلاده .

وعرض ذو نواس على نصارى اليمن أن يتهودوا فأبوا ، وقام النصارى الذين كانوا فى « ظفار » وكانوا من الأحباش بثورة مسلحة ، فبعث إليهم :

— إن تسلموا لنا « ظفار » فلن تؤذيكم ، بل نعيدكم إلى الحبشة سالمين .

فوثقوا بكلامه وخرجوا إليه وكانوا ثلاثمائة محارب ، فقبض عليهم وغدر بهم فسلمهم إلى اليهود فقتلوهم ، وانطلق اليهود إلى بيعة « ظفار » وأوقدوا فيها النار بمن فيها .

وكتب إلى الحارث من أشراف مدينة نجران أن يأتيه مع من عنده من حملة السلاح ، وكان الحارث نصرانيا فجمع الرجال وانطلق إلى « ظفار » عاصمة الدولة فسمع بما كان من غدر ذى نواس بالنصارى ، فقفل راجعا إلى نجران وتحصن بها هو وإخوانه النصارى .

وأغار ذو نواس على نجران وحاصرها مدة ثم سقطت فى يده ، فعرض على أهلها أن يتهودوا فأبوا فخدَّ لهم أخدودا وأشعل فيه النيران وأعمل فيهم السيف وألقى بهم فى النار ، واستشهد الحارث فصار نشيدا ينشد فى الكنائس وقديسا

من الأبرار .

وأفلت دوس بن ثعلبة من القتل وانطلق فى الصحراء لا يلوى على شيء ، ورفعته النجاد وحطته الوهاد حتى بلغ القسطنطينية فدخل على الإمبراطور يسطنيانوس يستصرخه على ذى نواس ، وقص عليه ما كان من ملك حمير وأراه الإنجيل قد احترق بعضه بالنار ، فراح يسطنيانوس يفكر فرأى أن من الخير ألا يندفع فى حماسته فنصارى نجران من المؤمنين بطبيعة المسيح الواحدة من مذهب غير مذهبه ، وبلاد نجران بعيدة عن بلاده فمن يدرى ماذا تفعل فارس إذا ما تورط فى حرب اليمن ، فقال لدوس معتذرا :

ـــ بعدت بلادك عن بلادنا ونأت عنا فلا نقدر على أن نتناولها بالجنود ، ولكنى سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين وهو أقرب إلى بلادك منا فينصرك ويمنعك ويطلب لك بثأر ممن ظلمك واستحل منك ومن أهل دينك ما استحل .

وكتب يسطنيانوس إلى أخيه كالب نجاشى الحبشة كتابا يذكر له فيه حقه وما بلغ منه ومن أهل دينه ، ويأمره بنصر دوس وطلب ثأره ممن بغى عليه وعلى أهل دينه ، ودفع بالكتاب إلى دوس فخرج من القسطنطينية قاصدا أكسوم عاصمة الحبشة .

وكان بعض نصارى نجران قد فزع إلى النجاشى يستصرخونه ويلتمسون منه النصرة ، فقال لهم :

ـــ الرجال عندى كثيرة وليست عندى سفن ، وأنا كاتب إلى يسطنيانوس أطلب منه أن يمدنى بها .

وكتب كالب نجاشى الحبشة إلى أخيه يسطنيانوس يطلب منه أن يمده بسفن لحرب اليمن ونصرة دين المسيح . واتفق العاهلان على تجهيز الحملة ،

وحمل النجاشي سبعين ألفا من الرجال فى السفن التى بعث بها قيصر الروم ، ثم استدعى أرياط قائد الحملة وقال له :

ـــ إن أنت ظهرت عليهم فاقتل ثلث رجالهم وأخرب ثلث بلادهم واسب ثلث نسائهم وأبنائهم .

وانطلق الأسطول الرومانى يحمل الذين اختلفوا فى المسيح لقتال يوسف ذى نواس الذى لم يفرق فى اضطهاده بين القائلين بوحدة طبيعة المسيح والقائلين بلاهوته وناسوته ، وكان أبرهة بين جنود الأحباش وكانت تطوف برأسه أمانى وأحلام .

ونزل الجيش الحبشى بساحل اليمن ، وسمع ذو نواس بنزوله فجمع إليه حمير وأرسل إلى قبائل اليمن يدعوهم للانضمام إليه ليحملوا حملة رجل واحد على الذين جاءوا ليستبيحوا بلادهم ، ولكن زعماء القبائل أبوا أن يصغوا إلى دعوة يوسف وقالوا :

ـــ يدافع كل منا عن أرضه .

وتفرقت كلمة اليمن وتقدم أرياط ومن معه فوجد يوسف أن لا قبل له بجيوش الحبشة ، فناوش الأحباش ثم اضطر إلى أن يخوض غمار القتال فراح يقاتل حتى قتل ، ورثاه علقمة ذو جدن قائلا :

أوَ ما سمعت بقتل حمير يوسفا أكل الثعالب لحمه لم يُقبر

وراح أرياط يهدم حصون اليمن ويخرب سلحين وبينون وغمدان وكل ما يقف فى سبيله من حصون ، حتى استتب له الأمر فى اليمن .

ومرت سنون وأبرهة يحلم بأن يستل الملك من أرياط فقام ينازعه فى أمر الحبشة فى اليمن ، فانحاز إلى أبرهة بعض الجند وانحاز إلى أرياط بعض الجند وانقسم الجيش على نفسه ، وكان لا بد من معركة تفصل بين أرياط وأبرهة .

وسار أبرهة إلى أرياط فلما تقارب الناس ودنا بعضهم من بعض أرسل أبرهة إلى أرياط :

ـــ إنك لن تصنع بأن تلقى الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئا ، فابرز لى وأبرز لك فأينا ما أصاب صاحبه انصرف إليه جنده .

فأرسل إليه أرياط :

ـــ قد أنصفتنى فاخرج :

فخرج إليه أبرهة وكان رجلا قصيرا لحيما ، وخرج إليه أرياط وكان رجلا عظيما طويلا وسيما وفى يده حربة . وخلف أبرهة ربوة تمنع ظهره وفيها غلام له يقال عتودة ، فلما دنا أحدهما من صاحبه رفع أرياط الحربة فضرب بها على رأس أبرهة يريد يافوخه فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وعينه وأنفه وشفته ، فبذلك سمى أبرهة الأشرم .

وحمل غلام أبرهة عتودة على أرياط من خلف أبرهة فقتله ، وانصرف جند أرياط إلى أبرهة فاجتمعت عليه الحبشة باليمن .

وبلغ كالب نجاشى الحبشة ما كان من أمر أبرهة فغضب غضبا شديدا وقال :

ـــ عدا على أميرى فقتله بغير أمرى .

ثم حلف لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجز ناصيته ، فلما بلغ ذلك أبرهة حلق رأسه ثم ملأ جرابا من تراب اليمن ثم بعث به إلى النجاشى وكتب إليه :

ـــ أيها الملك ، إنما كان أرياط عبدك وأنا عبدك فاختلفنا فى أمرك وكل طاعته لك ، إلا أنى كنت أقوى منه على أمر الحبشة وأضبط لها وأسوس لها ، وقد حلقت رأسى كله حين بلغنى قسم الملك وبعثت إليه بجراب من أرض اليمن ليضعه تحت قدميه فيبر قسمه .

فلما انتهى ذلك إلى النجاشى رضى عنه وكتب إليه أن اثبت على عملك فى أرض اليمن حتى يأتيك أمرى .

وأصبح أبرهة الأشرم صاحب السلطة فى اليمن غير منازع .

٢٣

ازدهرت تجارة النخاسة فى الدنيا بأسرها ، فالرومان يبيعون أسرى الفرس والقوط والوندال ، والفرس يبيعون أسرى الروم والغساسنة العرب أحلافهم ، والحميريون يبيعون أسرى الحبشة ، والأحباش يبيعون أسرى اليمنيين ، فصار الإنسان سلعة من أروج سلع التجارة التى تحملها القوافل من مكان إلى مكان .

ولم يخل سوق من أسواق الأرض من بيع الرقيق ، فكان هاشم يعود من الشام بأرقاء فارس ، وكان عبد شمس يعود من أرض الحبشة بعبيد حمير ، وكان المطلب يعود من اليمن بأرقاء الحبشة ، وكان نوفل يعود من بلاط فارس يحمل أرقاء الروم والغساسنة . وقد أقبل المكيون على شراء العبيد ليقوموا بخدمة الدور والقوافل ورعى الغنم وجلب الماء من الآبار ، واشترى أهل الطائف العبيد ليفلحوا لهم الأرض وليرعوا بساتين الكروم ، ودفع رجال القبائل أكياس الذهب فى شراء عبيد الرومان والفرس واليمن والحبشة ليشتركوا معهم فى القتال والغارة على القوافل لسلبها ، فقد كان العبيد فى ذلك الوقت آلة الحرث وآلة الحرب وآلة اللهو فى زمن السلم وحقن الدماء .

وغصت مكة بالمجوس عبدة النار ، وبالنصارى القائلين بوحدة طبيعة المسيح ، وبالنصارى القائلين بلاهوت المسيح وناسوته ، وبالمسيحيين القائلين بأن المسيح هو الله ، وبالمسيحيين القائلين بأنه ابن الله ، وبالقائلين بأنه ثالث ثلاثة ، وبالوثنيين الذين يتعبدون لثلاثمائة وستين صنما تكدست فى جوف

الكعبة ، وبقلة من الموحدين الذين كانوا لا يزالون على ملة إبراهيم خليل الرحمن ، ومن الصابئة الذين كانوا على دين إدريس ويوقرون إبراهيم ويحيى والمسيح ويتنبأون بظهور محمد ملك العرب ، ومن الصابئة الذين انحرفوا إلى عبادة الكواكب والنجوم ، وبآحاد من اليهود الذين يحسبون أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم أمم فعبدوا أنفسهم غرورا .

وقد اختلف المجوس والنصارى واليهود والصابئون كل الاختلاف فى أمر الدين ولكنهم اتفقوا فى شيء واحد ، اتفقوا على أن الدنيا لا تزال تنتظر بزوغ نجم رسول كريم بشر به زرادشت ، أنه صاحب الجمل الأحمر الآتى من بلاد العرب . وبشر به المسيح وهو الفارقليط الذى لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ، فهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ، وهو الذى سيمكث مع الناس إلى الأبد . وبشر به موسى يوم أن قال : إن الله أوحى إليه : « سأقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه . وبشر به من قبل إدريس وترقب الصابئة ظهوره فى بلاد العرب ، « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » .

وكثر الجدل بين المكيين وبين عبيد الأرض من روم وفرس حول الدين والنفس ، فكان العرب يقولون إن النفس طائر ينبسط فى الجسم فإذا مات الإنسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشا يصدح على قبره لا يستقر إلا إذا أخذ بثأر القتيل أو بلى جسم الميت . واشتد الحوار حول الله وبنات الله اللات والعزى ومناة والمسيح ابن الله . وبقى كل فريق على دينه : المشركون على وثنيتهم وأهل الكتاب يعبدون الله على حرف أو يشركون به وإن حسبوا أنهم على الصراط المستقيم .

وكان أشراف قريش يمضون نهارهم فى دار الندوة حيث يفصل فى قضايا

الناس وتبرم عقود الزواج ، فما كانت قريش تقطع أمرا من أمورها إلا فيها ، أو يجلسون حول الكعبة يتشاورون ويتحاورون حتى إذا ما جاء الليل أوقد أجواد مكة نار الضيافة على الأماكن المرتفعة من دورهم ليستدل الأضياف بها على المنزل ، وقد يوقدونها بالمندلى الرطب وهو مستورد من مندل بالهند وهو عطر له رائحة نفاذة ليهتدى به العميان إلى دور الكرم .

وجاء أوان رحلة الصيف فدب النشاط فى مكة ، وراح هاشم بن عبد مناف يغدو ويروح بين الناس وقد تهللت بالفرح وجوههم أغنياؤهم وفقراؤهم ، فقد كان هاشم يوزع أرباح رحلة الصيف ورحلة الشتاء على الناس جميعا فنجح فى أن يؤلف بين قلوب أغنياء مكة وفقرائها وبين قلوب ساداتها وعبيدها .

وتأهبت القافلة للرحيل فعمد رجالها إلى خيوط وعقدوها فى أغصان الشجر فقد كانوا يعتقدون أنهم إذا عادوا من رحلتهم ووجدوا الخيط كان ذلك دليلا على أن الزوجة لم تخنهم ، وإن لم يجدوه أو وجدوه محلولا كان ذلك دليل خيانة الزوجة فى أثناء الغيبة ، وكانوا يسمون ذلك الرتم .

وسخر قوم من قوم فقال قائل :

خانته لما رأت شيبا بمفرقه ... وغره حَلْفُها والعقد للرتم

وقال آخر :

لا تحسبن رتائما عقّدتها ... تنبيك عنها باليقين الصادق

وقال آخر :

يعلل عمرو بالرتائم قلبه ... وفى الحى ظبى قد أحلت محارمه

فما نفعت تلك الوصايا ولا جنت ... عليه سوى ما لا يحب رتائمه

وأقبل هاشم بن عبد مناف يتلألأ النور فى وجهه وراح يحدث بعض

سادات قريش ، وكان يمس لحاهم أثناء الحديث أو يأخذها فى قبضته فقد كان ذلك للملاطفة وإظهار الود . ثم امتطى هاشم راحلته وأذن بالرحيل فانطلقت قافلة قريش إلى الشام ، وقد ارتفعت أيدى رجال مكة ونسائها وصبيانها ملوحة بالوداع وخفقت القلوب بأرق المشاعر وأنبل الإحساسات .

وراح رجال القافلة يتلفتون ويكثرون من التلفت إعرابا عن الشوق إلى البيت الحرام وأهله ، وتفاؤلا بالرجوع إلى الأرض المباركة إلى الوطن الحبيب . وألقى هاشم نظرة وداع على الكعبة فاستشعر غصة فى حلقه وما لبثت دموعه أن انهارت حتى بلت لحيته . وعجب هاشم لتلك الرقة التى اكتنفته فيا طالما خرج فى رحلة الشتاء ويا طالما خرج فى رحلة الصيف ولكنه لم يستشعر تلك الرقة التى تسرى بين جنبيه قبل ذلك .

وسارت القافلة فى معبد الكون وقد ارتفع صوت الحادى يحث الإبل على الإسراع ، وكان الحادى يترنم بالأوطان والحنين إلى الأحبة فإذا بهاشم يفكر فى ابنه شيبة ، ذلك الصغير الذى تركه عند أخواله بنى النجار بيثرب ، واحتلت صفحة ذهنه زوجه سلمى وهى تضم إلى صدرها ابنها الحبيب كأنما تحميه من عاديات الزمن ، فامتلأ بالوجد قلبه ، وطافت به فكرة أن ينقلب إلى يثرب يحمل ابنه معه إلى الشام ثم يقفل به راجعا إلى مكة ليشب فى قريش ، فى عز قومه ، ولكنه تذكر ما اشترطته سلمى يوم قبلت أن تتزوجه : ألا تغادر يثرب وأن يظل أبناؤها فى كنفها ، وقد قبل ذلك الشرط وترك لها ولديه شيبة وأخته رقية . وراح يطرد ذلك الخاطر ولكن طيف شيبة كان يملأ أقطار نفسه ويستولى عليه .

وانطلقت القافلة فى الصحراء حتى أشرفت على غزة فأحس هاشم وهناً يدب فى أوصاله وأنه يثاقل إلى الأرض ، ولكنه تحامل على نفسه وراح يجمع

إرادته ، ودار به الفضاء وهو ثابت على ظهر راحلته يتشبث بها خشية أن ينهار .

ودخلت القافلة غزة فراحت الأشجار تتراقص أمام عينيه وامتزج فى ذاكرته واقعه بماضيه فإذا بالمشاهد تختلط فى نفسه . إنه يرى الكعبة تملأ الفضاء وترن فى أذنيه الأصوات التى طالما ترددت فى دار الندوة وتصل إليه أصوات رجال قافلته كأنما تنبعث من مكان سحيق .

وحطت القافلة فى سوق غزة ونزل هاشم عن راحلته وهو يحاول أن يملك زمام نفسه ، ولكنه أحس أن رجليه خذلتاه وأنه يترنح ، فذهب لى خيمته وتمدد فيها ، وكانت أصوات رجاله تصل إليه ضعيفة واهنة بينما كانت أصوات حجاج بيت الله ترن فى أعماقه قوية مجلجلة .

وأطبق جفنيه على عينيه ولكنه كان يرى بوضوح سادات قريش وأغنياءها يحملون إلى دار الندوة ما فرضوه على أنفسهم لإطعام حجاج بيت الله ، ويرى الحجيج وقد أقبلوا على ما صنع لهم من طعام فترف بسمة خافتة فى صفحة وجهه الذابل .

ورأى بعين خياله نساءه وأولاده جميعا حوله وما اجتمعوا أبدا إلا فى هذه اللحظة ، سلمى بنت عمرو وولديه شيبة ورقية ، وقيلة بنت عامر بن ماللك الخزاعية وولدها أسد ، وحجل بنت حبيب الثقفية وولديها ، وأم نضرة ، والشفاء ، وواقدة بنت أبى عدى المازنية وبنتيها أم خالدة وضعيفة . وأحس أنه يرنو إليهم فى حب وأن قلبه قد تفتح ليحتويهم جميعا .

ورن فى أذنيه صوت آت من بعيد : « هاشم وخلاك ذم » .

إن القوم ينافرونه وهو يكره ذلك ، إنهم يتفاخرون ويتنابذون بالألقاب ويقولون إنهم خير منه وهو لا يحب التفاخر ، وإنهم يحتكمون إلى الكهان وإلى ملوك الأرض فيشهد الكهان وملوك الأرض له عليهم فلا يتيه بذلك ولا يمتلئ

قلبه غرورا .

ودخل رجل من رجاله وناداه فلم يرد النداء ، ونظر الرجل فى وجهه فلاح عليه الهلع فزعيم قريش يجود بأنفاسه فى خيمة ، غريبا عن الأرض الطاهرة التى بارك الله فيها للعالمين .

وخرج الرجل يصيح وهو مذهول :

ــ هاشم يموت .

وهرع الناس إليه والهين ، فلما وجدوه يجود بأنفاسه نزل بهم حزن ثقيل وحارت الدموع فى العيون ونزت النفوس بالأسى وانهصرت القلوب . فسيد القوم يموت بغزة لا نادبات يندبنه ولا نائحات ينحن عليه ولا من يشق عليه الثياب أسى وحزنا .

ولفظ هاشم آخر أنفاسه غريبا فى أرض الشام ، فسح رجال القافلة الدموع ثم حملوا سيدهم وقبروه ، وجاءوا بناقته فعكسوا عنقها وأداروا رأسها إلى مؤخرها وتركوها فى حفيرة لا تطعم ولا تسقى حتى تموت . وكانوا يعتقدون أن من مات ولم يبل عليه حشر ماشيا ، ومن كانت له بلية حشر راكبا على بليته . ولقد أراد رجال هاشم أن تكون له بلية يركبها يوم الحشر فقد كان هاشم ورجال قافلته يؤمنون بيوم الدين .

وراحوا يعقرون الإبل على قبره تعظيما له ومكافأة له على ما كان ينحره للأضياف ، ثم راح ينظر بعضهم إلى بعض فى ذهول فما كانوا يدرون ماذا يقولون للناس بمكة يوم أن يعودوا بلا سيدهم الذى ملأ الآفاق عدلا وكرما ؟!

٢٤

مات قباذ إمبراطور الفرس فطالب كاووس الأمير المزدكى بالعرش ، ولكن ماهيود رفض دعواه وقدم الوصية التى كتبها قباذ قبل موته إلى مجلس العظماء وهو يقول :

ـــ إن إرادة الملك هى القانون .

كان الملك يكتب بيده ثلاث وصايا ويودع الأولى الموبدان موبد ، والثانية كبير الكتاب (ديير مهيست) ، والثالثة كبير رجال الجيش (إيران سباهبد) . واجتمع الثلاثة الكبار للنظر فى أمر عرش إيران ، كان هناك طلب من كاووس ووصية صريحة من الإمبراطور الراحل بتولية كسرى عرش البلاد .

وجاء أوان إعلان وراثة العرش ففتحت أبواب القاعة الكبرى فى القصر وجيء بالتاج والعرش ، وأخذ الضباط مكانهم ثم دخل كبير الموابذة يحيط به الهرابذة والعظماء والوزراء وانطلقوا إلى حيث جلس أمراء البيت المالك ، ثم اصطفوا جميعا أمام الأمراء وقالوا :

ـــ لقد تشاورنا أمام الإلـه الأعلى فأرشدنا وألهمنا وهدانا إلى الخير .

وصاح كبير الموابذة عاليا :

ـــ إن الملائكة قد ارتضوا كسرى بن قباذ ملكا فبايعوه أيها الناس وإنها لبشرى لنا .

فارتفعت أصوات علماء الدين والزهاد والأتقياء فى جنبات القاعة فى القصر .

ــ آمين .

وخروا ساجدين ، ورفع الأمراء الأمير كسرى على العرش ، وتقدم الموبدان موبد ووضع التاج على رأس كسرى وهو يقول له :

ــ أتقبل من الله دين زرادشت الذى قواه كشتاسب بن لهراسب والذى أحياه أردشير بابك ؟

فقال كسرى :

ــ أقبل وسأعمل على خير رعيتى إن شاء الله .

وقام أمراء البيت المالك يبايعون كسرى ، وتقدم العظماء والوزراء يصافحونه ، وحياه الضباط (الأساورة) تحية عسكرية ، ثم قام رجال الدين والزهاد والأتقياء بصلاة المساء والدعاء .

وجاءت وفود الدول لتهنئة كسرى تحمل الهدايا وأطيب التمنيات ، أقبل المنذر ملك الحيرة وابنه النعمان ، وجاء رسول ملك الصين ، ورسول من قبل قيصر ملك الروم . ونظر الرسول إلى إيوان كسرى وحسن بنيانه فأعجب به ولكن ذلك الإعجاب ما لبث أن تبخر فقد رأى اعوجاجا فى ميدانه ، فمال على من كان إلى جواره من الأشراف وقال له :

ــ كان يحتاج هذا الصحن أن يكون مربعا .

فقال له جاره :

ــ إن عجوزا لها منزل من الجانب المعوج ، وإن الملك أرادها على بيعه ورغبها فيه فأبت ، فلم يكرهها الملك وبقى الاعوجاج من ذلك على ما ترى .

فقال رسول قيصر :

ــ هذا الاعوجاج الآن أحسن من الاستواء .

وأصبح كسرى أنو شروان عماد كل السلطات فى البلاد يحكم على النبلاء

كما يحكم على عامة الشعب . وخضع له رجال الدين فقد قبل أن يكون زردشتيا وأن يكون حربا على المزدكيين ، فصار النظام بين الرعية والجيش ، والزينة يوم الزينة ، والمفزع والملجأ يوم الخوف من العدو .

وراح يعالج الفوضى التى أشاعها أتباع مزدك فى البلاد فرد الأموال إلى أهلها منقولة كانت أو ثابتة ، وجعل من الأموال التى لا وارث لها رصيدا لإصلاح ما فسد ، وأما من غلب على أمره من النساء فكان ينظر لحالة كل منهن على حدة ، فإذا كانت المرأة المغتصبة من طبقة الغاصب ولم تكن قد تزوجت من قبل أو كان زوجها قد توفى عنها يؤخذ الغالب لها حتى يغرم لها مهرها ويرضى أهلها ، فإذا لم يكونا من أهل طبقة واحدة يكون لها الخيار فى أن تبقى زوجة لغالبها أو أن يطلقها ، وعلى الزوج أن يدفع لزوجه المهر وأن يرضى أهلها على أية حال . وإذا كان للمرأة زوج على قيد الحياة وجب ردها إلى زوجها ، وألزم الغالب بأن يدفع لها مهرا مساويا للمهر الذى دفعه زوجها الشرعى من قبل .

وأمر بكل مولود اختلف فيه عنده أن يلحق بمن هو منهم إذا لم يعرف أبوه ، وأن يعطى نصيبا من مال الرجل الذى ينسب إليه إذا قبله الرجل . وأمر بكل من كان أضر برجل فى ماله أو ركب أحدا بمظلمة أن يؤخذ منه الحق ثم يعاقب الظالم بعد ذلك بقدر جرمه .

وأعاد بناء ما تهدم من المساكن والقرى حينما عجز الملاك عن المحافظة عليها ، وأعان أهلها لإصلاح حالهم وأمدهم بالمواشى وأدوات الرى . وراح يحفر الترع ويقيم الجسور الخشبية التى كسرت ويبنى الجسور الحجرية التى انهارت ويقيم الحصون لصد من تسول له نفسه الهجوم على بلاده .

واهتم كسرى بالجيش . حتى إنه كان يقف بين الجنود فى أثناء استعراض

بابك ـــ كاتب ديوان المقاتلة ـــ الجيش . وفى ذات يوم قام بابك باستعراض جنود الجيش فلم ير كسرى بينهم فأمر بإجراء العرض فى اليوم التالى ، فلم يره فأمر بالعرض فى اليوم الثالث ، فمثل كسرى ولكن لم يكن سلاحه كاملا فحكم عليه بغرامة تزيد درهما واحدا عما يفرض على سائر الجند .

وابتعد خطر المزدكية فى الداخل ولكن مركزها الخارجى كان يبرر الجهد الذى بذله كسرى فى إصلاح الجيش . وقد استتب السلم بين إيران وبيزنطة ففى سنة ٥٣٢ م وهى السنة الثانية من حكم كسرى أنو شروان وقع كسرى ويوسطنيانوس ملك الروم معاهدة صداقة ، وقد وضع كسرى فى قاعة الطعام بقصره كرسيا لملك الروم وآخر لملك الصين يجلسان عليهما إذا ما شرفا عاصمة ملكه ، ويظلان خاليين إذا ما عادا إلى ديارهما رمزا للصداقة والإخاء .

وعلى الرغم من الهدوء الذى ساد المنطقة فقد كان كسرى حزينا لمقتل ذى نواس واغتصاب أبرهة الملك فى اليمن ، فأبرهة مسيحى على دين يسطنيانوس ملك الروم وعلى دين ملك الحبشة ومن المتوقع أن يبرم معاهدة مع بيزنطة فيتقلص ظل الفرس فى اليمن ، بل قد تنتقل حمير إلى معسكر الأعداء بعد أن كان ملوكها يفزعون فى الملمات إلى حليفهم ملك الحيرة وإلى الفرس أنفسهم .

وكان كسرى محقا فى حزنه على النكبة التى نزلت باليمن فقد كان ملك الروم يحلم بعقد معاهدة مع أبرهة ، وأن يحرض حليفه على أن يزحف للاستيلاء على الحجاز فيقضى بذلك على آخر فاصل يفصل بين الروم وبين اليمن والحبشة ، ويحقق حلم الإسكندر وأغسطس ويوجه ضربة قاضية للفرس دون خوض غمار المعارك وإراقة الدماء .

ولم تقبل قبائل كندة وذى سحر وثمامة وحنش ومرثد وحنيف وذى خليل ويزن أن تستكين لأبرهة فثاروا عليه . ولما بلغ نبأ هذه الثورة مسامع أبرهة

جيش جيشا من الأحباش والحميريين وخرج لإخمادها ، وبينا الجيش فى طريقه للحرب إذا ببعض قواد الثائرين وجنودهم يظهرون أمامه يطلبون منه الصفح ، أما الباقون فقد تحصنوا فى مواقعهم وأبوا الخضوع للذل الذى جره غزو الحبشة لليمن .

وبينما كان أبرهة يفكر فى أمر بقية الثائرين إذا برسول جاء إليه يسعى يحمل إليه أسوأ نبأ . إن سد مأرب قد تصدع وتهدم بعض توابعه ، فأمر بتحضير مواد البناء والحجارة . وبينما كان الناس مشغولين بنقل مواد البناء كان أبرهة يشرف على بناء كنيسة عظيمة فى مدينة مأرب يضاهى بها كعبة العرب .

وفى حفل عظيم افتتح كنيسته ورتب لخدمتها جماعة من متنصرة سبأ ، وتقدم أبرهة نائب ملك الجعريين (الحبشة) ، وملك سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمن وأعرابها فى النجاد وفى تهامة ، إلى حيث وقف البطريق ليتلقى منه البركات وليدعو الله فى خشوع أن يعينه على إعادة ترميم سد مأرب .

وبعد افتتاح كنيسة مأرب العظيمة عاد أبرهة إلى موضع السد ليضع أسسه ، واستعان بقبائل حمير وجنوده الحبش ، وتذمرت العشائر التى لم تتعود مثل هذه الأعمال الطويلة الشاقة فاضطر بعد مدة أن يسمح لهم بإجازة ليهيئوا لأنفسهم الطعام وليلتقطوا أنفاسهم بعد ذلك العمل المضنى الشاق .

وقفل أبرهة راجعا إلى مأرب فعقد معاهدة مع أقيال سبأ ، وتحسنت العلاقات بينه وبين سادات القوم فأرسلت إليه الغلات والمواد اللازمة للبناء وتقاطر الفعلة على موقع السد زمرا ودب النشاط ولم تخمد العزائم حتى انتهى العمل . وأمر أبرهة بتسجيل ذلك العمل الباهر فراح الكتاب يكتبون على السد : « بحول وقوة ورحمة الرحمن ومسيحه وروح القدس قد قام أبرهة نائب ملك الجعريين رمحز زبيمان ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمن

وأعرابها فى النجاد وفى تهامة بإقامة هذا السد » . ودون أبرهة ما أنفقه على بناء السد من أموال ، وما قدمه إلى العمال والجيش الذى اشترك فى العمل من طعام وإعاشة ، من اليوم الذى بدئ فيه بالإنشاء حتى يوم الانتهاء منه فى شهر ذى معان فى سنة ٦٥٨ الحميرية الموافقة لسنة ٥٤٣ من ميلاد المسيح .

والتفت حول أبرهة جماعة من الأسر الأرستقراطية القديمة ومن الأحباش ، وقد قضى فى أثناء وجوده فى مأرب على عصيان الأقيال الذين أشعلوا نيران الثورة فأصبح سيد اليمن وصاحب الأمر غير منازع .

ورأى كسرى أنو شروان أن يبعث إلى أبرهة وفدا ليهنئه بالعمل الجليل الذى قام به ، وأشار على حليفه المنذر ملك الحيرة أن يبعث إليه بوفد لعل أبرهة يميل إلى معسكر الفرس أو يقف على الحياد بين الفرس والرومان إذا ما تجددت العداوة ونشبت الحروب ، فانطلق الوفدان إلى مأرب ، وما إن دخلوا قصر أبرهة حتى وجدوا وفود يسطنيانوس ملك الروم والحارث بن جبلة ملك الغساسنة العرب حليف الروم ونجاشى الحبشة ووفد أبى كرب بن جبلة قد سبقهم إليه .

وغص قصر أبرهة فى مأرب بوفود الشرق ووفود الغرب التى تخطب وده ، وبذلت محاولات لاكتساب ذلك الرجل الذى استأثر باليمن ونازع النجاشى فى كل شىء حتى اللقب ولم يعد للنجاشى عليه سلطان .

وأخفق رسول كسرى فى اجتذاب الرجل إلى معسكر الفرس ، ولم ينجح رسول المنذر فى سفارته ، ورحب أبرهة برسول الروم وبوفد الحارث بن جبلة زعيم الغساسنة حلفاء الروم ، وراحت المفاوضات تدور بين أبرهة ويسطنيانوس ملك الروم لتجهيز حملة لإخضاع الحجاز ورفع الصليب على الجزيرة العربية كلها ، وبذلك يتم الاتصال بين مسيحيى بيزنطة والشام

ونصارى اليمن والحبشة ويتحقق الحلم الكبير .

وكانت العداوة مشتعلا أوارها بين المنذر ملك الحيرة والحارث بن جبلة ملك الغساسنة حلفاء الروم ، وقد خمدت إلى حين لما ساد الوفاق بين بيزنطة وفارس . ولكن العاهلين العربيين كرها ذلك السلام فقد تمكن المنذر من مباغتة أحد أبناء الحارث وكان يكلئ خيله فى البادية فأسره وقدمه ضحية إلى العزى .

وعلم المنذر أنها الحرب بينه وبين الحارث بن جبلة فجمع كل ما يملك من قوة ومن حديد ، وخرج فى معد كلها حتى جاء عين أباغ وهو واد من أودية العراق وراء الأنبار على الفرات لا يبعد كثيرا عن الحيرة ، وأرسل إلى الحارث الأعرج بن جبلة :

ــ إما أن تعطينى الفدية فأنصرف عنك بجنودى وإما أن تأذن بحرب .

فأرسل إليه الحارث :

ــ أنظرنا ننظر فى أمرنا .

فجمع الحارث عساكره وسار نحو المنذر والتقى الجمعان فى عين أباغ ، ودارت معركة رهيبة بين العرب والعَرب سالت فيها الدماء وسقطت الجثث لتنهشها نسور السماء ، وقتل ابنان للحارث ودارت الدائرة على المنذر فاستشهد فى المعركة ، فسار الحارث بولديه القتيلين إلى الحيرة فأنهبها وأحرقها ودفن ابنيه بها ، ثم عاد إلى الشام يلعق جراحه .

وحركت الحرب التى نشبت بين دولة الغساسنة الموالية للروم ودولة الحيرة الموالية للفرس نار العداوة بين كسرى ويوسطنيانوس فأعلن كسرى الحرب على بيزنطة ، وخرج بجيوشه قاصدا أنطاكية وكان فيها عظماء جنود قيصر وبطارقة الشرق فنشب القتال بين صديقى الأمس القريب ، ودارت

رحى معركة رهيبة لا هوادة فيها ولا لين .

وهجم الحراثون الإيرانيون على أسوار أنطاكية يعملون فيها معاولهم لهدمها ، وراح الفرسان ينازلون الفرسان ، وقد كان الفارس الإيرانى مسلحا بتجانيف ودرع وجوشن وساقين وسيف ورمح وترس وعمود وجعبة فيها قوسان بوتريهما وثلاثين نشابة ووترين مضفورين يعلقهما فى مغفر له ظهريا .

كان الفارس الإيرانى حصنا على صهوة جواده وكانت أسلحته أمضى من أسلحة الفارس الرومانى ، فانهزمت جنود يوسطنيانوس أمام جند كسرى وتقهقرت وجنود فارس فى أثرهم . واستمر القتال ضاريا فى قلب أنطاكية وما لبثت أن انهارت مقاومة الروم وسقطت أنطاكيـة فى قبضة كسرى أنو شروان .

وأمر كسرى المهندسين الذين كانوا فى رفقته أن يصوروا له مدينة أنطاكية على ذرعها وعدد منازلها وطرقها وجميع ما فيها ، وأن يبنوا له على صورتها مدينة إلى جنب المدائن فبنيت المدينة وعرفت بالرومية على صورة أنطاكية ، ثم حمل أهل أنطاكية حتى أسكنهم إياها فلما دخلوا باب المدينة مضى أهل كل بيت منهم إلى ما يشبه منازلهم التى كانوا فيها بأنطاكية .

وراح كسرى يغزو الدول الخاضعة للرومان فقد أصيبت حكومة بيزنطة بفساد بالغ ، فقد شرع حق انتخاب حكام المقاطعات فكان الحكام يشترون مناصبهم بالمال حتى إذا تم انتخابهم وتربعوا فى مقعد السلطة فرضوا الضرائب المحلية ليعوضوا ما أنفقوه وليكدسوا الأموال فى خزائنهم الخاصة .

وقد نجحت تيودورا المؤمنة بوحدة طبيعـة المسيـح أن تقنـع زوجهـا يوسطنيانوس أن يلغى بيع الوظائف وأن يمنح كل حاكم مرتبا من خزائن الدولة يعيش منه ، وأن يظل الحاكم بمقاطعته خمسين يوما بعد التخلى عن منصبه

ليجيب عما يوجه إليه من اتهامات ، وكان ذلك الإصلاح بعد أن استشرى الفساد فى طول الإمبراطورية الرومانية وعرضها .

ولم يحاول يوسطنيانوس أن ينسق بين المقاطعات ولم يوحد السلطات التى تمنح لحكامها ، فكان يمنح سلطات استثنائية خاصة لبعض الحكام لكثرة اللصوص فى مقاطعتهم أو لاتساع رقعة الإمبراطورية بها ، فكان ذلك الاستثناء يوغر صدور الحكام الآخرين ويزعزع صدق ولائهم للإمبراطور الذى يفرق بينهم فى المعاملة .

وقد قلد يوسطنيانوس دقلديانوس فى أن جعل الأبناء يمارسون مهن آبائهم وخاصة تلك المهن المتعلقة بالأرض ، وعين موظفا كانت وظيفته أن يمنع أى شخص من المقاطعات من الدخول إلى القسطنطينية إلا إذا كان له عمل بها ، وأمر بتكليف العاطلين بالمدينة بالعمل فى مخابز الدولة فأحس الناس بالحجر على حرياتهم وضعفت حماستهم للدولة .

وفرض يوسطنيانوس ضريبة جديدة جلبت للدولة ثلاثة آلاف رطل من الذهب ، ولقد ضاق الناس ذرعا بضريبة الصادر وضريبة الوارد والضرائب غير المباشرة والعشور ورسوم الدمغة على الإيصالات والضرائب التى تجبى على بيع الرقيق وضرائب التركات ، وقد أثقلت تلك الضرائب كاهل الشعب فبدا للناس فى الإسكندرية وقبرص والمناطق الأخرى الخاضعة لحكم الرومان أن حكم كسرى أنو شروان أفضل من حكم يوسطنيانوس وضرائبه الفادحة .

وكان يوسطنيانوس يستعين فى حروبه بفرق البرابرة أو بقبائل بأجمعها تحارب تحت إمرة أمرائهم ، وقد تركت سياسة استخدام الجند الحلفاء أسوأ الأثر فى الجيش الرومانى ، ذلك أن القائد هو الذى يجمع جنده ويعولهم فلم يكن للحكومة المركزية سلطان عليهم . وزاد الأمر سوءا أن يوسطنيانوس لم

يمنح قواده أى قدر من السلطة ولم يضع فى أيديهم الأموال التى يؤلفون بها قلوب جنودهم ، فكان التمرد يطل برأسه فى أثناء المعارك وكان صوت التذمر يرتفع فوق قعقعة السلاح .

وأوقفت الحروب التى نشبت بين فارس والروم ورود الحرير إلى الدولة الرومانية فحاول يوسطنيانوس أن يحافظ على سعره المنخفض وسن لذلك القوانين ، فكانت النتيجة أن قضى على صناعة الحرير لأن سر دودة القز لم يكن قد تسرب إلى القسطنطينية بعد . وقد اشترى الإمبراطور مصانع الحرير وصارت تجارة الحرير احتكارا إمبراطوريا ففرض ما شاء من الأسعار . فزاد ذلك فى استياء الناس وتذمرهم .

كانت القديسة هيلينا قد ابتدعت بدعة جلب الآثار المقدسة إلى القسطنطينية أيام قسطنطين فراحت الجثث المقدسة تتقاطر على المدينة ، فأحضرت هيلينا جثة القديس دنيال ونقلت بعدها جثة الحوارى أندراوس والقديس لوقا ، ونقلت جثة صمويل إلى عاصمة الرومان الشرقيين ، وعرفت جثة أشعيا طريقها إلى القسطنطينية . وفى أيام يوسطنيانوس جاءت جثة القديسة آن ، وشغل الناس بالأساطير وتمنوا أن يعثر المنقبون فى فلسطين على جثة مريم المجدلية .

وشغل الناس بالقديسين الذين يشفون ببركتهم من الأمراض عن الله ومسيحه ، واستعادت البيوت المقدسة المسيحية ما كان لأسلافها الوثنية من نفحات ، فلم يعد الرجال والنساء يهرعون إلى معابد أسكليبيوس أو لوكيتا الوثنية التماسا للشفاء من أسقامهم بل راحوا يتزاحمون على كنيسة القديس دميان والقديس فوزماس فهما يشفيان ببركتهما من كل الآلام والأوجاع .

وصارت الأضرحة المقدسة لكبير الملائكة « ميخائيل » منتجعات للعلاج

والشفاء ، وراح الرجال يفزعون إلى ضريح القديس أرتيميوس لشفاء عللهم الجنسية ، بينما تهرع النسوة لشريكته القديسة فبرونيا لإصلاح عقمهن .

وانتشرت الخرافات فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية ، فالأبالسة والشياطين فى كل مكان ، وقد يتقمص الشيطان روح كلب أو يتحول إلى كلب ويشن هجوما ضاريا على الأتقياء ، وقد يبيع بعض الرجال أنفسهم للشيطان وهؤلاء يجوسون طوال الليل خلال القصور أو الدور أو الطرقات حاملين رءوسهم على أكفهم . وشغل القسس بالشعوذة والسحر حتى إنهم كانوا يتخذون من الراهبات وسيطات فى الجلسات التى يعقدونها لمعرفة غيب السموات !

ودب الوهن فى جسم الإمبراطورية الرومانية فكان من اليسير على كسرى أنو شروان أن يفتح مدينة هرقل والإسكندرية ، وقد عصف بالإمبراطورية الرومانية القوية ريح تمييز حكام على حكام والحجر على حرية الناس والضرائب الباهظة والجنود المرتزقة ، وكانت أعنف ريح ذلك الانقسام الدينى بين يوسطنيانوس وزوجه ثيودورا .

كان يوسطنيانوس يؤمن بلاهوت المسيح وناسوته وكانت ثيودورا تؤمن بوحدة طبيعة المسيح فكانت تستخدم نفوذها لتحقيق النصر لعقيدتها .

كان يوسطنيانوس يؤمن بلاهوت المسيح وناسوته وكانت ثيودورا متربعة على قلب زوجها الإمبراطور . وعلى الرغم من اختلاف الزوجين فى الدين فقد أثرت ثيودورا على زوجها وعلى قانونه الرومانى الذى وضعه ، فقد زينت له أن يمنح المرأة حقوقها فمنح للزوجة حق الحصول من زوجها على أملاك تعادل صداقها ، ومنح للأرملة حق الوصاية على أطفالها ، فاستجاب لها وجاء القانون متمشيا مع روحها وإن خالف روح بولس .

وكانت ثيودورا تؤيد أتباع مذهب وحدة طبيعة المسيح فى الخفاء وإن كان

ذلك التأييد يزيد هوة الاختلاف بين أبناء الإمبراطورية الواحدة ويوسع شرخ الانشقاق . فلما ماتت الإمبراطورة ثيودورا دخل زوجها يوسطنيانوس الحزين إلى جناحها ليلقى نظرة وداع على ما خلفت من متاع ، فإذا به يجد البطريق السابق أنثيموس الذى طرده لكفره إذ كان من أشد المتحمسين لمذهب طبيعة المسيح الواحدة فى غرفة من غرفاتها الداخلية ، وقد خبأته منذ اثنى عشر عاما . وغضب الإمبراطور وأحس أن ثيودورا كانت تعصف بأركان ملكه . ولو كان قلب ثيودورا ينبض بين جنبيها لقالت لزوجها : « لو آمنت يا مولاى بوحدة طبيعة المسيح لشددت إليك مستعمراتك المؤمنة بوحدة طبيعة المسيح ، أما وإنك من المؤمنين بلاهوت المسيح وناسوته فأبشر بانفصام وحدة الإمبراطورية » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢٥

عاد الحارث بن جبلة ملك الغساسنة إلى الشام بعد أن قتل المنذر ملك الحيرة ، ودفن ولديه فى أرض خصمه ، ونهب عرب الشام عرب الفرس إرضاء لقيصر وانتقاما من كسرى .

كان العرب مبعثرين فى الأرض قد تمزقت كلمتهم وتباينت أهواؤهم وألقيت البغضاء فى قلوبهم ، فراح العربى يقاتل العربى ويسفح دمه لينال الحظوة عند يوسطنيانوس أو كسرى أنو شروان ، فقد ملئ قلب الحارث بالفرح لما أنعم عليه قيصر بلقب « الحارث البطريق ورئيس القبيلة » بعد أن انتصر على المنذر وقتله . وابتهج أبو كرب بن جبلة لما عينه القيصر عاملا على غابات النخيل الواقعة على حدود فلسطين الجنوبية ، وخاض غمار المعارك مع الروم فى حربها مع الفرس وقدم جنوده العرب وقودا لنار المعركة . وقد انتفخت أوداجه غرورا لما أهدى إليه القيصر عشرين ألف أسير حرب فباعهم للفرس والأحباش وملأ جيوبه ذهبا .

ولم يقف تنافر عرب الحيرة وعرب الغساسنة عند حد العداوة السياسية وانضمام كل منهما إلى معسكر من المعسكرين المتنازعين على سيادة العالم ، بل وصلت العداوة إلى لب عقائدهم الدينية ، فلم تكن ممالك العرب وقبائلهم على قلب رجل واحد فقد كان نصارى الحيرة من النساطرة بينا كان نصارى غسان على مذهب القسطنطينية ، حتى سعى الحارث بن جبلة لدى الإمبراطورة ثيودورا لتعيين أساقفة للمقاطعات السورية من القائلين بوجود

طبيعة واحدة فى المسيح . وقد بذل الحارث جهودا مضنية للتقريب ما أمكن بين الكنيستين المتنازعتين فى قلب مملكته ، وفى تخفيف حدة غضب حكومة القسطنطينية على رجال المذهب الذى آمن به وعمل على انتشاره بين السريان وعرب الشام .

ولم يكن العرب الوثنيون فى مملكة الحيرة ومملكة غسان يتعبدون لصنم واحد ، بل كان لكل قبيلة صنمها المعبود الذى ترفعه فوق الأصنام جميعا وتجعله شريكا لله فى ملكه أو تجعله ابنا له أو بنتا . وكانت العداوة الدينية مستعرة بينهم وإن كانوا جميعا يحجون إلى البيت المقدس الذى أقام قواعده فى مكة إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل صادق الوعد الأمين .

وكان التنافس قد دب بين الأوس والخزرج فى يثرب ، فتحالفت كل قبيلة منهما مع قبيلة قوية من قبائل اليهود لتشد أزرها وتقف إلى جانبها إذا ما عدت القبيلة العربية الأخرى عليها ، فقد كانت كلمة اليهود هى العليا فى يثرب ، وكانت البغضاء قد ألقيت فى قلوب الأوس والخزرج وإن كانوا يخرجون معا ليحجوا إلى مناة إلـٰهتهم العظيمة التى نصب تمثالها عند المشلل بقديد على ساحل البحر الأحمر على بعد أميال من المدينة ، وإلى البيت المحرم الذى كان مثابة للناس وأمنا .

وتقطعت الأوصال بين قبائل بنى إسماعيل من معديين ونزاريين وإياديين ومضريين وقرشيين ، فتنصر بعضهم وأشرك بعضهم وجعلوا لله أندادا ، وظل آحادهم على دين أبيهم إبراهيم حنفاء لا يشركون بربهم أحدا . ولم يعد يربط بينهم إلا ذلك البيت المحرم الذى يأتون إليه مهطعين ليذكروا الله ويتشفعوا إليه بشفعائهم فى أيام معدودة .

وكان عرب اليمن يئنون من وطأة حكم الأحباش ، فقد فقدوا حريتهم

وصاروا تحت حكم أبرهة الأشرم الذى بنى كنيسة فخمة فى صنعاء جلب إليها أمهر صناع الروم ، واستورد لها الفسيفاء والزينة ليجذب عرب الجزيرة وليصدهم عن الكعبة التى يعظمها العرب جميعا وتهفو إليها أفئدة الناس .

وانقسم العرب فى اليمن بين مسيحيين قائلين بوحدة طبيعة المسيح ، ومسيحيين قائلين بلاهوت المسيح وناسوته ، وبين متهودين يمارسون شعائر دينهم سرا خشية بطش أبرهة وأساقفته ، وبين وثنيين يعبدون الكواكب والنجوم ويتقربون إلى الرحمن بالأوثان والأصنام حتى إذا ما استدار العام وجاء أوان الحج شدوا الرحال إلى مكة ليطوفوا بالبيت العتيق وليؤدوا مناسك الحج ، ولتتجاوب أرجاء مكة : « لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إلا شريك هو لك . تملكه وما ملك » .

وكان القرشيون يعيشون حول البيت العتيق تخرج قوافلهم من دار الندوة ويجتمع فيها ساداتهم الذين قد بلغوا سن الأربعين ليتشاوروا فى أمورهم كما يجتمع شيوخ الرومان فى مجلسهم ليدلوا برأيهم فى أمور إمبراطوريتهم . وقد انقادت زعامتهم إلى هاشم بن عبد مناف ولما يتجاوز الخامسة والعشرين . وقد مات هاشم بغزة فى شرخ الشباب فحزنت عليه قريش حزن الثكلى على وحيدها ، فتولى أخوه المطلب الرفادة وسقاية الحجيج من بعده ، فقد كان شيبة أكبر أبناء هاشم صبيا يلعب مع الغلمان هناك فى يثرب فى رعاية أخواله بنى النجار وأمه سلمى بنت عمرو الخزرجية .

وكانت سلمى تحدث ابنها عن أبيه زعيم قريش وسيد البطحاء ، وكانت تروى على مسامع الصبى مفاخر قومه فشب شيبة معتزا بقرشيته يذكرها على الدوام وكان يفاخر أترابه من الصبيان بشرف أهله كلما لعب معهم وانتصر عليهم .

وكان يذهب إلى بساتين يثرب وجنات بنى قريظة ويمد بصره إلى المروج الخضر ويصغى إلى خرير الماء فترق نفسه ، وكان يرقب نمو الزرع وارتفاع النخل فتعلم الصبر ، وكان يمشى فى الأسواق وما أكثر ما جلس فى حوانيت التجار اليهود فتعلم بعض فنون التجارة والحساب .

وكان يلقى سمعه إلى المحاولات الدينية التى كانت تدور بين اليهود فعرف شيئا عن التوراة وعن الله ويوم السبت . ولم يعرف شيئا عن البعث والحساب يوم الدين فقد كان اليهود يؤمنون بأن المرء يجزى عن عمله فى الدنيا وأن اليهود وحدهم ينامون فى حضن إبراهيم إذا ما ذهبوا إلى الأرض التى لا رجعة منها ، وقد جاءتهم تلك المعتقدات بعد أن حملوا إلى بابل وتأثروا بمعتقدات البابليين وفسد الدين .

وخرج شيبة ذات يوم ليلعب مع الفتيان وكان أحب اللعب إليه الرماية ، فدعا أبناء أخواله إلى مباراة فى رمى السهام فاصطف الفتيان أمام هدف صغير فى مثل الكف . وفى ذلك الوقت مر رجل من بنى الحارب بن عبد مناة ، فوقف يرقب المباراة من بعيد .

وراح الصبيان يرمون سهامهم فأخطئوا الهدف ، وتقدم شيبة وأزاح عن عينيه خصلة الشعر البيضاء التى تهدلت على جبينه ، ثم وضع سهمه الصغير فى قوسه وأطلقه فأصاب الهدف فرفت على شفتيه بسمة انتصار .

ووضع سهما آخر وصوبه فأصاب مرة ثانية فهزه الفرح وصاح مفاخرا :

— أنا ابن هاشم ، أنا ابن سيد البطحاء .

ورمى الرجل الصبى بنظرة فاحصة فألفى النور الذى كان يتألق فى وجه هاشم يتلألأ فى وجه شيبة ، ورأى الغلام تعلوه مهابة وكأنه ولد ليكون زعيما فى قومه وسيدا من خيرة ساداتها .

وامتطى الرجل راحلته وانطلق إلى مكة للحج وقد عزم على أن ينبئ المطلب نبأ ابن أخيه هاشم الذى يتيه على أقرانه من بنى النجار بشرف منبته .

وكان المطلب فى الكعبة يغدو ويروح يصدر أوامره لرجاله وعبيده ، فقد بدأ موسم الحج وكان عليه أن يوفر للحجاج الماء والطعام وأن يسهر على راحتهم . وبينما المطلب فى مجلسه إذ أقبل عليه ذلك الرجل وقال :

ـــ لو رأيت ابن أخيك شيبة فينا لرأيت جمالا وهيبة وشرفا . لقد نظرت إليه وهو يبارى فتياننا فى رمى السهام ويقول كلما أصاب الهدف : « أنا ابن هاشم ، أنا ابن سيد البطحاء » .

فرفع المطلب رأسه وقال :

ـــ لا أمسى حتى أخرج إليه فأقدم به .

فقال الرجل :

ـــ ما أرى سلمى ولا أخواله يتركونه لك .

فقال المطلب فى عزم :

ـــ ما كنت لأدعه هناك ويترك مآثر قومه ومكانته ونسبه وشرفه .

وما جاء الليل حتى كان المطلب على ظهر راجلته يجد السير إلى يثرب ليعود بشيبة ابن أخيه هاشم . ليشب بين أهله وفى بيت هاشم العظيم .

ووصل المطلب إلى يثرب وجعل يسأل عن شيبة حتى اهتدى إليه فوجده يلعب بين الفتيان فعرفه ، خيل إليه أنه يرى هاشما فخفق قلبه وهاجت شجونه حتى إنه أحس الدموع تبلل روحه قبل أن تترقرق فى عينيه ، ونادى فى رقة :

ـــ شيبة .

فالتفت الفتى إلى الرجل الذى راح يتقدم نحوه وقد أشرقت ابتسامة حلوة فى صفحة وجهه ، وأصبح المطلب على بعد خطوة من الغلام فلم يستطع أن

يكبح عواطفه فضم شيبة إلى صدره وقال :

ـــ أنا عمك يا بني . أنا المطلب .

ووقف الفتيان ينظرون دون أن تتحرك منهم الشفاه . كانت قلوبهم الغضة تستشعر روعة اللحظة وعظمة اللقاء فقد كانت أمجاد يثرب فى أحضان عز مكة وشرفها .

وقال المطلب للفتى الذى كان يرنو إليه فى حب وإكبار :

ـــ ما جئت يا شيبة إلا لأعيدكَ إلى قومك .

وفى مثل لمح البصر احتلت صُورة سلمى رأس ابنها واستولت على وجدانه ، وتدفقت كنوز محبتها فغمرت كل مشاعره فقال فى رقة آسرة :

ـــ لا أبرح حتى تأذن لى أمى .

وانطلقا إلى سلمى فقال لها المطلب :

ـــ جئت أقبض ابن أخي وألحقه ببلده وقومه .

وأحست سلمى كأن خنجرا صوب إلى قلبها وكأن سقف الدار قد حر عليها وكأنها تهوى إلى واد سحيق ليس له قرار ، وشعرت بلوعة الفراق فإذا بمرارة فى نفسها ووقدة نار فى حلقها ودموع تحجرت فى مآقيها وانتشرت بين جنباتها نار ، فخطفت ابنها وضمته إلى صدرها وقالت فى صوت مرتجف مرعوب يقطر حزنا :

ـــ لا لست بمرسلته معك ، إنه ابنى .

فقال المطلب فى إصرار :

ـــ لن أذهب حتى آخذه معى ، إنه ابن أخى ونحن أهل بيت شريف فى قومنا والمقام ببلده خير له من المقام هـٰهنا .

وصمت المطلب لحظة فقد كانت صفحة وجه سلمى مرآة تعكس

انفعالات نفسها ، كانت فى ضيق وحيرة وأسى فقد جاء من يحاول أن ينزع من بين أحضانها ابنها الحبيب ، ابن هاشم الذى ذهب ولن يعود . وغمرها خوف شديد فقد خيل إليها أن المجهول قد فتح فاه ليطبق على شيبة وكأنما قرأ المطلب أفكارها فقال :

— وهو ابنك حيث كان .

فقالت سلمى فى صوت متهدج وهى تضغط بذراعيها على الفتى النحيل الذى تهدلت خصلة شعره البيضاء على وجهه :

— دعنى ثلاثة أيام أفكر .

وراح شيبة يجوس خلال يثرب يقلب وجهه فيها كأنما يتزود منها بنظراته الأخيرة ، فقد أحس أنه مفارقها إلى شرف أهله . إنه يمد بصره إلى آطام اليهود والأوس والخزرج فيحس كأنما يراها لأول مرة ، إنها عز المدينة . وراح يمشى فى الأسواق يتلفت ، كان الحدادون فى حوانيتهم يصنعون أدوات الزراعة والدروع والسيوف والنجارون عاكفين على أعمالهم وقد ازدحمت سوق الصياغة بالمفتونين بالذهب.ترى ماذا سيرى فى مكة ؟!

وانطلق إلى بساتين المدينة وكانت جميعها فى أيدى اليهود فالعرب يحتقرون الزراعة ، ووقف يدير عينيه فى المكان : كان الزرع مختلفا ألوانه يسر الناظرين ، والمياه تترقرق فى القنوات كاللجين ، والثمار تتدلى كاليواقيت والزبرجد والمرجان . كان المشهد يبده القلب ويشرح النفس ويلذ العين ، فجلس على الأرض وأطلق لخياله عنانه يسرح فى الماضى ويحاول أن يخترق ببصيرته حجب الغيب لعله يرى ملامح مستقبله المجهول .

وذهب إلى جبل أحد ، إنه جبل هائل يقف على مشارف المدينة كحارس عظيم فى وجهه صرامة وفى قلبه حب دفين . فاستشعر كأن مشاعره قد شدت

إلى ذلك الجبل وأن بينه وبينه أسبابا قد تتوطد على مر الأيام .

وسخر شيبة من مشاعره فكيف تتوطد الأسباب بينه وبين أحد وعمه فى الدار ينتظر مرور الأيام الثلاثة ليحمله بعيدا عن أحد وآطام يثرب وبنى النجار وبنى قريظة والأوس وبنى النضير وقينقاع ، وبساتين المدينة وعيونها الجارية ونخيلها الذى انتشر فى أرجائها كأعمدة مقدسة فى معبد عظيم ؟!

وعاد شيبة إلى دار أمه وقد تساوقت نفسه مع الكون كله وأحس تعاطفا بينه وبين كل ما وقعت عليه عيناه . ومر بالبيت الذى بناه تبع للنبى الذى حدثه عنه أحبار اليهود أنه قد صار فى حوزة بنى النجار ، وألقى عليه نظرة عابرة ثم دلف إلى الدار يمكث مع أمه ينعم بالحب ويشنف أذنيه بحديثها العذب ويفتح قلبه لكنوز العواطف الرقيقة التى كانت تنسكب فيه .

ومرت الأيام وسلمى فى حيرة تتجاذبها عاطفتها ومصلحة ابنها الحبيب . إنها لا تطيق فراقه فأهون عليها أن تستل روحها من بين جبينها من أن ينتزع شيبة منها ، وإنها لن تغفر لنفسها لو أن أنانيتها انتصرت على مصلحة ابنها الحبيب ، ففى ذهابه إلى أهله عزه وشرفه ومستقبله .

وجاء المطلب ليسمع من سلمى قرارها فراحت سلمى تجمع شتات نفسها وتجاهد أن تلم ذاتها التى ذهبت شعاعا ، فكل خلجة من خلجاتها ترتجف وكل نبضة من نبضات قلبها تهتف بها أن ترحم نفسها وتبقى ابنها إلى جوارها بعد أن ذهب هاشم ولن يعود ، إنه نبضة منها بل هو خفقات الفؤاد ونور البصر وروح الروح . وتحرك لسانها وخرج الصوت منها ينطق بأقسى قرار تتخذه أرملة ، فخيل إليها أن صوتها غريب عنها كأنما كان آتيا من وراء غيب بعيد فقالت بصوت خافت :

— أذنت لك فى أن تأخذه .

وأحست سلمى أن شيئا قاسيا قد عصف بها ، وأنها توشك أن تنهار ، ولكنها تجلدت وراحت تقاوم الدموع التي جرت إلى عينيها تريد أن تسيل . واستشعر المطلب ما فى مقالتها من أسى وشجن فتحركت رقته ورأى أن من الأوفق أن يفر من الموقف المشحون بالانفعالات ، فأخذ شيبة من يده لينطلق به إلى الباب ، ولكن شيبة ارتمى فى حضن أمه ونشج بالبكاء فانهمرت العبرات .

وامتطى المطلب راحلته وأركب شيبة خلفه ووقفت سلمى تودع ابنها ، حتى إذا ما انطلقت الراحلة بالراكبين الكريمين لم تعد سلمى ترى شيئا فقد حالت الدموع بينها وبين شيبة الحبيب . وأحست فى تلك اللحظة أن آخر خيط يربط بينها وبين قريش بل آخر خيط يربط يثرب بمكة قد انقطع .

وراح شيبة يتلفت يلقى نظرة وداع على مرتع صباه وأرض منبته ، وما إن خلف يثرب وراءه حتى أحس لأول مرة قسوة اليتم فقد كان ذلك اليوم أول يوم تغيب فيه سلمى عن عينيه ، وإن كانت فى ذاكرته لا تريم . وعجب الفتى فى نفسه كيف قبلت أمه فراقه ولم يدر بخلده أن أمه إنما ضحت بسعادتها فى سبيل مستقبل زاهر ينتظره ، فهو وريث هاشم صاحب الرفادة والسقاية ، وإنه لشرف عظيم أن يصبح ابنها ذات يوم الرجل الذى يطعم حجاج بيت الله ويروى ظمأهم .

ومر الفتى وعمه بمناة وكان الأوس والخزرج يعظمونها فألفى الناس يذبحون عندها ويطوفون بها ثم يستأنفون رحلتهم إلى مكة ليحجوا إلى البيت العتيق ، فقفزت إلى ذهنه تلك المحاورات التى كانت تدور بين اليهود عن الله وعن التوراة وعن أنبياء بنى إسرائيل . ولم يقو عقله اليافع على أن يستمر طويلا فى التفكير فى الكون وفى رب اليهود وأرباب العرب فراح يشغل ذهنه بمراقبة الطريق والإصغاء إلى حديث المطلب .

وانقضت الرحلة وكان الوقت ظهرا عندما دخل المطلب مكة وهو راكب جمله وخلفه شيبة كأنه البدر يتألق وجهه بالنور ، كان كيوسف الصديق حسنا فلما رآهما الناس حسبوا أن المطلب اشترى له عبدا فراحوا يشيرون إلى شيبة ويقولون :

ــ عبد المطلب .. عبد المطلب .

وأطرق شيبة برأسه كما أطرق يوسف الصديق يوم أن أسروه بضاعة وباعوه فى مصر بيع العبيد . كان شيبة يستشعر غربة وكان يوسف يستشعر غربة ولكن شيبة كان فى حمى عمه وإن لم تحس نفسه بعد بالاطمئنان والهدوء .

وأناخ المطلب راحلته ونزل عنها وأخذ بيد ابن أخيه ثم انطلقا إلى الكعبة ليطوفا بها ، وكان موسم الحج قد وافى فكانت الكعبة تغص بالعرب الذين أتوا من كل فج عميق ، فراح شيبة يطوف حول أول بيت وضع للناس وهو مأخوذ قد انشرح صدره للحرم الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا . وما أتم المطلب وابن أخيه طوافهما وانطلقا إلى الدار حتى عاد الناس يرمقون شيبة فى إعجاب ويقولون :

ــ عبد المطلب .. عبد المطلب .

فصاح المطلب بهم :

ــ ويحكم ! إنما هو ابن أخى هاشم قدمت به من المدينة .

ودخل المطلب بيته فهرعت إليه زوجه ووقفت ترنو إلى الفتى الجميل ، فقال لها زوجها :

ــ شيبة ، ابن أخى هاشم .

ولم يكن للمطلب ذرية فقال لامرأته كما قال الذى اشترى يوسف من مصر لامرأته :

ـــ أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا .

وذهب المطلب وشيبة إلى السوق واشترى المطلب لابن أخيه حلة جديدة ، ثم خرج به إلى الناس وقال :

ـــ هذا شيبة ابن أخى هاشم ، عدت به من المدينة .

فنظر الناس إلى شيبة فى إكبار فقد كان وجهه يتلألأ بالنور كأبيه ، وكان على الرغم من حداثة سنه فخما كهاشم العظيم . وراح شيبة يغدو ويروح بين الكعبة ودار الندوة ودور بنى هاشم ودور قريش . لم يدعه الناس بشيبة بل أطلقوا عليه عبد المطلب .

٢٦

كان لليهود فى يثرب تسعة وخمسون أطما قد وضعوا فيها أسلحتهم وأموالهم وكدسوا فيها المؤن حتى إذا ما خافوا عدوا لهم دخلوا فى آطامهم وتحصنوا بها ودافعوا عن أموالهم وأنفسهم وذراريهم . وكان للعرب النازلين عليهم قبل قدوم الأوس والخزرج ثلاثة عشر أطما ، فلما قدم الأوس والخزرج من اليمن إلى يثرب تفرقوا فى عاليتها وسافلتها . منهم من نزل مع قوم من بنى إسرائيل ومنهم من نزل وحده لا مع بنى إسرائيل ولا مع العرب .

وأقامت الأوس والخزرج بالمدينة ووجدوا الأموال والآطام والنخيل فى أيدى اليهود ووجدوا العدد والقوة معهم ، فمكثوا لا يحركون ساكنا خشية أن يجليهم اليهود عن البلاد .

وعلى مر الأيام زاد عدد العرب القادمين من اليمن وصار لهم مال من التجارة ، فلما رأت قريظة والنضير ــ وكانتا أوفر قبائل اليهود عددا وأكثرها قوة ــ حال الأوس والخزرج خافوهم أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم فسألوهم أن يعقدوا بينهم جوارا وحلفا يأمن به بعضهم من بعض ويمتنعون به ممن سواهم . فتعاقدوا وتحالفوا واشتركوا فى التجارة معا وكثر الأخذ والعطاء بينهم .

وعلى الرغم من العداوة التى بين الصدوقيين والفريسيين من اليهود فقد وجدوا من مصلحتهم أن يتفقوا وأن ينصبوا عليهم ملكا خشية أن ينتهز الأوس والخزرج فرصة انقسامهم ويثبوا عليهم وينتزعوا الأرض منهم ، فرضوا

بالفيطوان ملكا عليهم .

وظهر فى العرب القادمين من اليمن مالك بن العجلان أخو بنى سالم بن عوف بن الخزرج ، فاتفق الحيان من الأوس والخزرج على أن تئول كلمتهم إلى مالك فصار مالك بن العجلان زعيم القوم وسيدهم .

وأحس الفيطوان قوة فراح يستبد بالناس ويشرع فيهم بما يشاء ، وقد كان مما شرعه أن ما من عروس فى يثرب تهدى إلى زوجها حتى تدخل عليه فيكون هو الذى يغتصبها قبل زوجها .

وخطبت أخت مالك بن العجلان وتحددت ليلة زفافها فسال لعاب الفيطوان واشتهى أن يفرض ما سنه فى قومه على الأوس والخزرج ، فلو أن أخت منافسه خضعت له لذل قومها وخضد شوكتهم وجللهم بعار لا يرفعون بعده رءوسهم أبدا ، فأرسل الطاغية أعوانه إلى أخت مالك بن العجلان ليبلغوها ما فرضه الفيطوان عليها .

وذعرت أخت مالك ولم تستطع صبرا فخرجت تبحث عن أخيها فوجدته فى نادى قومه ، فنادت فى لهفة :

ـــ مالك ! أخى مالك .

فغضب مالك واربد وجهه وقام إلى أخته والغضب يعصف به ، فقال لها فى حدة :

ـــ لقد جئت بسُبَّة يا هنتاه تنادينى ولا تستحى ؟!

فقالت له أخته وقد شرقت بدموعها :

ـــ الذى يراد بى أكبر .

ـــ وماذا يراد بك ؟

فأطرقت حياء وسالت عبراتها على خديها وقالت :

ـــ أهدى إلى غير زوجى .

فثارت دماء مالك فى عروقه فقال فى ثورة :

ـــ إلى من ؟

ـــ إلى الطاغية ، إلى ملك اليهود .

ـــ أكفيك ذلك .

وتزيا مالك بن العجلان بزى النساء ودخل مع أخته وقد أخفى سيفه فى طيات ثيابه ، وجاء الطاغية ودخل حيث كانت أخت مالك وبعض النسوة فأشار للنسوة بالانصراف ، وأقبل على أخت مالك وقد انبسطت أساريره وأطلت الشهوة من عينيه وملأت بسمة الزهو والانتصار صفحة وجهه ، فإن هى إلا لحظات حتى يذل الأوس والخزرج وتساق إليه بناتهم قبل أن يدخلن إلى أزواجهن .

وأحس مالك كأن أتون نار اندلع فى كيانه وامتلأ صدره بالحقد والغضب وثارت كرامته ، فإذا بالسيف يرتفع فى الهواء ثم ينقض كالصاعقة على عنق الطاغية قبل أن يضم فريسته بين براثنه ، فإذا به ينهار كالجدار يخبط فى دمه .

ووقف مالك ينظر إلى ملك اليهود وهو يلفظ آخر أنفاسه والأفكار تنثال على رأسه ، إنها الحرب بين قبيلتيه وقبائل اليهود المنتشرة فى كل مكان ، وإنه لا قبل له على حرب سافرة إذا ما أفاق اليهود من هول المفاجأة وجمعوا كلمتهم واتفقوا على الثأر لزعيمهم الذى اغتاله زعيم العرب فى البلاد . فرأى أن يستعين بملك من ملوك العرب لينصره على اليهود الذين أرادوا أن يعبثوا بشرف العرب وأن يذلوا كبرياءهم .

إن آباءه قد خرجوا من اليمن فلماذا لا يفزع إلى ملك اليمن يطلب منه المؤازرة ؟ وكاد يستريح لذلك الخاطر ولكنه تذكر أن اليهودية انتشرت فى اليمن

وأن رابطة الدين قد تكون أقوى من العصبية القبلية فرجع عن ذلك الرأى وراح يفكر فى حل آخر ، فهداه تفكيره إلى أن الحارث بن جبلة من أصل يمنى مثله وأنه من أعوان يوسطنيانوس ملك الروم وأن ملك الروم يمقت اليهود وأن الحارث بن جبلة يسعده قتال اليهود إظهارا لنخوته وإرضاء لسيده .

واستراح لذلك الخاطر فانطلق إلى الرمق بن زيد بن امرئ القيس أحد بنى سالم بن العوف بن الخزرج ، وكان دميما شاعرا بليغا وقال له :

ـــ انطلق إلى ملك الغساسنة وصف له ما نحن فيه من ذلك وغلبة اليهود علينا واسأله النصرة .

فقال له الرمق :

ـــ وماذا أنت فاعل ؟

ـــ سأعمل على إنامة الفتنة حتى تقبل خيل الحارث بن جبلة .

وانطلق الرمق إلى الشام وقد راحت أفعال الحارث بن جبلة تمر بذهنه ويقيس عليها مستقبل سفارته . تذكر أن الحارث خرج إلى فلسطين وأخمد ثورة السامريين التى نشبت بين اليهود فاستراح لخواطره ، فإذا كان الحارث قد خرج إلى فلسطين لغزو اليهود فسيلبى نداء مالك بن العجلان وسينطلق إلى يثرب ليقضى على اليهود هناك كما قضى على رءوسهم فى السامرة من قبل .

ووصل الرمق إلى حوران فإذا بالكنائس قد انتشرت فى ربوعها ، وإذا بالقصور والدور على جانبى طرقاتها التى ازدهرت بالأشجار ، وإذا بالناس فى غدو ورواح يجوسون خلال أسواقها التى غصت بالسلع التى جلبت من القسطنطينية ومن روما ومن مصر ومن بلاد اليمن .

ولاح لعينى الرمق قصر ملك الغساسنة فخفق قلبه وراح يجمع شتات أمره ويستلهم فصاحته ، فإذا بأبيات من الشعر تتراقص على لسانه تعبر عن

حال قومه أصدق تعبير أهاجت عواطفه وأمدته بقوة شدت عزائمه .

ودخل قصر الملك والتمس مقابلة العاهل الغسانى فأذن له ، فسار فى طرقات القصر وهو مبهور فقد كان القصر فى فخامة قصور أباطرة الروم وأكاسرة الفرس قد زين بتماثيل رائعة ، وكان أفخمها تمثال يوسطنيانوس ملك الروم وحامى كنيستها .

وفتح باب قاعة العرش وما إن لمح الرمق الحارث بن جبلة وحوله وزراؤه ورجالى مملكته حتى خر ساجدا . وأذن له الملك أن يرفع رأسه فلما قام على قدميه رماه الملك بنظرة فاحصة فألفاه دميما غاية الدمامة فعجب فى نفسه كيف يختار قوم مثل ذلك الدميم ليكون سفيرهم !

وأذن الحارث بن جبلة للرمق أن يبسط قضيته فراح الرمق يتحدث فى بلاغة كانت أعذب من الموسيقى ويصف حال قومه شعرا رصينا استولى على أفئدة سامعيه وراح يعمل فيهم عمل السحر ، فلما انتهى الرمق من مقالته قال له الملك :

ـــ عسل طيب فى وعاء خبيث .

ورفت على شفتى الرمق بسمة خفيفة ثم قال :

ـــ أيها الملك ، إنما يحتاج من الرجل إلى أصغريه : لسانه وقلبه .

فقال الملك وهو يرمقه فى إعجاب :

ـــ صدقت .

وجمع الحارث بن جبلة جيوشه وخرج من حوران وقد أظهر أنه خارج إلى اليمن ليشترك فى المعركة التى ستنشب هناك بين النصرانية واليهودية ، بين جنود الحبشة النصارى وبين ذى نواس اليهودى الذى خد لنصارى نجران أخدودا وأشعل فيه نيرانه وألقى فيه النصارى الذين أبوا أن يرتدوا عن دينهم

ويدخلوا فى دين اليهود . فلما كان فى الطريق عرج إلى يثرب ليقاتل يهود المدينة وينصر أهله فقد قال له الرمق فيما قال :

— إن الغساسنة من جفنة بن عامر وأن الأوس والخزرج من جفنة أيضا فعلى ذلك فجدهم الأعلى واحد .

ونزل جيش الحارث بن جبلة بذى حُرص وجاء إليه مالك بن العجلان سرا ، فراح الرجلان يتشاوران فقال مالك للملك :

— إن علم القوم ما تريد تحصنوا فى آطامهم فلم تقدر عليهم ، ولكن ادعهم للقائك وتلطف معهم يأمنوك ويطمئنوا إليك ، فتباغتهم ، وتتمكن من رقابهم .

وأرسل الحارث إلى أهل المدينة من الأوس والخزرج فأتوا إليه فوصلهم وأعطاهم ، فلما عادوا إلى دورهم وإلى أعمالهم راحوا يحدثون اليهود عن كرم ملك الغساسنة وعن الهدايا التى وصلهم بها وعن التحف التى يفيض بها معسكره وعن الأموال التى يحملها معه فسال لعاب اليهود وتحرك فيهم طمعهم وباتوا يرقبون دعوة الملك .

وأرسل الحارس بن جبلة إلى اليهود يدعوهم إلى وليمة أعدها لهم وقال لهم رسله :

— من أراد العطاء من الملك فليخرج إليه .

وهز الفرح اليهود ودفعهم الطمع إلى الخروج بأولادهم وخدمهم رجاء أن يحبوهم الملك وأن يعودوا من عنده بأجزل عطاء . وانطلق اليهود رجالا ونساء زمرا إلى حيث أعد لهم الملك وليمة فاخرة وخلت الآطام من حراسها .

وعلى ضوء المشاعل لاحت الموائد التى مدها الملك ككنوز ألقيت فى الصحراء ، فهرع اليهود إليها وراحوا يتناولون ما لذ وطاب وكان وجوه القوم

ورؤساؤهم يحلمون بالهدايا الفاخرة التى سيحبوهم بها ملك الغساسنة . وامتد السمر وانتشر المرح فبدا كأن ذى حرض فى عيد من أعياد اليهود .

ودبت حركة فى المكان فالتفت ضيفان الملك إلى مصدرها فإذا بجنود مقبلين ، فتهللت الوجوه وانشرحت الصدور ولاح الطمع فى العيون فقد جاء الجند بعطاء الملك الكريم ، واتجه الجنود إلى وجوه بنى إسرائيل وأشرافهم وإن هى إلا لحظة حتى ارتفعت السيوف وقطعت الرءوس ، فبرقت أبصار النساء والغلمان ودب الخوف فى القلوب وندت من الشفاه أنات الهلع وماج الناس بعضهم فى بعض يستبقون إلى الآطام والحصون فرارا من الفزع الأكبر .

وقتل الحارث بن جبلة أشراف اليهود ، وقد أرضى ذلك الأوس والخزرج ، فقد صارت لهم الكلمة العليا فى المدينة وسيرضى ذلك الإمبراطور يوسطنيانوس فقد كان ذو نواس ملك اليمن الذى تهود يعذب نصارى مأرب ونجران ، ولم تكن الحرب قد نشبت بين ذى نواس والحبشة ولم يكن أبرهة قد تربع على عرش اليمن بعد .

وكانت الأفراح فى دور الأوس والخزرج فراحوا يعبرون بالشعر عن مشاعرهم يمتدحون مالك بن العجلان الذى قتل طاغية اليهود ، ويمتدحون الحارث بن جبلة الذى نصر أهله وأعزهم فى المدينة فراح أحدهم يمدح مالكا :

فليشهد بما أقول عصابة بَلَوِيَّة وعصابة من سالم
وهل كان للفيطون عُقر نسائكم حكم النصيب وليس حكم الحاكم
حتى حباه مالك عن عِرْسِه حمراء تضحك عن نجيع قاتم

وقام الرمق — العسل الطيب فى الوعاء الخبيث — يمدح ابن جبلة ، فأرهفت الآذان وساد السكون . وتدفق الرمق ينشد الملك شعرا ساحرا أخاذا :

الراشقـــات الفاتنـــات المرشقـــات بما جزينـــا
أمشـــال غزلان الصرائم يأتـــزرن ويرتدينـــا
الرَّيْـــطَ والديـــاج والحلى المفصلَ والبُرينـــا(١)
وأبـــو جبيلـــة خير من يمشى وأوفـــاه يمينـــا
وأبرهـــم برأ وأعلمهـــم بهدى الصالحينـــا
القائـــد الخيـــل الصونـــع بالكمـــاة المُعلمينـــا
أبـــقت لنـــا الأيـــام والحَـــرْبُ الملمـــة تعترينـــا
كَبْشاً له در يغـــل متـــونها الذكـــر السمينـــا
ومعاقـــلا شُمًّـــا وأسيافـــا يقمـــن وينحنينـــا
ومحلـــه زوراء تجحـــف بالرجـــال الظالمينـــا

كان العرب ينشدون الشعر تعبيرا عن سرورهم وكان اليهود ينوحون على قتلاهم فى دورهم وآطامهم ، وقد راحت سارة القرظية ترثى من قتل من قومها :

بأهلى رمـــة لم تغـــن شيئـــا   بذى حرض تُعـفِّيها الريـــاح
كهـول من قريظـة أتلـــفتهم   سيـوفُ الخزرجيـة والرمـاح
ولـو أذنـوا بأمرهـم لحَـالَت   هنـالك دونهم حرب رَدَاحُ(٢)

وقفل الحارث بن جبلة ملك الشام عائدا إلى حوران وقد مهد المدينة للأوس والخزرج فتفرقوا فى عالية المدينة وسافلتها واتخذوا الأموال والآطام وصارت لهم الكلمة والرأى . وأحس اليهود ذلة ومسكنة فى المدينة التى كانت

---

(١) البرين جمع برة : كل حلقة من سوار أو قرط أو خلخال .
(٢) حرب رداح : حرب ثقيلة تضم كتائب جرارة .

فى قبضة يدهم ، ولما كان مالك بن العجلان هو الذى قتل طاغيتهم واستنصر ملك الغساسنة فنصره وقتل أشرافهم وجعل السؤدد فى العرب فقد راح اليهود يلعنون مالك بن العجلان فى كنائسهم وبيوت عباداتهم ، فبلغه ذلك فقال :

تحامـــى اليهود بتَلْعَانِهـــــا   تحامـــى الحمير بأبـــــوالها
ومــــاذا على بأن يلعنــــوا   وتــــأتى المنايـــــا بإذلالها

ولم يدم الوفاء بين الأوس والخزرج طويلا فإن رجلا من الأوس قتل رجلا من بني ثعلبة وكان حليفا لمالك بن العجلان ، فقام مالك قبيلته الخزرج ليثأروا من الأوس قاتل حليفه ، فهبت الأوس للدفاع عن رجل قبيلتهم فنشبت حرب سُمَيْر بين القبيلتين وكان النصر فيها للخزرج ، وكانت تلك الحرب فاتحة العداوة بين الحيين وبداية سلسلة الحروب التى نشبت بينهما على مر الأيام .

واشتعلت نيران حرب أخرى بين الأوس والخزرج بسبب امرأة من بنى سالم ، وقد كانت الحرب بين بنى جحجبا من الأوس وبنى مازن بن النجار من الخزرج ، وقد وقعت فى موضع الرحابة انهزمت فيه بنو جحجبا .

وقد كانت الحروب تنشب بين الحيين العربيين لأسباب تافهة تثيرها العصبية الضيقة ، يشعل فتيلها فى الغالب أفراد لا منازل كبيرة لهم فى المجتمع يقومون بأمور سخيفة ، فإذا ما وقع على أحدهم اعتداء نادى قومه للأخذ بثأره فتثور الحروب وتسيل الدماء وتتسع هوة الخلاف وتلقى فى القلوب العداوة والبغضاء .

٢٧

كان عبد المطلب يجلس فى الملتزم بين باب الكعبة والحجر الأسود يتعلم الكتابة والحساب مع صبيان قريش ، وقد كان الغلام جميل الصورة لين الجانب فطنا هذبت الفترة التى قضاها فى يثرب نفسه ومنحته سماحة كسماحة أرضها الخضراء ورقة كرقة جداولها الجارية بالخير والنماء ، وقد شب يتيما بعيدا عن أمه ليصلب عوده ويعتمد على نفسه ليصبح شخصية قوية فريدة فى قريش .

وكان عبد المطلب إذا ما غادر الملتزم انطلق إلى دار الندوة ليجلس إلى جوار عمه المطلب ، وليصغى إلى شيوخ قريش وهم يتناجون ويتشاورون فى أمر دينهم ودنياهم ، ويتخاصمون أحيانا وتشتد بينهم المنازعات أحيانا ثم يتداعون للصلح فى أغلب الأحايين . فتلقن منذ نعومة أظفاره أساليب الإدارة وفنون السياسة وكان من يرشف منهم رحيق علمه سادة محنكين .

وكان فى مواسم التجارة يمشى فى الأسواق ويمد بصره إلى السلع الواردة من الفرس والشام ومصر وبلاد الروم واليمن والحبشة ، فتتسع مداركه ، ويرى الموازين والمكاييل والمقاييس والأخذ والعطاء بين الناس فيتعلم شيئا من الحساب وأصول التجارة ، وكان يلقى سمعه إلى أحاديث الوافدين من أنحاء الأرض فيلم بطرف من فنون الشعوب وآدابها ومن تاريخها ومن علاقة الدول بعضها ببعض .

سمع عبد المطلب ولا شك بالعداوة الناشبة بين كسرى أنو شروان وبين

يوسطنيانوس قيصر الروم ، ووصلت إليه أنباء العداوة بين الحارث بن جبلة والمنذر بن النعمان واضطهاد ذى نواس الذى تهود لنصارى اليمن ، فقد كانت قوافل التجارة تحمل الأنباء والجواسيس مع السلع التى تعرض فى الأسواق ، وقد سرت الأنباء من دولة إلى دولة عبر طرق التجارة واستفادت من تعبيدها كما استفاد الرسل والمصلحون والمبشرون وجحافل الجيوش .

وفى أوان الحج كان عبد المطلب يعاون عمه المطلب فى إطعام الحجيج وفى نقل الماء إليهم وتوفيره لسقايتهم وسقاية إبلهم ورواحلهم ، وقد عرف أن ذلك الشرف كان لأبيه وأنه وريثه فكان يتعجل الأيام لتكون له الرفادة والسقاية كما كانت لهاشم العظيم .

ونسى عبد المطلب يتمه ولم يعد يذكر إلا أنه قرشى من قريش سادات مكة وحكامها ، وقد توطدت أواصر المحبة بينه وبين شباب قبيلته إلا أنه اصطفى من بينهم حرب بن أمية بن عبد شمس فقد كانا لا يفترقان أبدا ، يتسامران حول الكعبة ويجوسان معا فى مكة وينطلقان إلى الأسواق يصغيان إلى الشعراء الذين يحولون الأسواق التجارية إلى نوادى أدبية ، فكان رنين النظم يربو أحيانا على رنين الذهب والفضة .

وعرف عبد المطلب العلاقة بين عملة قيصر وعملة كسرى وعملة النجاشى وعملة فرعون وعملة ملوك الحيرة والغساسنة واليمن ، والقروض والعقود والفوائد والربا . وقد عرف بعض ذلك أيام كان يلعب فى يثرب مع أقرانه ولكنه فى مكة أتقن معارفه فقد كان فى بيئة تعيش بالتجارة وفى التجارة وللتجارة .

ومرت الأيام وصار ابن هاشم رجلا فلم يهرع إلى الحانات يحتسى الخمر كأقرانه من قريش ، ولم ينطلق إلى البغايا المنتشرات فى كل مكان ولم يشد

الرحال إلى يثرب متعللا بزيارة أخواله ليذهب إلى صاحبات الرايات الحمر اللاتى كان شباب العرب ييمم إليهن ليروى شهوات الأبدان ، بل كتب على نفسه العفة ونأى عن رذائل الجاهلية .

وعزم عبد المطلب على الزواج فراح يفكر . إن سادات قريش يتمنونه زوجا لبناتهن وإن أشراف مكة يرحبون به ، فإنه لشرف عظيم أن يتزوج قرشي فيهم فما بالك إذا كان ذلك القرشى بكر هاشم ومن ستئول إليه الرفادة والسقاية بعد عمه المطلب ، فما أعقب المطلب وقد أشرف على الهلاك . ولكن عبد المطلب وطد نفسه على ألا يتزوج فتاة من مكة ، فقد انتشرت الرذائل فى القبائل التى تحضرت وهو يريد زوجة طاهرة لم تدنس الحضارة حميد خصالها .

وولى عبد المطلب وجهه إلى القبائل فألفى أن قبيلة هوازن لا تزال على فضائل بداوتها ، فشد الرحال إليها وخطب من جُندب بن حجير ابنته السمراء . وقد ماجت القبيلة بالفرح إذ ارتبطت الأسباب بهذه المصاهرة بين القبيلة وبين قريش سادات الحرم .

وحمل عبد المطلب سمراء إلى داره فكانت نعم الزوجة ، ملأت حياته حبا وحبورا . ولكن لم تكن له عصبة من نسبه فى مكة بل كانت عصبته فى قريش ، وإن قريشا قد تنفس عليه مكانته يوما وتتنكر لصلة الدم التى بينها وبينه ، إلا أن عبد المطلب لم يستشعر ذلك الخطر فى ذلك اليوم فقد كان شابا يافعا ولم يكن زعيما فى قومه حتى يكثر حساده وشانئوه .

وأنجبت له سمراء الحارث فقر به عينا ، وتهللت قبيلة سمراء بالفرح فقد ولد فيها سيد من سادات البيت المعظم وقد أصبحوا أخواله ، وعما قريب يمرح أبناء سمراء حول الكعبة ويدرجون إلى دار الندوة ليلقنوا فيها الحكمة . ولكن سمراء لم تنجب لعبد المطلب غير الحارث فمنحوه كل حبهم وأحاطوه برعايتهم .

وتأهبت قوافل قريش للانطلاق إلى اليمن ، وامتلأت الكعبة بوجوه الناس ينتظرون خروج زعيم القافلة من دار الندوة . ومر الوقت وأزيحت الستارة التى أسدلت على بابها فإذا برجل مهيب فخم قد علت السنون وجهه يحيط به هالة من قريش ، فهمس الناس :

ـــ الفيض .

وتقدم المطلب ومن حوله عبد المطلب وحرب بن أمية ونوفل وعبد شمس وأشراف الناس وذهبوا إلى حيث أناخت البعير . وتعانق الرجال ثم ركب المطلب راحلته وأشار للقافلة أن تنطلق ففصلت العير وسارت فى قطار طويل قاصدة اليمن ، فما كانت الحرب قد نشبت بعد بين حمير والأحباش ، وما كان أبرهة الأشرم قد استقر على عرش بلقيس .

ومرت الأيام والشهور وعادت القافلة إلى الحرم وقد نكس الرجال رءوسهم فقد مات الفيض ، مات المطلب صاحب الرفادة والسقاية الشهم الكريم فى أرض اليمن غريبا ، كما مات هاشم غريبا فى أرض عرة من الشام .

وأراد عبد المطلب أن يتولى إرث أبيه وأن يصبح صاحب الرفادة والسقاية فى مكة ، ولكن كان هناك عمه نوفل فهو أسن منه وأشرف ، وقد طمع فيما فى يد ابن أخيه فمشى عبد المطلب إلى رجالات قومه فسألهم النصرة على عمه فقالوا :

ـــ لسنا بداخلين بينك وبين عمك .

وأحس عبد المطلب أنه فرد ليست له عصبة تنصره فى مكة ، فقد تزوج فى القبائل فرأى أن يستعين بأخواله على عمه الذى ظلمه فكتب إلى أخواله :

يا طول ليلى لأحزانى وأشغالى ... هل من رسول إلى النجار أخوالى

ينبى عديا ودينارا ومازنها ... ومالكا عصمة الجيران عن حالى

قد كنت فيكم ولا أخشى ظلامة ذى ظلم عزيز منيعا ناعم البال
حتى ارتحلت إلى قومى وأزعجنى عن ذاك مطّلب عمى بترحال
وكنت ما كان حيا ناعما جَذِلا أمشى العِرَضْنَة[1] سحّابا لأذيالى
فغاب مطّلب فى قعر مظلمة وقام نوفل كى يعدو على مالى
أإن رأى رجلا غابت عمومته وغاب أخواله عنه بلا وال
أنحى عليه ولم يحفظ له رحما ما أمنع المرء بين العم والخال
فاستنفزوا وامنعوا ضيم ابن أختكم لاتخذلوه وما أنتم بخذّال
ما مثلكم فى بنى قحطان قاطبة حى لجار وإنعام وإفضال
أنتم ليان لمن لانت عريكتُه سِلْم وسمام الأبلح الغالى

فخرج سعد بن عدى النجارى فى ثمانين راكبا حتى أتى الأبطح ، وبلغ ذلك عبد المطلب فخرج يتلقاه فلما اجتمع به قال :

— المنزل يا خال .

فقال سعد فى عزم :

— أما حتى ألقى نوفلا فلا .

فقال عبد المطلب :

— تركته جالسا فى الحجر فى مشايخ قريش .

فأقبل سعد ورجاله من الخزرج حتى وقف على رأس نوفل ، فلما رآهم نوفل قال :

— أنعموا صباحا .

قالوا :

---

(١) فى مشيته بغى من نشاطه .

— لا نعم صباحك أيها الرجل . أنصف ابن أختنا من ظلامته .

— أفعل بالحب لكم والكرامة .

وأنصف نوفل ابن أخيه وانصرف أخوال عبد المطلب من بنى النجار إلى يثرب ، ورأى نوفل أن ابن هاشم قد امتنع عليه بأخواله فحالف بنى عبد شمس على بنى هاشم . فدعا ذلك عبد المطلب إلى الحلف فدخل مع رجالات خزاعة الكعبة وكتبوا كتابا تحالفوا فيه وتعاهدوا على أن ينصر بعضهم بعضا على من عاداهم فكان فى مكة حلف بنى عبد شمس وحلف بنى هاشم وخزاعة .

وتأهبت قوافل قريش للخروج إلى العراق فراح العبيد يغدون ويروحون بين مخازن التجار ورواحلهم يضعون على ظهورها السلع التى ستباع فى أسواق العراق ، ولما انتهى كل شيء خرج نوفل بن عبد مناف على رأس القافلة وكان نوفل آخر من بقى من بنى عبد مناف .

وانطلقت القافلة فى ملك الله حتى إذا ما بلغت سلمان من ناحية العراق فاضت روح نوفل ، وقد هلك قبله أخوه هاشم بأرض الشام ثم عبد شمس بمكة ثم المطلب بردمان من أرض اليمن ، فراح الشعراء يبكون بنى عبد مناف أهل الجود والكرم ، وقال مطرود بن كعب الخزاعى يبكيهم جميعا :

يا عين جودى وأذرى الدمـــع وانهمـــرى
وابكــــــــى على السرِّ من كعب المغيرات

يا عين واستنفـــرى بالدمـــع واحتــــفلى
وابكـــى خبيئـــة نفسى فى الملمــــــات

وابكـــى على كل فيـــاض أخـــى ثقـــــة
ضخـــم الدَّسيعـــة[1] وهـــاب الجزيـــلات

(١) الدَّسيعة : العطية الجزيلة

محض الضريبـــة عالى الهم مختلـــق
جلــد النــحيرة ناء بالعظيمـــات
صعب البـــديهة لا نِكسٌ[1] ولا كل
ماضى العــزيمة متــلاف الكــريمات
صَقْــر توسط من كعب إذا نسبــوا
بُحبوحــة المجد والشم الرفيعـــات
ثم انــدبى الفــيض والفيــاض مطّلبــا
واستخرجــى بعــد فيضات بجمـــات
أمسى بردمــان عنــا اليــوم مغتربــا
يا لهف نفسى عليـــه بين أمـــوات
وابكـــى لك الويــل إمــا كنت باكيــة
لعبــد شمس بشرفـــات البنيـــات
وهـــاشم فى ضريح وسط بلقعـــة
تسفـــى الريـــاح عليـــه بين غزات
ونوفـــل كان دون القـــوم خالصتـــى
أمسى بسلمـــان فى رمس بمومـــاة
لم ألــق مثلهــم عُجمــا ولا عربــا
إذا استقـــلت بهم أدم المطيـــات
أمست ديارهــــم منهم معطلــــة
وقــد يكونــون زينــا فى السريـــات

---

(١) لا نِكسٌ : غير جبان .

أفناهـــم الدهـــر أم كلت سيوفهـــم
أم كل من عاش أزواد المنيـــــات
أصبـــحت أرضى من الأقـــوام بَعدَهـــم
بَسط الوجـــوه وإلقـــاء التحيـــات
يا عين فابكـى أبـــا الشعث الشجيـــات[1]
يبكينـــه حُسراً مثـــل البليـــات
يبـــكين أكـــرم من يمشى على قدم
يُعْوِلنـــه بدمـــوع بعـــد عَبرات
يبـكين شخصا طويـل البـاع ذا ثَجـر[2]
آبى الهضيمـــة فراج الجليـــلات
يبـكين عمـرو العُـلا إذ حان مصرعـه
سمح السجيـــة بسام العشيـــات
يبـكينـــه مستكينـــات على حَزَن
يا طول ذلك من حزن وعـــوْلات
يبـــكين لما جلاهـــن الزمـــان له
خُضْر الخدود كأمثـــال الحميـــات
محتزمـــات على أوساطهـــن لِمَـــا
جَرَّ الزمـــان من احـــداث المصيبـــات
أبـــيت ليلى أراعـــى النجـــم من ألم
أبكـى وتبكـــى معـــى شجـــون بنيـــاتى

(١) الشجيات : يقصد هاشم بن عبد مناف .
(٢) ذا ثَجر : التمر يخلط بغيره ، يريد وصفه بالكرم .

وجاء أوان الحج فخرج كل غنى فى قريش عن جزء من ماله إلى عبد المطلب ليصنع منه طعاما للحجاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ، وراح عبد المطلب يضع حياضا من أدم بفناء الكعبة ، وراحت الإبل تجلب الماء من الآبار خارج مكة وتملأ الحياض ليشرب منها ضيف بيت الله .

وأشرف عبد المطلب على راحة الحجيج ، حتى إذا ما انتهى الموسم نام عبد المطلب ذات يوم فى حجر إسماعيل يتفيأ ظلال الكعبة فأتاه آت فقال :

ـــ احفر طيبة .

فقال عبد المطلب وهو لا يزال فى نومه .

ـــ وما طيبة ؟

واستيقظ عبد المطلب وقد أحس كأن قول الهاتف قد حفر فى نفسه ، فراح يعدو إلى دار الندوة ويروح إلى بيته ويصغى إلى محدثيه قد شغل عن كل شىء بذلك الهاتف الذى أمره أن يحفر طيبة ، وما يدرى ما طيبة !

وأشرقت شمس يوم جديد فانطلق عبد المطلب وابنه الحارث إلى الكعبة وطافا بها ، ثم دخل عبد المطلب دار الندوة ليصرف شئون مكة ويجتمع بساداتها يتشاورون فى أمور دينهم ودنياهم ، وذهب الحارث ليشرف على عبيد عبد المطلب من روم وفرس وأحباش وبرابرة أوروبيين أسرهم يوسطنيانوس من بلاد الشمال وباعهم بيع الرقيق .

وأشرف اليوم على الانتهاء وخرج عبد المطلب من دار الحكومة وذهب إلى مضجعه فى الحجرة ونام فيه ، فجاءه الهاتف فقال :

ـــ احفر برة .

ـــ وما برة ؟

وذهب عنه الهاتف .

واستيقظ عبد المطلب وقد شغل بالرؤيا التى رآها وبذلك الهاتف الذى أمره مرة بحفر طيبة ومرة أخرى بحفر برة ، وما يدرى ما طيبة وما برة ، فلما كان الغد رجع إلى مضجعه ونام فيه فجاءه الهاتف فقال :

— احفر المضنونة .

فقال عبد المطلب فى لهفة :

— وما المضنونة ؟

وذهب عنه وقام عبد المطلب وهو فى حيرة من أمره ، إن الهاتف هتف به أن يحفر طيبة وأن يحفر برة وأن يحفر المضنونة ، حتى إذا ما سأله ما طيبة وما برة وما المضنونة ذهب عنه ولم يوضح له أمره . وجعل عبد المطلب يفكر فى حلمه ويتساءل فى نفسه : أأضغاث أحلام أم أمر من السماء ؟ وإذا كان أمرا من الإلـٰه فلم لا يرشده الهاتف إلى كيفية تنفيذ ذلك الأمر وتحقيق رغبة السماء ؟!

وانقضى اليوم فلما كان الغد رجع عبد المطلب إلى مضجعه ونام فيه ، فجاءه الهاتف فقال :

— احفر زمزم .

— وما زمزم ؟

— لا تنزف أبدا ولا تُذم ، تسقى الحجيج الأعظم .

فقام عبد المطلب من نومه متهللا فقد عرف أن طيبة والبرة والمضنونة إنما هى زمزم بئر أبيه إسماعيل ، فانطلق إلى قريش فقال :

— تعلمون أنى قد أمرت أن أحفر لكم زمزم .

فقالوا له :

— فهل بين لك أين هى ؟

— لا .

ــ فارجع إلى مضجعك الذى رأيت فيه ما رأيت فإن يك حقا من الله يبين لك ، وإن يك من الشيطان فلن يعود إليك .

فرجع عبد المطلب إلى مضجعه فنام فيه فأتى الهاتف فقال :

ــ احفر زمزم .

ــ وأين هى ؟

ــ بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم ، عند قرية النمل .

وفهمها عبد المطلب ، إن زمزم عند منحر قريش بين إساف ونائلة ، فغدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث وليس له يومئذ ولد غيره ، فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عندها بين الوثنين فامتلأ قلبه بالفرح . لقد صدقت رؤياه فجاء بالمعول وجاء بابنه الحارث ليشترك معه فى شرف حفر زمزم ، ولم يأت بأحد من عبيده الروم والفرس والأحباش ليعاونوه فقد أبى إلا أن يكون ذلك الشرف فيه وفى الحارث ولده الحبيب .

وراح عبد المطلب وابنه يحفران وقد تصبب العرق منهما ، وراح سادات قريش يمرون بهما ويسخرون من اللذين استجابا لوحى الشيطان . ولم تفت سخريتهم فى عضد عبد المطلب فقد كان الإيمان بالعثور على بئر زمزم ميراث أبيه إسماعيل يملأ أقطار نفسه .

وضرب عبد المطلب المعول فإذا به يرتطم بالحجارة التى طوى بها البئر ، فصاح صيحة فرح تجاوبت لها أرجاء مكة ، وجاء الذين كانوا يسخرون من عبد المطلب وابنه يهرولون ليسمعوا النبأ العظيم .

وعلمت قريش أن عبد المطلب قد عثر على بئر زمزم فحسدوه أن يكون له ذلك الشرف وحده ، فقالوا :

ــ والله لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما .

فقال عبد المطلب لابنه الحارث :

ـــ رد عنى حتى أحفر فوالله لأمضين لما أمرت به .

وعجز الحارث عن أن يرد عن أبيه وأن يحجز قريشا عنه حتى يتم حفر البئر التى أمره الله أن يحفرها ، فأحس عبد المطلب قهرا فلو كان له عشرة أبناء لما قدرت قريش على أن تحول بينه وبين ما يريد ، فالتفت إلى الكعبة فنذر لئن أكمل الله له عشرة ذكور حتى يراهم أن يذبح أحدهم قربانا إلى ربه .

وقالت له قريش :

ـــ يا عبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل وإن لنا فيها حقا ، فأشركنا معك فيها .

فقال فى عزم :

ـــ ما أنا بفاعل ، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم وأُعطيته من بينكم .

ـــ فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها .

ـــ فاجعلوا بينى وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه .

ـــ كاهنة بنى سعد هذيم .

ـــ نعم .

وركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى أبيه من بنى عبد مناف ، وركب من كل قبيلة من قريش نفر وانطلقوا ناحية الشام ، فقد كانت الكاهنة بأشراف الشام .

وساروا أياما حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام ، فنى ماء عبد المطلب وأصحابه فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة ، فذهبوا إلى من معهم من قبائل قريش وقالوا :

ـــ اسقونا .

فأبوا عليهم وقالوا :

ـــ إنا بمفازة ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم .

فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وما يتخوف على نفسه وأصحابه قال :

ـــ ماذا ترون ؟

ـــ ما رأينا إلا تبع لرأيك فمرنا بما شئت .

ـــ فإنى أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما بكم الآن من القوة ، فكلما مات رجل دفعه أصحابه فى حفرته ثم واروه ، حتى يكون آخركم رجلا واحدا ، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعا .

ـــ نعم ما أمرت به .

فقام كل واحد منهم فحفر حفرته ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشا ، وراح عبد المطلب يفكر فيما أشار به على أصحابه فأحس أنه تخادل . وضايقه أنه ركن إلى اليأس واستسلم للموت فهب واقفا وقد ارتسم العزم فى وجهه فقال :

ـــ والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب فى الأرض ولا نبتغى لأنفسنا لعجز ، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد ، ارتحلوا .

وذهب أصحاب عبد المطلب إلى رواحلهم فراح بن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم فاعلون ، وتقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها ، فلما انبعثت به انفجرت من تحت خفها عين من ماء عذب ، فصاح عبد المطلب فرحا وصاح أصحابه وتهللوا بالسرور ، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه واستسقوا حتى ملأوا أسقيتهم .

وذهب إلى القبائل من قريش الذين أبوا أن يسقوه ويسقوا أصحابه ، فقال :

ـــ هلُم إلى الماء فقد سقانا الله ، فاشربوا واستقوا .

فجاءوا فشربوا واستقوا وجعلوا ينظرون بعضهم إلى بعض يتلاومون ، إن

ربهم قد هدى عبد المطلب إلى بئر زمزم وقد فجر له الماء فى الصحراء لما نفد ماؤه وماء أصحابه ، لقد حكم الله لعبد المطلب مرتين فقالوا له :

ـــ قد والله قضى علينا يا عبد المطلب ، والله لا نخاصمك فى زمزم أبدا . إن الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاوة لهو الذى سقاك زمزم ، فارجع إلى سقايتك .

فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة ، وخلوا بينه وبين زمزم وكفوا عنه فراح يحفر هو وابنه الحارث ، فوجد فيها غزالين من ذهب وهما الغزالان اللذان دفنتهما جُرهم فيها حين خرجت من مكة ، ووجد فيها أسيافا وأدرعا فعاد الطمع إلى قريش ، إنهم خلوا بينه وبين البئر ولم يتصالحوا على أن يدعوا له ما فيها من كنوز ، فقالت له قريش :

ـــ يا عبد المطلب لنا معك فى هذا شرك وحق .

قال فى عزم :

ـــ لا ولكن هلم إلى أمر نصف بينى وبينكم ، نضرب عليها بالقداح .

ـــ وكيف ؟

ـــ أجعل للكعبة قِدْحين ولى قدحين ولكم قدحين ، فمن خرج له قِدْحاه على شىء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شىء له .

ـــ أنصفت .

وانطلقوا إلى هبل وكان فى جوف الكعبة وكان أعظم أصنامهم ، وانطلقوا إلى صاحب القداح فجعل قدحين أصفرين للكعبة وقدحين أسودين لعبد المطلب وقدحين أبيضين لقريش ، وكان القدح سهما يستقسمون به . فوضع صاحب القدح السهام فى جراب وتأهب لإخراج أول سهمين .

وراح عبد المطلب يدعو الله الذى هداه إلى بئر زمزم والذى فجر له فى

الفلاة أن يؤيده وأن ينصره ، وضرب صاحب القداح يده فى الجراب فخرج الأصفران على الغزالين .

فصاح عبد المطلب فى فرح :

ــ إنهما للكعبة . لبيت الله .

ومد صاحب القداح يده مرة أخرى فى الجراب فخرج الأسودان على الأسياف والأدرع ، فقال صاحب القداح :

ــ إنهما لعبد المطلب .

وتخلف قدحا قريش الأبيضان .

فضرب عبد المطلب الأسياف بابا للكعبة ، وعلق فى جوفها الغزالين من ذهب ، وشكر الله على أن هداه إلى زمزم ، لا تنزف أبدا ولا تذم ، تسقى الحجيج الأعظم .

٢٨

كانت الأرض تنبض بالكراهية فقد وقعت العداوة بين كسرى أنو شروان ويوسطنيانوس ملك الروم ، وحارب المنذر ملك الحيرة وحليف الفرس الحارث بن جبلة ملك الغساسنة وحليف الروم ، وقد قتل المنذر فى المعركة فاشتدت ضراوة نار العداوة بين عرب الفرس وعرب الروم ، ووطأت الحبشة بخيلها ورجلها أرض اليمن وصار أبرهة الأشرم ملك حمير دون منازع ، وإن كان يظهر الود لنجاشى الحبشة فى الوقت الذى يلقى فيه سمعه إلى يوسطنيانوس الذى يزين له غزو الحجاز ليتصل نصارى بيزنطة بنصارى اليمن والحبشة .

وكانت تلك الدول جميعا تقاسى من الانقسام فى داخلها ، وإن كان عواهلها يحاولون أن تبدو أممهم وحدة متماسكة تقف صفا واحدا خلف ملكها وقائدها وصاحب السلطان الدينى الذى يزعم أنه خليفة الله فى الأرض يفعل ما توحيه إليه السماء ، وإن كانت أبواب السماء قد أغلقت دون الجميع فقد طال عليهم العهد وقست قلوبهم وضلوا عن الصراط .

كان كسرى أنو شروال يحاول أن يقيم العدل فى مملكته ، فدعا إلى إيوانه بالمدائن الكبراء والعظماء وأصحاب الإقطاعيات وكبار الموظفين وقال لهم :

ـــ قد أتاح الله لى ملك الدنيا فأشركتكم فيه وأعطيت كلا منكم ولاية ، ولم أمنع رزق من له على حق فى أثناء حكمى وتركت لعظمائكم ما أعطاهم أبى إياه من ولايات أو مناصب ، فما خفضت من عيش أحدكم ولا حططت

من قدر أحد .

فوعدوه جميعا بالإنصاف والعدل بين الناس ، وعاد الولاة إلى ولاياتهم غير مبالين بنصائحه ، وقد رأى كل منهم فى غروره أنه أجلس الملك على العرش وأنه حر إن شاء اعترف به وإن شاء خلعه .

وكان أشدهم عتواً أحد القواد الذين عينهم كسرى على الولايات وقد ولاه إقليم أذربيجان ولم يكن له مثيل فى القوة والجاه . فكان أكثر القواد أسلحة وحرسا وكانت قصوره أفخم القصور وأكثرها بذخا ، وقد أراد هذا الوالى أن يبنى بيتا ريفيا فأراد أن يشترى كوخا صغيرا لفقيرة عجوز ، فأبت صاحبته بيعه واستولى على ملكها .

وحاولت العجوز أن يعوضها الحاكم عن كوخها ولكنه أعرض عنها ، وألحت فى طلبها دون جدوى فلم تجد مفرا من أن تفزع إلى كسرى فذهبت تلتمس مقابلة الملك فى الصيد ورفعت إليه ظلامتها ، فأخذ الملك الشكوى وأمر أن تنزل ضيفة عند حاكم أقرب قرية منه ، ثم أمر بنقلها إلى قصره حين عاد من الصيد .

وأرسل كسرى رسولا إلى أذربيجان ووكل إليه أن يقوم بتفتيش جميع المدن والنواحى ، وأن يتحرى حالة الحقول والبساتين ليرى ما إذا كانت الضرائب التى فرضت عليها عادلة ، ويتأكد أأصاب المزروعات ضرر من الأمطار ثم ينظر فى حالة المراعى وأماكن الصيد ، ولكن الرسالة السرية كانت بحث شكوى العجوز الفقيرة .

وعاد الرسول بعد أن علم أن العجوز محقة فى شكواها ، فجمع الملك العظماء والموابذة وسألهم :

— كم يملك والى أذربيجان من نقود الذهب والفضة ؟

— لديه ما يساوى خمسمائة ألف دينار من أدوات الذهب والفضة .

— ما قيمته ستمائة ألف دينار .

— وكم لديه من الأملاك ؟

— ليس فى خراسان أو العراق أو أذربيجان ناحية أو مدينة لا يملك فيها بيوتا أو حانات أو أرضا مثمرة أو بيوتا تستغل .

— كم لديه من الخيل والبغال ؟

— ثلاثون ألفا .

— كم لديه من الغنم ؟

— مائتا ألف .

— كم لديه من العبيد إناثا وذكورا .

— ألف وسبعمائة عبد تركى ورومى وحبشى ، وإن لديه أربعمائة وألف جارية .

— أى عقاب يستحق رجل يملك هذا كله إذا طمع فى كوخ امرأة عجوز فقيرة تقية فيسلبها كوخا والقليل الذى عندها ؟

— إنه يستحق العذاب .

فأمر كسرى أنو شروان بسلخه ورمى لحمه للكلاب ، وبملء جلده بالقش وتعليقه على باب القصر ، وأن ينادى المنادى سبعة أيام بأن من يرتكب عملا ظالما يلقى هذا الجزاء . وانتصف كسرى أنو شروان لعجوز فقيرة ولم ينصف شعبه فقد كانت الضياع والأموال فى أيدى حفنة صغيرة من الولاة وكبار الملاك بينا كان سواد الشعب يقاسى الفقر والحرمان .

وقد حالف كسرى رجال الدين الزردشتى لكى يخلص نهائيا من المزدكية ، وكان حر التفكير فكانت نفسه قابلة لبحث الآراء المختلفة فى

المسائل الدينية والطبيعية . ولم يكن يتردد فى استخدام النصارى فى الوظائف ذات النفع العام وقد سمح لليعاقبة أن يكونوا لأنفسهم فرقة وأن ينتخبوا جاثليقا لهم ، وعلى الرغم من ذلك التسامح فقد أعلن الموبدان موبد داد ـ هرمز على نصارى إيران حربا شعواء حينما بدأت الحرب بين الفرس والروم .

وألف المسيحى بولس برسا وكان مطران نصيبين بعد ما تم الصلح بين إيران وبيزنطة سنة ٥٦٢ م مختصرا لمنطق أرسطو باللغة السريانية لكى يقرأه الملك ، وقد عرض فيه الآراء المختلفة بالله والعالم : « فقد وجد من يعتقدون فى إله واحد ، ويدعى آخرون بأنه ليس بواحد ، ويقول آخرون بأن له صفات متضادة ، وينفى آخرون عنه الصفات ، وبعض يقول إنه قادر على كل شىء ، وبعض آخر يقول إن قدرته لا تشمل كل شىء ، بعض يقول إنه خلق الدنيا وكل ما فيها ، وآخرون يقولون إنه ليس خالق كل شىء ، وهناك من يقول إن العالم محدث ، وآخرون يقولون إنه قديم .. » .

وراح يولس برسا مطران نصيبين بعد أن طال عليه الأمد وفسدت المسيحية السمحة يزين لكسرى أنو شروان الفلسفة ويفضلها على الدين ، ولم يكن الحال فى الدولة الرومانية أحسن منه فى مملكة الساسانيين ، فإن يوسطنيانوس أطلق العنان لهواه كلاهوتى ففرض على البطارقة والباباوات أنفسهم أن يتبعوا نظريته فى اللاهوت ، وكان يزج فى السجون من يعارض مذهبه الدينى . وراح يجمع المجالس الدينية ، وقد جمع ثلاثة مجامع كنسية متعاقبة كان يقرر مبدأ جديدا فى المسيحية فى كل مجمع منها . وفى عام ٥٥٣ م عقد المجلس المسكونى الخامس واستنكر فيه قرارات المجامع الثلاثة السابقة ، وندد بالكفر المستتر الذى أقرته تلك المؤتمرات !

وراح يبتكر صيغا لقانون الإيمان رأى أنها لا بد أن تحوز رضا أصحاب

وحدة طبيعة المسيح ، وراح الإمبراطور يتعمق فى خوضه فى دقائق مذهب صورة المسيح وخفاياها فى أثناء بحثه عن حل للمعضلة التى وضع فيها بولس الذى زعم أنه رسول جميع الذين آمنوا بفلسفته التى مزجها بالمسيحية ، فكان يوسطنيانوس يتأرجح بين لاهوت المسيح وناسوته ، وبين وحدة طبيعة المسيح وبين عقيدة التثليث التى يجد العقل صعوبة فى تصورها ، فوقع أخيرا فى الضلالة ولم يكن رعاياه أحسن منه حالا .

وأخفقت سياسة يوسطنيانوس الدينية فى أداء غرضها الرئيسى ، فولايات الإمبراطورية الرومانية الشرقية كانت فى شك من أمره وأمرها ، وكانت الولايات الغربية تستريبه ، ولولا فداحة الضرائب التى أثقلت كاهل الناس لاندلعت ألسنة نيران الثورة ولقامت حرب أهلية بين القائلين بلاهوت المسيح وناسوته وبين القائلين بوحدة طبيعة المسيح ، فقد ألقيت العداوة بين الطائفتين وبينهما وبين القائلين ببنوة المسيح : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون ﴾ .

وكانت الحيرة تموج بالشعراء فى عهد عمرو بن المنذر الذى نسب إلى أمه هند ، فعرف بعمرو بن هند . وكان رجلا سريع الانفعال يتألم كثيرا مما يقال له ، وكان الشعراء يحضرون إليه من أماكن نائية لإنشاده شعرهم ولنيل جوائزه ، ولم تكن مجالسه لتخلو من منافسة الشعراء بعضهم لبعض ومن نقد بعضهم شعر بعض . وقد حدث أن جاء إليه طرفة بن العبد والمسيب بن عَلَس فراح كل منهما ينقد شعر صاحبه ، ومال عمرو بن هند إلى أحدهما فهجاه الآخر ، وأصبح هجاء الشعراء له أمرا مألوفا ما دام قد قبل أن يكون حكما بينهم .

وكان للشعر والشعراء فى ذلك الوقت منزلة عند العرب لا تدانيها منزلة ،

وكانت المفاخرات والمنافسات بينهم تؤدى إلى غضب القبائل وغضب الملك الذى كثيرا ما كان يتهم بتحيزه فى أحكامه لشاعر على شاعر . وقد هجته الخرنق أخت طرفة بن العبد وهجت عبد عمرو بن بشر الذى وشى بطرفة عند ابن هند .

وكان امرؤ القيس الشاعر ابن عتمه وقد لجأ إليه مستجيرا به أيام أن كان أبوه المنذر يتعقبه فأجاره ومكث عنده زمانا . فلما سمع به المنذر طلبه من ابنه فأنذره عمرو ، فهرب حتى أتى حمير مستجيرا بها .

وقد طلب عمرو بن هند من بنى تغلب حينما تولى الملك مساعدته فى الأخذ بالثأر من الغساسنة ومن ملكهم الحارث بن جبلة قتلة أبيه فامتنعوا ، فانصرف عنهم وجمع الجموع ، فلما تهيأت كان أول عمل قام به غزو تغلب فأوجعهم وآذاهم انتقاما منهم لامتناعهم عن نصرته ومعاضدته .

وأغار عمرو على تميم وأغار على الشام وأغار على طىء وتوسط بين بكر وتغلب ابنى وائل فأصلح بينهما بعد حرب البسوس وأخذ رهائن من كل حى من الحيين غلاما من أشرافهم ليكف بعضهم عن بعض . فكانوا يصحبونه فى السلم والحرب .

وقد بنت أمه هند دير هند الكبرى فى الحيرة ، وقد لقبت فيه بالملكة بنت الأملاك وأم الملك عمرو بن المنذر . وكان الملك وأمه على دين النصارى من المؤمنين بوحدة طبيعة المسيح ، فقد كان العرب فى كل مكان يؤمنون بأن لهذا العالم إلـٰها واحدا ولكن الوثنيين منهم جعلوا لله شركاء فعبدوا فى أرض الحيرة العزى والأصنام الأخرى وقالوا إنهن يقربنهم إلى الله زلفى .

وقد فسد الدين فى الحيرة كما فسد فى كل مكان على وجه الأرض ، وشغل الناس بشعر الشعراء الذين كانوا يفدون من كل أنحاء بلاد العرب

لينشدوا شعرهم ولينفثوا نار العداوة فى القبائل والنفوس . « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون » .

وكان عرب الشام فى كنف الروم فكانوا وعرب الفرس فى الحيرة ألد الخصوم . فكانت وحدة العرب ممزقة ولم يكن بينهم إلا الحروب والدماء والثارات : وكان الحارث بن جبلة ملك الغساسنة على دين عمرو بن هند ، كان من المؤمنين بوجود طبيعة واحدة للمسيح ، ولكن السياسة فرقت بينهم وأشعلت نار الحروب التى جعلت العربى يقتل العربى إرضاء لكسرى وقيصر .

كانت المدائن قبلة ملوك الحيرة ، وكانت القسطنطينية قبلة ملوك الغساسنة . ففى سنة ٥٦٣ م ولى الحارث بن جبلة وجهه شطر القسطنطينية ليفاوض رجال الحكم فيمن سيخلفه على العرش بعد وفاته من أولاده ، وفى السياسة التى ينبغى سلوكها قبل عمرو بن هند ملك الحيرة !

واستقبل الحارث استقبالا حافلا فى القسطنطينية ، وترك أثرا عميقا فى نفوس أهل العاصمة وفى رجال القصر والحاشية . وقابل الحارث الإمبراطور يوسطنيانوس وأبرمت بينهما معاهدة تعمل على زيادة شقة الخلاف بين عرب الفرس وعرب الروم ، فقد كان رجال السياسة فى القسطنطينية يرون أن فى اتفاق كلمة العرب قضاء على سلطان الروم والفرس جميعا .

وكان الدين قد فسد فى أرض الشام كما فسد فى الحيرة ولم يبق منه إلا القشور ، وكان الفساد قد تغلغل فى كيان شعوب الأرض حتى النخاع ، وقد ران على نفوس البشر ظلام من جور السادة ، وقلق أثاره من لبسوا مسوح الرهبان وراحوا ينهلون من مناهل الفلسفة ، وضياع مذ ضل قواد سفينة البشرية عن مرفأ الدين وهم يحسبون أنهم على الطريق .

وكان اليهود يقاسون مر الاضطهاد فى أرض الروم وفى البلاد التى تخضع للروم أو تعتنق مذهبها الدينى ، ففى القسطنطينية وفى أرض الشام وفى اليمن بعد أن وطئتها جيوش الحبشة وانتصرت على ذى نواس المتهود ، قامت المناظرات العنيفة بين أحبار اليهود ورهبان النصارى . « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب » .

وقد ذلك اليهود فى المدينة بعد أن انتصر عليهم الأوس والخزرج كما ذلوا فى كل مكان . « وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

ولم تتحد كلمة الأوس والخزرج طويلا ، فسرعان ما دب بينهم الشقاق ودارت رحى الحرب تطحن حلفاء الأمس القريب ، وكانت حروب كثيرة لم يسمع قط فى قوم أكثر منها ولا أطول . تفرقت كلمة الحيين ، فلم يجتمع لهم أمر ، ولم ينفعهم تدينهم ، فقد زاد تفرقهم على مدى الأيام علي الرغم من أنهم جميعا كانوا يحجون إلى مناة وينحرون لها ويقدمون القرابين .

وتربع أبرهة الأشرم على عرش سبأ وبنى فى صنعاء كنيسة جلب لها أمهر الصناع من روما والقسطنطينية ، وزينها بالفسيفساء ووضع فيها الصلبان وتماثيل المسيح المصلوب ، السيد الذى جاء ليمحق القرابين فجعله البشر أعظم قربان استجابة لفكرة فلسفية استعارها بولص من عباد بعل الوثنيين .

وراح أبرهة يبنى الكنائس فى اليمن فبنى كنيسة فى نجران عرفت بكعبة اليمن ، وكنيسة فى صنعاء عرفت « بالقليس » وهى كلمة مشتقة من اليونانية Ekklessia ومعناها « الكنيسة » ، وأنشأ الحبش كنيسة أخرى فى « ظفار » ، وانتشر الأساقفة والمبشرون فى العربية السعيدة يدعون العرب إلى

دينهم وإلى الانشقاق والتشاحن المنتشر بين النصارى بعد أن استبدلت عقيدة الأيام الأولى الصافية بالسخف والخرافات .

وانتزع أبرهة حامى المسيحية فى اليمن وحامل لوائها امرأة من زوجها أبى مرة بن ذى يزن وتزوجها ، فصارت ريحانة ابنة علقمة بن مالك بن يزيد بن كهلان زوجة الملك رغم أنف زوجها اليمنى ، وقد أقيمت مراسيم الزواج فى القليس كنيسته التي يريد أن يكره الناس على الحج إليها وأن يصدهم عن بيت الله الذى أقام قواعده إبراهيم وإسماعيل ، أول بيت وضع للناس .

وتنصر بعض العرب فى اليمن وبقي بعضهم على وثنيتهم الأولى ، ولم تجلب المسيحية فى ركابها الهدوء والسكينة للناس بل أوقعت الفرقة بين الذين آمنوا بالتثليث والذين آمنوا بوحدة طبيعة المسيح وقد كان كل ما أخذه العرب الذين تنصروا عن الكنيسة معاقرة الخمر فقد استقر فى وجدانهم من تعاليم الأساقفة والمبشرين أن المسيح كان شارب خمر بل كان يدمن شربها !

وفى مكة حيث وضع أول بيت للناس ليكون منارة التوحيد كان الناس يؤمنون بإلـٰه قادر رفع السماء وبسط الأرض وهو الرزاق ، إلا أنهم جعلوا له شركاء فجلبوا الأصنام من مصر وسورية والعراق وأرض النبط وكدسوها فى جوف الكعبة ، بل أصبح فى كل دار صنم يتمسحون به ويطوفون حوله كلما خرجوا من دورهم أو عادوا إليها .

اعتقد العرب أنهم إنما يعبدون الأصنام ليقربوهم إلى الله زلفى فجعلوا لله أندادا ، وعبدوا الشمس والقمر والنجوم على أنها زوجة رب الأرباب وأبناؤه وبناته ، وزعموا أن الله قد خلى لنفر من الآلهة بعض تصرفات مثل شفاء المرضى والإتيان بالذرية والنسل وإبعاد المجاعة وإقصاء الوباء فكانوا يتقربون إليها بالذبائح وينزلون لها عن قسم من نتاج أراضيهم ومواشيهم قربانا .

وانتشرت بينهم الخرافات فزعموا أن على كل صنم شيطانا موكلا بأمر الله ، فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بأمر الله وإلا أصابه الشيطان بنكبة بأمر الله . وأن الإنسان إذا مات أو قتل اجتمع دم الدماغ أو أجزاء منه فانتصب طيرا هامة فرجع إلى رأس القبر كل مائة سنة ، وأن روح القتيل الذى لا يدرى بثأره تصير هامة فتزقو وتقول : اسقونى اسقونى ، وإذا أدرك بثأره ذهبت ولا تعود .

وكانوا يخرجون النساء فى الحرب ليبُلْن بين الصفين يرون أن ذلك يطفىء نار الحرب ويقودهم إلى السلم ، وقد سخر بعض شعرائهم من هذه العادة فقال :

هيهات رد الخيل بالأبوال ‏ ‏ ‏ إذا غدت فى صور السعالى[1]

واشتغلوا بالرقى والعزائم وبالخرافات التى تجلب الحب وتنسى العاشق حبيبته ، فكانت الهِنَّمة يجتلب بها الرجال ويستعطف بها قلوبهم ، فكان النسوة يحرقن البخور فى دورهن أو خيامهم ويقلن للخرزة فى إيمان عميق :

ـــ أخذته بالهِنَّمة ، بالليل زوج وبالنهار أمة .

وكانت المرأة إذا أرادت منع الحمل شدت على حقويها خرزة العقرة ، وإذا أرادت التزين لجأت إلى الوشم فتنقش أغلب بدنها بألوان من النقوش من صور حيوانات وغيرها ، وتنقش شفتيها بالوشم الأزرق .

وكانت المرأة إذا مات زوجها تدخل بيتا حقيرا وتلبس شر ثيابها لا تمس ماء ولا تقلم ظفرا ولا تزيل شعرا حتى تمر بها سنة ، فتهرع إلى بيت أبويها وتأتى بشاة أو طائر تمسح به جلدها ثم ترمى بعرة إشارة إلى أنها رمت العدة رمى

---

(١) السعالى : أخبث الغيلان .

البعرة ، وتفاؤلا بعدم عودتها إلى ما كانت فيه وشوقا إلى التزويج لبعد عهدها به .

وكان الرجل منهم يجمع بين الأختين ويختلف على امرأة أبيه ، فإذا مات الرجل عن المرأة أو طلقها قام أكبر بنيه فإن كان له حاجة فيها طرح ثوبه عليها ، وإن لم يكن له حاجة فيها تزوجها بعض إخوته بمهر جديد .

وكان الرجل يرث امرأة ذى قرابة فإن كانت جميلة تزوجها وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها ، وكان له أن ينكح ما يشاء من النساء أحرارا وإماء وأن يرغم إماءه على احتراف الدعارة ليحصل على ما يبغى من أموال .

وكان الاستبضاع منتشرا بينهم وهو أن يسمح الرجل لزوجته أن تضاجع رجلا قويا أو شريفا أو ذى رأى ليأتى النسل قويا أو شريفا أو من ذوى الرأى والحصافة .

وكان الرجال يوصون أهليهم بالبكاء والنوح عليهم إذا ماتوا ، وقد قال طرفة بن العبد لابنة أخيه معبد لما أحس أن عمرو بن المنذر ملك الحيرة يلتمس قتله :

فإن مت فانعينى بما أنا أهله وشقى علىَّ الجيب يا بنة معبد

وكان الاعتقاد بوجود إلٰه واحد قادر قد اختفى مذ راح بولص يعبث بالمسيحية السمحة ويطعمها بفلسفات الوثنيين ، وكانت عقيدة الثالوث المقدس قد أثارت الاختلافات المعقدة وتنافست الشيع والطوائف الكثيرة مظهرة الحذق فى تفسير كيف أمكن الإنسان أن يصبح إلٰها وكيف أمكن أن يصير الثلاثة واحدا ، وقد أدى ذلك إلى ظهور تلال من مؤلفات الجدل والمناظرة باعدت بين الإنسان والغرض المنشود من الدين.وقد أطلق العنان للخمر والميسر والزنا .

كان العالم على شفا السقوط فى هاوية الفوضى فقد انهارت العقائد التى

تعين على إقامة الحضارة ، وقد بدا أن المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف من السنين مشرفة على التفكك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية فقد طال على الناس الأمد وقست قلوبهم وتسرب العطب حتى اللباب إلى شجرة المدنية التى كانت تظلل العالم كله .

ظهر الفساد فى البر والبحر وراح الناس يضربون فى دياجير الجاهلية يتناحرون ويتحاربون تشجعهم عقائدهم على التفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام ، فبدا أن البشرية تنتظر مولد النور ، وبين مظاهر ذلك الفساد الشامل ولد محمد ليكون رحمة للعالمين .

التـــذييل

قال الذين يتشككون فى كل شيء وينكرون ما لا يجدون له سندا من كتابة مسمارية أو كتابة على ورق البردى أو نقش على الحجر : إن سيل العرم وخراب سد مأرب وتمزيق أهل سبأ كل ممزق إن هو إلا أسطورة من أساطير الأولين . وزعم المؤرخون الإسلاميون والإخباريون أن سد مأرب قد تهدم قبل مولد المسيح عليه السلام ورتبوا على ذلك أحداثا وكتبوا تاريخ منطقة الشرق الأوسط معتمدين على ذلك الزعم ، فقال ابن هشام فى السيرة النبوية : « وكان خروج عمرو بن عامر من اليمن ـــ فيما حدثنى أبو زيد الأنصارى ـــ أنه رأى جُرَذا (فأرا كبيرا) يحفر فى سد مأرب الذى كان يحبس عليهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من أرضهم ، فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة من اليمن ، فكاد قومه فأمر أصغر ولده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه ويلطمه ، ففعل ابنه ما أمره به . فقال عمرو : لا أقيم ببلد لطم وجهى فيه أصغر ولدى وعرض أمواله فقال بعض أشراف اليمن : اغتنموا غضبة عمرو فاشتروا منه أمواله . وانتقل فى ولده وولد ولده . وقالت الأزد : لا نتخلف عن عمرو بن عامر. فباعوا أموالهم وخرجوا معه ، فساروا حتى نزلوا بلاد عكٍ مجتازين يرتادون البلدان فحاربتهم عك فكانت حربهم سجالا ، ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا فى البلدان فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ، ونزلت

الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مَرًّا ، ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عُمان عمان ، ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه ففيه أنزل الله تبارك وتعالى على رسوله محمد ﷺ : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم »[1] .

وعلى هذه الرواية يكون الغساسنة ملوك الشام من اليمن وتكون خزاعة التى حكمت مكة قبل أن ينتزع منهم قصى ولاية البيت من اليمن أيضا ، وقد كانت ولايتهم للبيت بعد سيل العرم . ويقال خزاعة : بنو حارثة بن عمرو بن عامر وإنما سميت خزاعة لأنهم تخزعوا من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام فنزلوا بمر الظهران فأقاموا بها ، ثم نفوا جرهم عن مكة واستولوا على ولاية البيت .

وعلى هذه الرواية يكون الأوس والخزرج من اليمن انطلقوا بعد سيل العرم إلى يثرب ، ونزلوا بها بين قبائل اليهود وفى حمايتهم .

أنكر المنكرون وقوع سيل العرم وأرجع الإخباريون ذلك الحادث إلى ما قبل الميلاد ، وحدد التاريخ المكتوب زمن سيل العرم ما بين سنة ٥٤٢ و ٥٧٠ ميلادية . وقد محق ذلك التاريخ المكتوب قول القائلين بأن العرم كان أسطورة من الأساطير فقد ترك لنا « أبرهة » وثيقة مهمة على جانب خطير من الأهمية وهى النص الذى وسم بـ Glaser, 618 وبـ Cis, 15 عند الباحثين فى العربية الجنوبية ، وهذه الوثيقة تبحث فى تجديد أبرهة لسد مأرب مرتين المرة الأولى فى شهر « ذو المدرج » من سنة ٦٥٧ من التاريخ الحميرى المقابلة لسنة ٥٤٢ للميلاد ، والثانية فى شهر « ذو معان » من سنة ٦٥٨ من التاريخ الحميرى أى فى

سنة ٥٤٣ ميلادية أى بعد سنة واحدة من التجديد الأول .

ومن هذه الوثيقة يثبت أن سد مأرب قد خرب بعد سنة ٥٤٣ ميلادية ، وأن سيل العرم وتمزق سبأ كل ممزق كان بعد تلك السنة أو فى أثنائها . ولم أستطع أن أفر من هذه الحقيقة وأنا أروى تاريخ هذه الحقبة رواية تاريخية تعتمد أول ما تعتمد على تسلسل الأحداث واحترام تسلسلها الزمنى ، فلم أعتمد على رواية ابن هشام والإخباريين الإسلاميين الذين حسبوا أن سيل العرم كان قبل الميلاد بل أرجعت واقعة خراب سد مأرب إلى تاريخها الحقيقى ، ورحت آخذ بالروايات التاريخية التى تتفق مع هذه الحقيقة فلم آخذ برواية القائلين بأن خزاعة من اليمن وإنما سميت خزاعة لأنهم تخزعوا من ولد عمرو بن عامر بعد سيل العرم ، بل أخذت بالرأى القائل بأن عمرو بن لحى جد الخزاعيين من عدنان وليس من قحطان .

ولم تضطرب روايات الإخباريين مثل اضطرابها فى هذه الحقبة الواقعة بين قريش ومولد الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد كانت رواياتهم تناقض بعضها بعضا ، بل إن المؤرخ منهم كان يروى عن حادث واحد روايات متعارضة مما يدل على أنه كان يدون ما يسمع دون نقد أو تمحيص .

ومن مواضع الاختلاف بين الإخباريين اختلافهم فى تسلسل أسماء من حكموا اليمن والحيرة وغسان فى هذه الحقبة التى ندرسها ، وقد اعتمدت فى تسلسل الأحداث فى هذا الجزء من السيرة على روايات المؤرخين الرومان واللاتين الذين عاصروا الأحداث المروية فى منطقة الشرق الأوسط وعلى روايات الإخباريين التى تتفق مع منطق التاريخ فيما لم أجد له سندا فى نصوص جاهلية أو نصوص مؤرخين معاصرين .

وقد أكثر الإخباريون والمؤرخون الإسلاميون من رواية الأساطير

والمعجزات التى وقعت من الصالحين الذين كانوا على دين سماوى ، وقد استعنت ببعض تلك الأساطير للدلالة على سمة العصر الذى أروى قصته . وكذلك أثبت بعض ما جرى بين الكهان والحكام فقد كانت الكهانة بمثابة الدين عند العرب قبل الإسلام ، وسأعرض نموذجا من النماذج الكثيرة التى لم أعتمد عليها والتى تفيض بها كتب المؤرخين الإسلاميين .

قال ابن هشام فى « السيرة النبوية » تحت عنوان « ابتداء وقوع النصرانية بنجران » : قال ابن إسحاق : حدثنى المغيرة بن أبى لبيد مولى الأخنس عن وهب بن منبه اليمانى أنه حدثهم :

أن موقع ذلك الدين بنجران كان أن رجلا من بقايا أهل دين عيسى ابن مريم يقال له فيميون وكان رجلا صالحا مجتهدا زاهدا فى الدنيا مجاب الدعوة . وكان سائحا ينزل بين القرى لا يعرف بقرية إلا خرج منها إلى قرية لا يعرف بها ، وكان لا يأكل إلا من كسب يديه وكان بناء يعمل الطين وكان يعظم الأحد ، فإذا كان يوم الأحد لم يعمل فيه شيئا وخرج إلى فلاة من الأرض فصلى بها حتى يُمسى . قال : وكان فى قرية من قرى الشام يعمل عمله ذلك مستخفيا ففطن لشأنه رجل من أهله يقال له صالح ، فأحبه صالح حبا لم يحبهُ شيئا كان قبله فكان يتبعه حيث ذهب ولا يفطن له فيميون . حتى خرج مرة فى يوم الأحد إلى فلاة من الأرض كما كان يصنع وقد أتبعه صالح وفيميون لا يدرى ، فجلس صالح منه منظر العين مستخفيا منه لا يحب أن يعلم بمكانه ، وقام فيميون يصلى فبينما هو يصلى إذ أقبل نحوه التنين — الحية ذات الرءوس السبعة — فلما رآها فيميون دعا عليها فماتت ، ورآها صالح ولم يدر ما أصابها فخافها عليه ، فعيل عولُه (نفد صبره) فصرخ : يا فيميون . التنين قد أقبل نحوك . فلم يتلفت إليه وأقبل على صلاته حتى فرغ منها ، وأمسى فانصرف

وعرف أنه قد عُرف . وعرف صالح أنه قد رأى مكانه فقال له : يا فيميون تعلم والله أنى ما أحببت شيئا قط حبك ، وقد أردت صحبتك والكينونة معك حيث كنت . فقال ما شئت ، أمرى كما ترى ، فإن علمت أنك تقوى عليه فنعم ، فلزمه صالح .

وقد كاد أهل القرية يفطنون لشأنه وكان إذا فاجأ الضر العبد منهم دعا له فشُفى ، وإذا دعى إلى أحد به ضر لم يأته . وكان لرجل من أهل القرية ابن ضرير فسأل عن شأن فيميون فقيل له . إنه لا يأتى أحدا دعاه ولكنه رجل يعمل للناس البنيان بالأجر ، فعمد الرجل إلى ابنه ذلك فوضعه فى حجرته وألقى عليه ثوبا ، ثم جاءه فقال له : يا فيميون إنى قد أردت أن أعمل فى بيتى عملا فانطلق معى إليه حتى تنظر إليه فأشارطك عليه ، فانطلق معه حتى دخل حجرته ثم قال له : ما تريد أن تعمل فى بيتك هذا ؟ قال : كذا وكذا . ثم انتشط الرجل الثوب (كشفه بسرعة) عن الصبى.ثم قال له : يا فيميون : عبد من عباد الله أصابه ما ترى فادع الله له ، فدعا له فيميون فقام الصبى ليس به من بأس . وعرف فيميون أنه قد عرف فخرج من القرية واتبعه صالح . فبينما هو يمشى فى بعض الشام إذ مر بشجرة عظيمة فناداه منها رجل فقال : يا فيميون . قال : نعم . قال : مازلت أنظرك وأقول متى يجىء حتى سمعت صوتك فعرفت أنك هو . لا تبرح حتى تقوم على فإنى ميت الآن ، قال : فمات وقام عليه وواراه ، ثم انصرف .

وتبعه صالح حتى وطآ بعض أرض العرب فعدوا عليهما ، فاختطفتهما سيارة من بعض العرب فخرجوا بهما حتى باعوهما بنجران وأهل نجران يومئذ على دين العرب يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد فى كل سنة ، إذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلىَّ النساء ثم خرجوا إليها

فعكفوا عليها يوما ، فابتاع فيميون رجل من أشرافهم وابتاع صالحا آخر ، فكان فيميون إذا قام من الليل يتهجد فى بيت له — أسكنه إياه سيده — يصلى ، استسرج له البيت نورا حتى يصبح من غير مصباح ، فرأى ذلك سيده فأعجبه ما يرى منه فسأله عن دينه فأخبره به ، وقال فيميون : إنما أنتم فى باطل ، إن هذه النخلة لا تضر ولا تنفع ولو دعوت عليها إلـٰهى الذى أعبده لأهلكها وهو الله وحده لا شريك له . قال : فقال له سيده : فافعل فإنك إن فعلت دخلنا فى دينك وتركنا ما نحن فيه . قال : فقام فيميون فتطهر وصلى ركعتين ثم دعا الله عليها فأرسل الله عليهما ريحا فجعفتها (أتلفتها وأسقطتها) من أصلها فألقتها ، فاتبعه عند ذلك أهل نجران على دينه فحملهم على الشريعة من دين عيسى ابن مريم عليه السلام ، ثم دخلت عليهم الأحداث التى دخلت على أهل دينهم بكل أرض فمن هنالك كانت النصرانية بنجران فى أرض العرب .

فهذا حديث وهب بن منبه عن ابتداء النصرانية فى نجران ، وهناك حديث محمد بن كعب القرظى عن أمر عبد الله بن الثامر وقصة أصحاب الأخدود ، وهو حديث عن السحر وتعليم أبناء عظماء نجران السحر على يدى ساحر عظيم ، واختلاف ابن الثامر إلى فيميون عوضا عن ذهابه إلى ذلك الساحر ، وتعلم عبد الله بن الثامر النصرانية على فيميون فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلحق أحدا به ضر إلا قال له : يا عبد الله أتوحد الله وتدخل فى دينى وأدعو الله فيعافيك مما أنت فيه من البلاء ؟ فيقول : نعم . فيوحد الله ويسلم ويدعو له فيشفى حتى لم يبق بنجران أحد به ضر إلا أتاه على أمره ودعا له فعوفى ، حتى رفع شأنه إلى ملك نجران فدعاه فقال له : أفسدت علىَّ أهل قريتى وخالفت دينى ودين آبائى لأمثلن بك ، قال : لا تقدر على ذلك . قال : فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيطرح على رأسه فيقع إلى الأرض ليس به

بأس ، وجعل يبعث به إلى مياه بنجران بحور لا يقع فيها شيء إلا هلك ، فيُلقى فيها فيخرج ليس به بأس . فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر : إنك والله لن تقدر على قتلى حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به ، فإنك إن فعلت ذلك سُلِّطت عليَّ تقتلنى قال : فوحد الله تعالى ذلك الملك وشهد شهادة عبد الله ابن الثامر ، ثم ضربه بعصا فى يده فشجه شجة غير كبيرة فقتله .

ووهب بن منبه ومحمد بن كعب القرظى من اليهود الذين أسلموا ، وقد روى مسلمة أهل الكتاب أحاديث كثيرة متهافتة عن حسن نية أو سوء قصد ، وقد أخذ عنهم الإخباريون المسلمون دون حذر على اعتبار أنهم أهل كتاب وأهل علم ، فماجت جوانب التاريخ الإسلامى بالإسرائيليات وأساطير الأولين والخرافات وخوارق المعجزات ، وقد حاولت وأنا أكتب السيرة أن أبتعد عن الإسرائيليات وأن أعتمد على التاريخ ومنطق الأحداث .

وقد حاولت فى هذا الجزء من السيرة أن ألقى ضوءا على أن المهتمين بالديانات فى الفترة ما بين المسيح عليه السلام ومولد محمد ﷺ كانوا ينتظرون ظهور « الفارقليط » الذى بشر به المسيح ، فزعم مانى أنه هو « الفارقليط » وكذلك زعم مزدك وقد كذبهما معارضوهما وقالوا لهما إن نبوءة ساسان تؤكد أن « الفارقليط » المنتظر من بلاد العرب وأن زرادشت قد أوصاهم بأن يستمسكوا بما جاءهم به إلى أن يجيئهم صاحب الجمل الأحمر من بلاد العرب . وكان هدفى من ذلك تأكيد أن البشرية كانت تنتظر ظهور ذلك النبى العالمى الذى بشر به الأنبياء من قبل وقال عنه المسيح : إن لم أذهب لم يأت « الفارقليط » الذى سيمكث معكم إلى الأبد ، فالفارقليط نبى منتظر رسول عالمى تترقب ظهوره البشرية ، وليس المعزى ولا روح القدس كما حاول أحبار النصارى ورجال الدين المسيحى تفسير معنى « الفارقليط » بعد بعث محمد

رسول الله ﷺ : « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد »(١) .

وقد راودتنى فكرة عن « التصوف عند العرب » عندما كنت أكتب الفصل الخاص بولاية الإجازة بالناس من عرفة ومزدلفة ومنى ، فقد كانت صوفة هى التى تلى الإجازة بالناس ، وقد عرفت بذلك الاسم لأن الغوث بن مر أد بن طابخة بن إلياس بن مضر قد تصدقت به أمه على الكعبة عبدا لها يخدمها ويقوم عليها وألبسته الصوف وجعلته ربيطا للكعبة ، فعرف هو وولده من بعده بصوفة ، وقد صار ذلك سنة فى العرب فكان يقال صوفة وصوفان لكل من يقوم بشىء من خدمة البيت . وعندى أنه لما جاء الإسلام وانقطع بعض المسلمين للعبادة ووهبوا أنفسهم لله عرفوا بالصوفى ، كما عرف الذين وهبوا أنفسهم للكعبة قبل الإسلام بصوفة وعرفت طريقتهم بالتصوف . ثم بدأ اتصال الإسلام بفارس والهند فنهل التصوف كعلم من فلسفات الفرس والهنود .

ولو ألقينا نظرة فاحصة على العالم منذ أيام إبراهيم الخليل إلى يوم مولد الرسول ﷺ فى الاقتصاد والاجتماع والفلسفة والدين ، لوجدنا أن العالم قد مر بكل ما يمر به عالمنا اليوم من تصارع فى المذاهب الاقتصادية بين الرأسمالية والشيوعية ومن مبادىء أخلاقية ومبادىء تحررية إباحية انحلالية فوضوية ، ومن فلسفات جادة تبحث عن جوهر الحقيقة وفلسفات تدعو إلى تحصيل اللذة والسرور وتمجيد الجسد وإنكار الروح ، ومن وثنيين وموحدين ومؤمنين بالثالوث المقدس قبل أن يعتنق بولص مبدأ التثليث ويورثه للمسيحيين الذين آمنوا بما جاءهم به بولص يوم أن سلب كرسى السيد

---

(١) الصف ٦

المسيح ، ومن قدريين ودهريين وطبيعيين ووجوديين .

كان الملك فى مصر القديمة أيام الفراعين إلـٰها تجبى الضرائب لتملأ خزائنه وتقوم الحروب إعلاء لذكره وتشاد العمائر تكريما له وتشريفا لمخلوق ما أن يكون له نصيب فإن هذا لا يعدو أن يكون عارية يستردها الملك عندما يشاء ، وكانت الرعية ملكا له يتصرف فى حياتها وأرواحها كيفما يريد .

ويقوم إلى جوار الملك مستشاروه وطائفة الكهنة والأسرات الغنية من النبلاء والقواد ، وقد كان لهم نفوذهم وكان الملك يغدق عليهم على حساب الشعب فى الوقت الذى يؤلب فيه طائفة على أخرى ليستقيم له الأمر وليضمن لنفسه حكما طويلا مملوءا بالخير والبركات .

وفى العراق فى أرض بابل قبل أن يتولى العرش حمورابى — ويقال إن إبراهيم الخليل قد بعث فى عهد أبيه — وهو المؤسس الحقيقى للوحدة البابلية ، كانت سومر وأكاد متحدتين تحت تاج واحد ، وكانت المدينة تكون فى المجتمع خلية لها حياتها الخاصة ويعتبر تأسيسها عملا دينيا لا يستطاع القيام به إلا بناء على أوامر الآلهة العظام ، لأن المدينة هى قبل كل شىء مركز للعبادة ، فكان لاسم المدينة واسم الإلـٰه الذى تنازل فرضى أن يستقر بها مدلول واحد . ولما أنشأ ملوك الأسرة البابلية الأولى مدنا جديدة منحوها اسم الإلـٰه المعبود ، مثل « كارشماش » ومعناها « قلعة الإلـٰه شماش » ، و« نور أداده » ومعناها « نور الإلـٰه أداد » .

كان الإلـٰه فى العراق سيد المدينة الحقيقى وكان يسكنها مع زوجه وأولاده وخدمه وسدنته ، وكان المعبد مسكنه وكان أفخر مساكن المدينة على الإطلاق ، وكان للآلهة أملاك خاصة وصوامع للغلال وعبيد وجيوش . ولم يكن الإلـٰه يدير شخصيا شئون المملكة أو المدينة بل كان يختار وكيلا ، ملكا

أو إيشاكو ، يعهد إليه رعاية شئون شعبه . فكان الملك أو رجل الدين — وكثيرا ما كان الملك هو الكاهن الأعظم للإلٰه — يستغل الشعب باسم إلٰهه المعبود .

وكان الملك وهو المشرف على الإدارة المدنية والدينية لا يلبث أن يؤله نفسه فيصبح المتصرف فى المعابد وأملاكها وخيرات البلاد وفى شعبه المسكين .

أما فى فارس فقد كون الإيرانيون منذ القدم جمعية من الأسر الكبيرة يستند نظام إقليمها إلى أربع وحدات : البيت والقرية والقبيلة والإقليم ، وسمى الشعب آريا وهى الكلمة التى اشتق منها إيران .

وكانت الدولة الأخمينية استمرارا للدولة الأشورية والبابلية ، ولكن التنظيم على أساس الأسرة لم يمح فكان فى فارس الأخمينية سبع قبائل ممتازة يجرى فى إحداها الدم الملكى . وقد جعل الملك الأعظم لنفسه أتباعا يمنحهم إقطاعات يتوارثونها مع امتيازات خاصة . ولم تعد صلة الأسرات وثيقة بالقرى الفارسية التى نشئوا فيها فحسب بل تعدتها إلى أملاك كبيرة أخرى فى شتى أنحاء الدولة . وقد أتيح لأناس من غير الأسرات الكبيرة من الفرس والميديين ومن الأجانب أيضا كالإغريق المنفيين أن يملكوا إمارات يمنحها الملك الأعظم ، وقد تمتعوا بامتيازات تتفاوت خطورة منها الإعفاء من الضريبة أحيانا بحيث كان فى مقدورهم أن يستحوذوا على الأموال التى يجبونها من رعاياهم .

وهذا هو مبدأ الإقطاع فى فارس . كان الملك هو الرئيس الأعلى وكان الأمراء هم رؤساء البيوت الكبيرة ، وكان لكل منهم حراثون وعليهم يقع

عبء الخدمة العسكرية ، وكانوا خاضعين لضرب من الرق تحت سيطرة ساداتهم الأقوياء .

لم يعرف الشرق منذ فجر التاريخ إلى مولد الرسول عليه الصلاة والسلام من نظم الحكم غير النظام الملكى المستبد الذى استمد سلطانه من السماء ، بادعائه أنه وكيل الإله فى الأرض مرة وبزعمه أنه هو الإله نفسه مرات . أما فى الغرب فقد استبدلت رومة حكم الملوك بحكم الشيوخ فولدت بذلك الجمهورية ، وظل مجلس الشيوخ صاحب السلطة العليا فى رومة وكان حق المجلس من الوجهة النظرية مقصورا على مناقشة ما يعرضه عليه أحد كبار الحكام من المسائل وإصدار قرار فيها ، وكانت قراراته فى هذه المسائل استشارية محضة ليس لها قوة القانون ، ولكن كان للمجلس من عظم المكانة ما جعل الحكام يعملون بتوصياته فى جميع الحالات تقريبا .

وظل مجلس الشيوخ هو صاحب السلطة فى رومة إلى أن انتزع يوليوس قيصر السلطة منه وصار الحكم فيها قيصريا . وقد كانت الديمقراطية تحتضر فى عاصمة البلاد الإيطالية فكانت الأحكام القضائية ومناصب الدولة وعرش الملوك الخاضعين لسلطانها تباع إلى من يعرض فيها أغلى الأثمان ، من ذلك أن القسم الأول من المقترعين فى الجمعية قد استولى فى عام ٥٣ م على عشرة ملايين سسترس ثمنا لأصوات أفراده ، ولما لم ينفع المال لم يتورع ذوو الشأن عن الالتجاء إلى الاغتيال أو كشف الستار عن ماضى الناس والتهديد بالكشف عن فضائحهم فلم يروا أمامهم سبيلا غير الإذعان . وفشا الإجرام فى المدينة كما انتشرت السرقات فى الأقاليم ، ولم تكن فى هذه ولا فى تلك قوة من الشرطة تطمئن الناس على أنفسهم أو أموالهم فكان الأغنياء يستأجرون

عصابات من المجالدين يدفعون عنهم الأذى أو يؤيدونهم فى الجمعية .

واستهوت رائحة المال أو هبات الحبوب أحط الطبقات فى إيطاليا فهرعت إلى رومة وجعلت اجتماعات الجمعية مهزلة من المهازل ، فكان كل من يقبل الاقتراع كما يطلب إليه يؤذن له بدخولها سواء أكان من مواطنى رومة أم من غير مواطنيها . وكان يحدث فى بعض الأحيان ألا يكون من بين من أعطوا أصواتهم إلا أقلية صغيرة هى التى لها حق الاقتراع . وكثيرا ما كان الخطباء يحصلون على حق الخطابة فى الجمعية بالهجوم على المنصة والاستيلاء عليها قوة واقتدارا ، وأضحت العصابة التى ترفعها قوتها على سائر العصابات المنافسة لها هى التى تشرع للدولة كما كان الذين يقترعون على غير هواها يضربون حتى يكاد يقضى عليهم ثم تشعل النار بعد الضرب فى بيوتهم ، وقد كتب شيشرون بعد جلسة من تلك الجلسات يقول :

« لقد امتلأ التيبر بجثث المواطنين كما سدت بها البالوعات العامة ، واضطر الأرقاء إلى امتصاص الدم بالإسفنج من السوق العامة » .

هذه هى أساليب الحكم فى العصور الخالية ، ملكية مستبدة أو جمهورية سرعان ما يدب فى ديمقراطيتها الفساد ، أو قيصرية أو كسروية ، وهى بعينيها أساليب الحكم فى عصرنا ، فلم تستطع البشرية أن تبتدع أسلوبا آخر غير تلك الأساليب التى مارستها منذ أقدم العصور . وقد وقع الظلم فى جميع صور الحكم على سواد الشعب بينما استأثر بخيرات الأرض طبقة مستبدة منحت نفسها حقوقا باسم الحق الإلٰهى تارة ، وباسم الشعب تارة أخرى وبحق القوة والقهر على مر العصور .

وقد بعث الله رسله ليقفوا فى وجوه الجبارين ولينتزعوا منهم حق الناس

وليشرعوا لهم ما يصلح دينهم ودنياهم ويشحذ ضمائرهم لسعادة البشرية جمعاء ، وقد عرفت البشرية العزة والكرامة والسعادة الحقة فى ظل الدين ، وتفيأت ظلال العدالة ما دامت فى كنف القوانين السماوية ، وقد تمرغت فى حمأة الاستبداد والظلم كلما طال على الناس العهد وقست قلوبهم .

وقد حاولت الفلسفة فى بعض الأحايين أن ترسم للناس طريق سعادتهم فأضلتهم الطريق ، وإن بدا فى بعض ما قال به الفلاسفة أن طريقهم وطريق الدين واحد وأنهم على الصراط المستقيم .

كان أفلاطون فى جمهوريته ينشد العدالة فراح يسأل ما الإنسان وما مصيره ، وخلص من أسئلته إلى أن الدولة المثلى فى نظره يجب أن تكون أرستقراطية تحكمها طبقة من الحكام يتعلمون تعليما عاليا وافيا ثم يختارون لمنصبهم بفضل مقدرتهم على إدراك المبادئ التى تقوم عليها الدولة وجدارتهم فى تطبيقها وحفظها ، وهؤلاء يعيشون عيشة شيوعية لكى لا تغريهم المطامع بالحياد عن الصراط المستقيم .

قال أفلاطون بشيوعية المال وبشيوعية النساء والأولاد لتتحرر البشرية من كل ميل للملكية ، وأسهب فى طريقة تربية النساء ومساواة المرأة بالرجل وقيام الدولة على تربية الأبناء غير الشرعيين ، وأورد كثيرا من الآراء الفلسفية فى شيوعية المال والمرأة والأولاد ، وقد ظلت آراؤه مجرد خيال فيلسوف فى مدينته الفاضلة إلى أن قام مزدك بثورته فى فارس وفرض شيوعية المال والمرأة والولد فماذا كان شكل المجتمع ؟

قد وجب فى الجماعة المانوية على الصديقين أن يعيشوا بلا نساء وألا يملكوا من الغذاء غير قوت يوم واحد ، ومن الملابس غير ما يكفى سنة

واحدة . وقد فرضت قواعد مماثلة على الطبقات العليا من الفرقة المزدكية ، بيد أن رؤساء المزدكية أدركوا أن الرجال العاديين لا يستطيعون التخلص من حب اللذات المادية ، أى الرغبة فى تملك الأموال والنساء ، إلا فى اللحظة التى يستطيعون فيها إشباع هذه الحاجات بالاختيار . وبهذه الفكرة ظهرت النظرية الاجتماعية للمزدكية ، فإن الله إنما جعل الأرزاق فى الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتساوى بحيث لا يكون لأحدهم أكثر مما لغيره ، وقد نشأ عدم المساواة بالقوة فكل يريد إشباع رغباته على حساب أخيه . والحقيقة أن من كان عنده فضلة من الأموال والنساء والمتعة فليس هو أولى به من غيره فينبغى أن يأخذوا من الأغنياء للفقراء وأن يردوا من المكثرين على المقلين ، وذلك ليقيموا المساواة البدائية . ينبغى أن تكون النساء والأموال شركة بين الناس كاشتراكهم فى الماء والكلأ .

واعتنق السفلة ذلك المذهب وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم ، فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم حتى كانوا يدخلون على المرء فى داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم . وحملوا قباذ إمبراطورهم على تزيين ذلك وتوعدوه بخلعه فلم يلبثوا إلا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل منهم ولده ولا المولود أباه ، ولا يملك الرجل شيئا فما يتمتع به . وظهر قوم لا يتحلون بشرف العمل ، لا ضياع لهم موروثة ولا حسب ولا نسب ولا حرفة ولا صناعة ، عاطلون مستعدون للغمز وبث الكذب والافتراء ، بل هم مع ذلك يحيون فى رغد من العيش وسعة المال .

عم التطاول كل مكان واقتحم الثوار القصور ناهبين الأموال مغتصبين الحرائر مهملين الأراضى ، فقد كان السادة الجدد لا يعرفون الزراعة .

لقد فتت هذه الاضطرابات الشيوعية فى عضد الدولة حتى إن الحارث بن جبلة ملك غسان قد طرد المنذر حليف الفرس من الحيرة ومرغ أنف الإمبراطورية الفارسية فى الرغام .

ولما ولى كسرى أنو شروان الحكم بدأ إصلاحاته بالقضاء على الفوضى التى أحدثها أتباع مزدك ، فرد الأموال إلى أهلها منقولة كانت أو ثابتة ، وجعل من الأموال التى لا وارث لها رصيدا لإصلاح ما فسد . وأما من غلب على أمره من النساء فكان ينظر لحالة كل منهن على حدة : فإذا كانت المرأة المغتصبة من طبقة الغاصب ولم تكن قد تزوجت من قبل أو كان زوجها قد توفى عنها يؤخذ الغالب لها حتى يغرم لها مهرها ويرضى أهلها ، فإذا لم يكونا من أهل طبقة واحدة فالطلاق واجب إذا أصرت الزوجة عليه ، وعلى الزوج أن يدفع لزوجه المهر وأن يرضى أهلها . وإذا كان للمرأة زوج على قيد الحياة وجب ردها إلى زوجها ، وألزم الغالب بأن يدفع لها مهرا مساويا للمهر الذى دفعه زوجها الشرعى من قبل .

وأمر بكل مولود اختلف فيه عنده أن يلحق بما هو منهم إذا لم يعرف أبوه ، وأن يعطى نصيبا من مال الرجل الذي ينسب إليه إذا قبله الرجل . وأمر بكل من كان أضر برجل فى ماله أو ركب أحدا بمظلمة أن يؤخذ منه الحق ثم يعاقب الظالم بعد ذلك بقدر جرمه .

وأمر بعيال ذوى الأحساب الذين مات قيمهم فكتبوا له ، فأنكح بناتهم الأكفاء وجعل جهازهم من بيت المال ، وأنكح شبابهم من بيوتات الأشراف وساق عنهم وأغناهم وأمرهم بملازمة بابه ليستعان بهم فى أعماله .

وقضى كسرى على طائفة المزدكية ولكن بقيت الفكرة يتوارثها أجيال من

البشر ، حتى قام القراطمة فى أيام الدولة العباسية الأخيرة يدعون إلى شيوعية المال وشيوعية المرأة ، وقد عاث القرامطة فسادا فى الدولة الإسلامية حتى أوهنوا الأمة بذلك الفساد الذى كاد أن يجتث جذورها الطيبة التى امتدت فى ضمير البشرية .

كان الدين هو الغيث الذى روى شجرة العدالة على مر العصور ، وقد حاولت الفلسفة أن تؤدى رسالة الدين فى بعض الأحايين فأقامت مدنا فاضلة فى عقول الفلاسفة ورسمت سبلا للعدالة فى خيالاتهم ، فلما جاء بعض المؤمنين بالآراء الفلسفية البراقة من ذوى القوة والنفوذ وطبقوا على الناس مذاهب الفلاسفة نشروا الظلم فى الأرض وأشاعوا الفساد باسم العدالة والتقوى والحق .

وقد نجح الدين فى إسعاد الناس وأخفقت الفلسفة لأن الدين من عند من سوى النفوس ، أما الفلسفة فهى ثمرة عقول أصحاب القلوب المتقلبة ، أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ؟

لقد أدت الفلسفة رسالتها أيام كانت تابعة للعقيدة تؤيد بالدليل العقلى ما سلمت به النفوس بالإيمان تسليما لا يقبل ريبة ولا شكا ، وقد سار الفلاسفة فى ركاب الدين لما كان الدين القوة الوحيدة التى استطاعت أن تثبت لغزوات أمم الشمال المتبربرة التى قوضت الدولة الرومانية ، فقد كانت هذه الدولة عاجزة من الوجهة السياسية لا تقوى على حماية نفسها من برابرة الشمال ، وكانت الحضارة العلمية على وشك الانهيار على أيدى أولئك الغزاة خصوصا إذا علمنا أن تلك الحضارة كانت فى نفسها منحلة القوى مقوضة الدعائم ، وكانت الحياة الفكرية بأسرها توشك أن تندك على أيدى هؤلاء الفاتحين

السذج الحفاة لو لم تكن هناك تلك القوى الروحية التى اضطرت هؤلاء الغزاة إلى التسليم بها والدخول فى دينها ، والتى عرفت كيف تنقذ هيكل المدنية وتصونه خلال هاتيك القرون ، تلك كانت قوة الدين التى قامت بما لم تستطع أن تقوم به الدولة .

فمن جانب الدين وحده اتصل العالم الجديد بعلم القدماء ، وعن طريق الدين وحده عرفت البشرية السعادة الحقيقية ، ولما وضعت الفلسفة نفسها فى خدمة الدين وأيدت العقائد الدينية قامت بدور إيجابى فى سبيل رفاهية البشرية وراحة النفوس ، ولكن لما عاد الفلاسفة إلى البحوث العلمية مدفوعين بلذة البحث مولعين بجمال المعرفة فى ذاتها معارضين العقيدة الدينية أحيانا ، زعزعوا عقائد البشر وغرسوا فى نفوس الناس الشك والقلق وألقوا بهم فى التيه يتلفتون مفزوعين يقاسون الضياع الأكبر .

« يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم . وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون . فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون . فذرهم فى غمرتهم حتى حين . أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون . إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون . ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون . بل قلوبهم فى غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون . حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم

يجأرون . لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون . قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون . مستكبرين به سامرا تهجرون . أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين »[١]

القاهرة فى ٢٩ / ٣ / ١٩٦٧

---

(١) المؤمنون : ٥١ — ٦٨ .

المـــراجع

القرآن الكريم

تاريخ الأمم والملوك — للطبرى

السيرة النبوية — لابن هشام

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام — لتقى الدين محمد بن أحمد الفاسى

تاريخ العرب قبل الإسلام — للدكتور جواد على

البداية والنهاية — لابن كثير

عيون الأخبار — لابن قتيبة

العقد الفريد — لابن عبد ربه

بلوغ الأرب — للألوسى

وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى — للسمهودى

إيران فى عهد الساسانيين — لكريستينس ــ ترجمة يحيى الخشاب

قصة الحضارة — ول ديورانت

مختصر دراسة التاريخ — توينبى

قصة الفلسفة الحديثة — أحمد أمين وزكى نجيب محمود

جمهورية أفلاطون — ترجمة حنا خباز

الحضارة البيزنطية — لستيفن ونسيمان ــ ترجمة جاويد

تاريخ ابن خلدون

التاج — للجاحظ

Persia Past and Present — **Jackson**

History of the Jews — **By Sachar**

رقم الإيداع ٢١٩٧

الترقيم الدولى ٦ ــ ١٢٢ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧



مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الثمن 